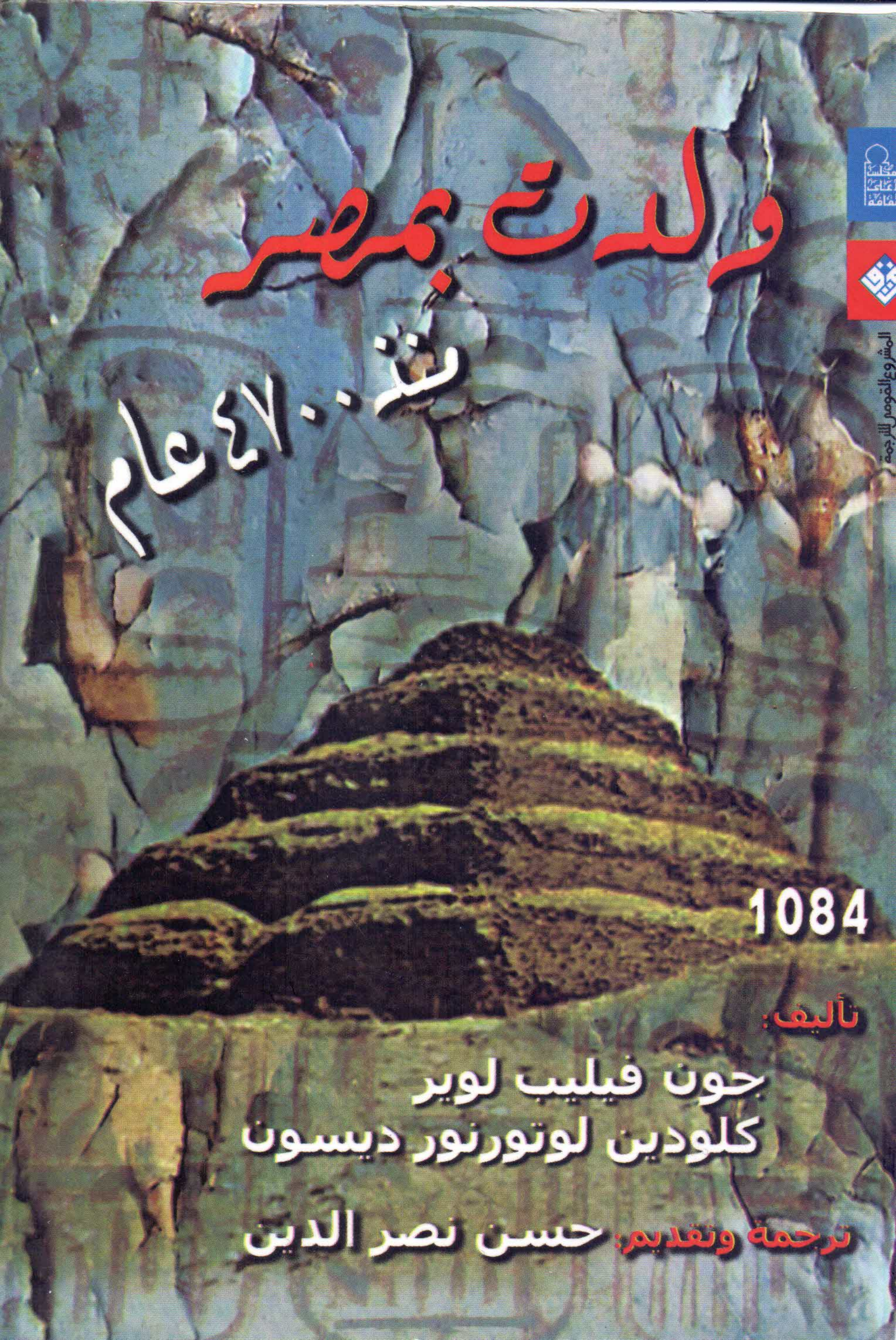
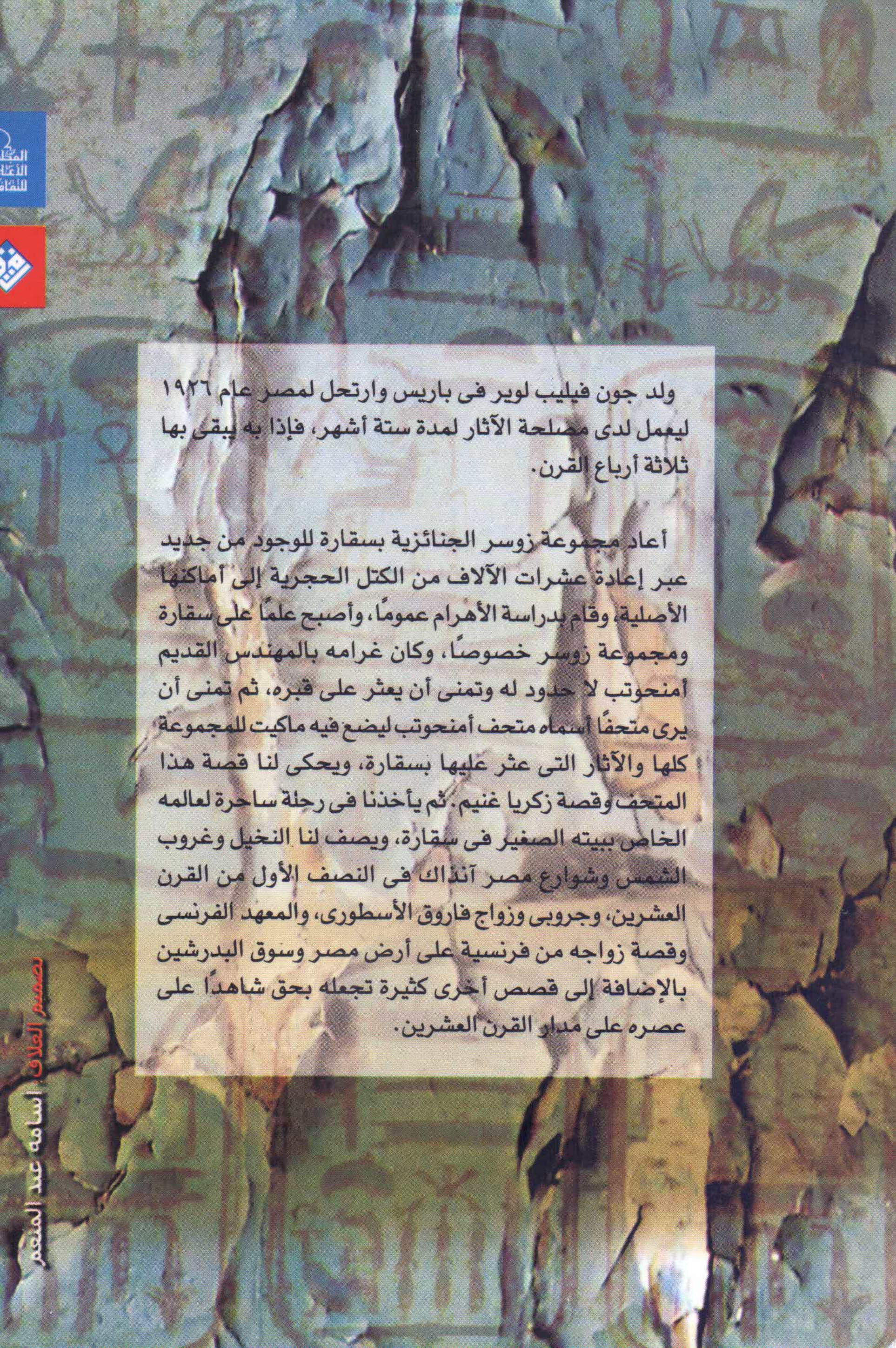

ولدت بمصر
قبل ٤٧٠٠ عام
1084
تأليف:
جون فيليب لوير
كلودين لوتورنور ديسون
ترجمة وتقديم: حسن نصر الدين
المشروع القومي للترجمة



ولد جون فيليب لوير فى باريس وارتحل لمصر عام ١٩٢٦ ليعمل لدى مصلحة الآثار لمدة ستة أشهر، فإذا به يبقى بها ثلاثة أرباع القرن.

أعاد مجموعة زوسر الجنائزية بسقارة للوجود من جديد عبر إعادة عشرات الآلاف من الكتل الحجرية إلى أماكنها الأصلية، وقام بدراسة الأهرام عمومًا، وأصبح علمًا على سقارة ومجموعة زوسر خصوصًا، وكان غرامه بالمهندس القديم أمنحوتب لا حدود له وتمنى أن يعثر على قبره، ثم تمنى أن يرى متحفًا أسماه متحف أمنحوتب ليضع فيه ماكيت للمجموعة كلها والآثار التى عثر عليها بسقارة، ويحكى لنا قصة هذا المتحف وقصة زكريا غنيم. ثم يأخذنا فى رحلة ساحرة لعالمه الخاص ببيته الصغير فى سقارة، ويصف لنا النخيل وغروب الشمس وشوارع مصر آنذاك فى النصف الأول من القرن العشرين، وجروبى وزواج فاروق الأسطورى، والمعهد الفرنسى وقصة زواجه من فرنسية على أرض مصر وسوق البدرشين بالإضافة إلى قصص أخرى كثيرة تجعله بحق شاهدًا على عصره على مدار القرن العشرين.

ولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٨٤
- ولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام
- جون فيليب لوير ، وكلودين لوتورنور ديسون
- حسن نصر الدين حسن
- الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Je suis né en Egypte il ya 4700 ans

De : Philippe Lauer

et Claudine le Tourneur d'Ison

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المشروع القومى للترجمة

ولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام

تـألـيـف : جـون فيليب لـوير
كلودين لوتورنور ديسون
ترجمة وتقديم : حسن نصر الدين حسن



بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

لوير ، جون فيليب

ولدت بمصر منذ ٤٧٠٠ عام تأليف: جون فيليب لوير؛

ترجمة: حسن نصر الدين حسن – ط١ – القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧

٣٢٤ ص ؛ ٢٠ سم (المشروع القومي للترجمة ، العدد ١٠٨٤)

١ – الأدباء الفرنسيين

(أ) حسن ، حسن نصر الدين (مترجم)

(ب) العنوان ٩٢٨,٤

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٣٤٩

الترقيم الدولي I.S.BN. 977 - 437 - 153 - 4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتــويات

تقديم المترجم

تنشر صحيفة "لوفيجارو" ذات صباح أن أكثر من عشرة ملايين من أبناء الشعب الفرنسي يقرأون مؤلفات الكاتب الفرنسي الشهير "كريستيان جاك" المستوحاة من التاريخ المصري القديم، وعرفت فرنسا ما يسمى بـ "إيجيبتومانيا" أو "الهوس بمصر" ولم يكن هذا الولع والافتتان وليد اليوم ولكن له جذوراً ممتدة عبر عدة قرون من الزمان.

لقد كان الإمبراطور فرانسوا الأول لا يذهب فى أى من رحلاته إلا ومعه حقيبة جلدية صغيرة مملوءة بمسحوق اسمه "مومياء"، يفترض أنه مستخرج من المومياوات المصرية، وقالوا إنه يعالج من أمراض لا حصر لها. وكان دوبيرسيك (١٥٨٠ - ١٦٣٧) وهو قاض من إقليم بروفانس من أكثر من جمع أشياء وتحفًا مصرية نادرة.

وكانت مصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر "بلاد العجائب" ولا ريب، فقد كانت بآثارها عصية على الفهم، فلم تكن المصرية القديمة قد تم فك رموزها وحل طلاسمها، ومن ثم كانت تغذى الأساطير بصمتها الغامض هذا. وازداد اهتمام فرنسا بالشرق فى عهد لويس الرابع عشر، وفى عام ١٦٩٦ كانت هناك مسرحية باسم "مومياوات مصر" كانت حديث المجتمع الباريسى.

وفى عام ١٧٢١ - ١٧٢٢ كانت رحلات الأب بول سيكار التى وصل فيها حتى فيلة، وفى عام ١٧٣٥ يصدر قنصل فرنسا فى مصر بينوادوه مابيه كتابًا أسماه "وصف مصر" بخلاف الكتاب الشهير اللاحق له الذى يحمل العنوان نفسه، وهو مؤلف شامل عن بلاد وادى النيل لدرجة أن الناس مع منتصف القرن الثامن عشر كانوا يعرفون عن مصر تقريبًا كل شيء.

وكانت مارى أنطوانيت (ملكة فرنسا ١٧٥٥ - ١٧٩٣) مولعة بمصر، وملأت غرف نومها بتماثيل أبو الهول وذلك فى قصر فرساى أو فرسان - كلو، وفى العصر نفسه ازدهرت نماذج الأهرام ومسلات تقوم بها مصانع أشهرها مصنع حديقة "إيتوب" الذى بناه مهندس معمارى هو "جان - باتيست - كليبر" وهو الذى أصبح جنرالاً فيما بعد وجاء إلى مصر، وفى ١٤ يوليو ١٧٩٢ أقيم بساحة شان دى مارس بباريس هرم من القماش ديكورًا للاحتفال بهرم رموز الإقطاع، وفى أغسطس ١٧٩٢ بمناسبة ذكرى الشهداء أقاموا هرمًا فى حدائق التويلرى ومسلة بميدان الفيكتوار (النصر)، وبميدان الباستى، وفى ١٠ أغسطس ١٧٩٣ تقام نافورة بميدان الباستيل على هيئة الإلهة إيزيس.

وبعد غزو بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ كتب فيفان دينون كتابه "رحلة فى مصر العليا والسفلى خلال حملات الجنرال بونابرت" وحقق رواجًا كبيرًا. ثم كان كتاب "وصف مصر" الشهير الذى كتبه العلماء الفرنسيون المصاحبون لبونابرت أثناء حملته على مصر، والذى بدأ فى

الظهور عام ١٨٠٩، واشتملت طبعته الأولى على تسعة أجزاء من النصوص وأربعة عشر جزءًا من اللوحات، وأصدر الناشر بانكون طبعة ثانية من الموسوعة فى ستة وعشرين جزءًا آخرها عام ١٩٢٨ .

وكانت الخطوة الكبرى التى أذنت بميلاد "علم المصريات" تلك التى توصل إليها جان فرانسوا شامبليون عندما أخبر أخاه جاك جوزيف صباح ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ بأنه قد تمكن على التو من حل رموز اللغة المصرية القديمة. وقد توصل شامبليون لهذه النتيجة بعد عقدين من الأبحاث وكان فى سن الحادية والثلاثين من عمره. وقد أفاد من أبحاث سابقة قام بها سيلفستر دو ساسى الفرنسى ويوهان ديفيد إكربلاد السويدى وتوماس يونج الإنجليزى. وفى صباح ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ يقرأ شامبليون أمام الأكاديمية رسالته الشهيرة إلى السيد داسييه، ويكافئه الملك لويس الثامن عشر ويستقبله بابا الفاتيكان ليون الثانى، ويصبح شامبليون أمين المتحف المصرى الذى افتتح فى اللوفر ١٨٢٧، وكان اسمه آنذاك متحف شارل العاشر.

كان أوجست مارييت فى التاسعة عشرة من عمره فى عام ١٨٥٠ عندما ابتعثه متحف اللوفر لشراء بعض المخطوطات القبطية، وكان بقرابة بنستور لوت مرافق شامبليون، واطلع على أوراقه الخاصة بمصر وازداد شغفه بهذا البلد. وغير برنامج بعثته ليكتشف معبد السيرابيوم فى سقارة، وهو عبارة عن مدافن العجل أبيس المقدس وغيرها من المكتشفات، وبعث إلى باريس بمئات الصناديق المليئة بالآثار التى

لا تقدر بثمن؛ لتثرى متحف اللوفر الذى أصبح ماربيت فى عام ١٨٥٢ أمينًا على الآثار المصرية به. وكان لماربيت منزل بسقارة.

وجعله سعيد باشا مأمور الآثار المصرية، وهى وظيفة جديدة. ومنذ تلك اللحظة أصبح مدافعًا عن التراث المصرى، وعمل على إنشاء العشرات من مواقع الحفائر، ومن ثم تمكن فى عام ١٨٦٣ من إنشاء المتحف المصرى فى حى بولاق القديم.

ومن أشهر عشاق مصر كذلك جورج لوجران الذى ولد فى باريس فى الرابع عشر من أكتوبر عام ١٨٦٥ لأب يعمل بالطباعة، وقام بدراسة اللغة المصرية القديمة بمدرسة اللوفر، وكان من المغرمين باللغة المصرية وخاصة فى خطها الديموطيقى، وقام باكتشاف خبيئة الكرنك. كما اشترك لوجران فى كل مواقع العمل بمصر، فبعد انتهاء أعمال البعثة عند الأهرام فى دهشور والجيزة والإسكندرية وواحة الخارجة، صعد لوجران إلى منابع النهر وعاد بحقائب مليئة بالنصوص والرسومات. وكان يصور الآثار التى أحس بأهميتها مبكرًا خاصة بالنسبة للنقوش، وعمل على حماية أبنية الأقصر الأثرية وبيَّن أعمدتها، ومن شدة الإعياء الناتج عن العمل وافته منيته فى أغسطس ١٩١٧ وكان قد نال وسام الشرف عام ١٩٠٨ وكان يعتز به كثيرًا.

ومن العلماء الفرنسيين الذين تحتفظ بهم الذاكرة جاستون ماسبيرو الذى يعد من ألمع رؤساء هيئة الآثار المصرية ومن أشهر علماء المصريات العالميين، وعاصر لوجران وكذلك فيكتور لوريه وبيير لاكو ...

وتستمر مصر تجتذب علماء الآثار الكبار، كما تستهوى ألباب المغرمين بها من كل أنحاء العالم.

* * *

ولد جون فيليب لوير فى ٧ مايو ١٩٠٢ فى باريس، وحصل على شهادته مهندسًا معماريا، وحتى عام ١٩٢٦ لم يكن قد زار مصر. وذات صباح يصله خطاب من مصر من ابن عمه جاك هاردى يخبره أن بيير لاكو مدير مصلحة الآثار فى حاجة إلى مهندس معمارى يعمل لعدة أشهر لدى المصلحة، وكان هذا الخطاب نقطة تحول فى حياة لوير ...

ويأتى إلى مصر بصحبة خيال كبير مما قرأه عنها بمكتبة والده وما معه من كتب، خاصة كتاب ماسبيرو "تاريخ مصر".

وجاء لوير إلى مصر فتى شابا مع بدايات القرن العشرين ليعيش بها طيلة سنى هذا القرن مشاركًا فى أفراحها وأتراحها، مشاهداً لعهود الملكية والجمهورية، فهو بحق شاهد على مصر فى القرن العشرين.

يحكى لنا لوير عن مصر فيقول عن جروبى إنه شكل جزءاً مهما من ذكرياته، فهناك كان يلتقى شابة تدعى مارجريت جوجى والتى سوف تشاركه حياته لأنه أتى مصر عزبًا ليتزوج على أرضها ... فكان جروبى : "مكان التقاء الطبقة البرجوازية بالقاهرة، وكان يقع عند ملتقى شارعين بميدان طلعت حرب، ويتميز بنوافذه الزجاجية الضخمة وزخارفه

الداخلية النادرة وأنواع الحلوى التى لا حصر لها ..."، كما يحدثنا عن قهوة الفيشاوى فى الثلاثينيات بزبائنها التى كان فى مقدمتها شاب صغير اسمه نجيب محفوظ، كاتب شاب، اعتاد المجىء إلى المقهى ليكتب رواياته فى هذا الجو الحالم، لكنه ومنذ حصوله على جائزة نوبل لم يعد يأتى للفيشاوى لكن المقهى وبفضله أصبح مكانًا تاريخيا ......".

عمل جون فيليب لوير مع معظم علماء المصريات الكبار منذ قدومه إلى مصر ومنهم جوستاف جيكييه الذى اصطحبه معه ليعطيه فكرة عن سقارة، وهى المنطقة التى سوف يعيش فيها طيلة عمره وسوف تشكل تصوره وسوف يمنح أثرها الشهير وهو مجموعة زوسر ملامحه الأصيلة بعد أن تهدمت بشكل كبير.

وسقارة هذه اشتق اسمها من إله الجبانة سوكر بمنف، وهى جزء من جبانة منف الكبيرة التى تمتد على مسافة خمسين كيلومترا على حدود وادى النيل من "أبو رواش" شمال أهرام الجيزة وحتى "اللشت" جنوبيًا. وأهم آثار سقارة مجموعة زوسر الجنائزية بعناصرها المعمارية الفريدة.

يعيش بمنزل صغير بسقارة مع زوجته ليبدأ عمله فى الثانى من يناير ١٩٢٧ فى مجموعة زوسر الجنائزية، ويلتقى العالم الانجليزى فيرث ويحكى لنا عن طرافته وعمله واكتشافاتهما معا بسقارة.

"ابتداء ... لم تكن لدىَّ الرغبة فى العودة حيا إلى فرنسا!" هكذا كتب لوير عن نفسه بعد بداية عمله بسقارة، ويضيف: "عندما كنت أسافر

إلى باريس لفترة الصيف كنت أعيش حتى الخريف غير واثق من عودتى ثانية، وكان علىّ أن أنتظر موافقة الإدارة المصرية من جديد، ومع ذلك لم تنس هذه الإدارة أبداً، وحتى يومنا هذا مازلت أتقاضى معاشًا من مصلحة الآثار المصرية بوصفى موظفًا بها".

يساهم لوير مع فيرث فى اكتشاف محتويات المقبرة الجنوبية وما كانت تحتويه من فخار و"فيانس" أزرق، وفى هذا يقول: "وهنا على هذا العمق فى هذا المكان الضيق فقدنا ابننا الأول عندما نزلت زوجتى معى لتنظف هذه الآثار!".

ثم يحدثنا لوير عن نشاط زاهى حواس واهتمامه بالمنطقة منذ سنين، ولكنه يلتمس له العذر فى صعوبة التغلب على المشاكل كلها التى تتهدد آثار الجيزة وخاصة "أبو الهول"، ثم يبرز شهادته على حدث مهم عاصره عام ١٩٨٨ فيقول: "حدثت دراما عام ١٩٨٨ عندما تهدل جزء من الكتف الأيسر لتمثال أبو الهول، وهو كتلة تزن حوالى مائتين من الكيلوجرامات، وكان المصريون قد قرروا منذ عام ١٩٨٢ أن يتولوا هم أعمال الترميم وارتكبوا أخطاء كبيرة على رأسها استخدام أسمنت يفتت الأحجار".

ثم يعود مرة أخرى ليحدثنا عن قصة آخر اكتشاف له مع سيسيل فيرث، وهو رأس جرانيتية ضخمة للملك وسركان، وبعد ذلك توفى فيرث ليترك لوير فيصبح الأثرى الوحيد فى شمال سقارة وكان عمره آنذاك تسعًا وعشرين عامًا.

ويحدثنا لوير عن العثور على أربعين ألف آنية فى الدهاليز أسفل الهرم المدرج وترميمها.

ومن أعماله المهمة إعادة دهليز الأعمدة للوجود من جديد، وقام فى دأب وبلا كلّ بوضع كل عنصر معمارى فى مكانه الأصلى، وكان شيئًا يدير الرأس ، فكل شىء مختلط بآلاف الكسر الحجرية، والأعمدة مهشمة تمامًا، وجذع العمود يتكون من ثلاث كتل وأحيانًا أربع وأحيانًا خمس، وكان عليه أن ينسب كل قطعة إلى عمودها، ومجموع ما توصل إليه سبعمائة قطعة توصل إلى مكانها الأصلى، وكثيراً ما خاطب إيمحوتب، ولسوء الحظ لم يظهر له أبدًا، ولكن عندما يجد مكان قطعة يقول: "هذه هدية من إيمحوتب". واستغرقت هذه العملية من لوير سنوات وسنوات فكان يعد رسمًا لكل قطعة من قطع الأعمدة، ومجموع القطع بلغ حوالى ألفين من القطع والعناصر المعمارية.

ثم يفرد لوير للراحل زكريا غنيم فصلاً فى كتابه معتبراً إياه من أروع من أنجبت مصر من الآثاريين الوطنيين، ويحكى قصة اكتشاف هرم سخم خت، ودراما انتحار زكريا غنيم بعد اتهامه بسرقة آنية فخارية، ثم اجتهاد لوير فى البحث عن هذه الآنية ليثبت براءة هذا المصرى المتمين، وعثر عليها ولكن بعد فوات الأوان.

ثم يعرض فى كتابه لما مرت به مصر من تحولات من الملكية إلى الجمهورية، وزيارات عبد الناصر لسقارة ومبارك كذلك وزيارات الملوك والرؤساء الأجانب بعين مدققة.

ويتوقف عند أمنية حياته فى العثور على قبر إيمحوتب، وكيف أنه كان لديه الأمل فى العثور على قبر المهندس الذى شاد هذه المجموعة، وكذلك الأمنية الأخرى وهى إنشاء متحف لكى يعرض به نموذجًا مصغرًا قام بإعداده يحاكى المجموعة الكبيرة، واختار الموقع وبدأ العمل وتوقف، ويحكى كيف أن شيراك تدخل لكى يستأنف العمل فى متحف إيمحوتب من جديد، ثم يقول متعجبًا بعد أن توقف العمل ثانية : "علىَّ أن أنتظر زيارة أخرى لشيراك لكى يستأنف العمل من جديد".

حسن نصر الدين حسن

لوير وعمرٌ مديد

ينبض قلبى بشدة دومًا كلما عدت لمصر . ومنذ عدة أعوام قلت لنفسى : هذه ربما تكون آخر مرة . ثم لا ! استمر الإله يمد فى عمرى ، وعدت لسقارة بسعادة دومًا ، على الرغم من أن مصر منذ عام ١٩٢٦ تغيرت كلية ، ولحسن الحظ أن الهرم كان لا يزال هنا ، ولكن بالنسبة لى ، فإن التغيرات كانت متسارعة ، ومن ثم اعتدت على ذلك لو جاز لنا القول . حقًا لقد فقد هذا البلد الكثير من بهائه والقاهرة بخاصة ، فالمدينة التى خبرتها لم تكن تأوى سوى مليون نفس ، أما الآن فإنها تضم ١٥ مليون ساكن. فى كل مرة أعود فيها تأخذنى الدهشة لمرورى بأحياء جديدة لم أكن أعرفها ، ففيما مضى كانت ضفاف النيل خلابة تحف بها منازل وحدائق غناء ، فى الوقت الحاضر لم يعد موجوداً إلا مبان خرسانية ولكن بالنسبة لى كان الشىء الأكثر إثارة للغضب هو أن يترك الأمر ليتم بناء مدينة حول أهرام الجيزة ، فلا يوجد مكان واحد نتمكن من خلاله من رؤيتها معزولة فى الصحراء ، إذا ما أحطنا المبانى بخطوط الضغط العالى التى تخيم على المنظر فى مشهد حزين حقا . الطريق الصغير الذى يؤدى من الجيزة لسقارة أصبح طريقًا سريعًا يعج بالشاحنات .

من خلال شرفة منزلى أتحقق فى كل مرة أعود فيها أن المدينة تزداد اتساعًا ، والخرسانة تقف وسط شجيرات النخيل ، ولا أشك فى أنه سيصل يومًا ما إلى المنحدر الصخرى فى سقارة . عندما أنظر إلى أسفل إلى الوادى حيث أشجار النخيل أكتشف المزيد من التدمير ، أكداس من أكياس البلاستيك وسط باقات من الأعشاب الخضراء ، تعلقت بفروع الشجر وكأنها أكاليل غير مرغوب فيها أو قلائد من النفايات لبشر فقدوا القدرة على تذوق الجمال . فى هذا الموقع العتيق ما يعكسه القرن العشرون هو مدى تخلفنا .

كانت سعادتى منذ عشرين عامًا ولاتزال هى زيارة مصر عبر الطريق البرى ، تلك الرحلة التى أصبحت مغ مرور الوقت طقسًا يمنحنى الفرصة لأن أحمل عالمى معى. ولقد شحنت سيارتى الرينو القديمة بالكتب وحقائب السفر المواد المفيدة كلها للعمل فى الموقع ، ولقد انتشيت منذ البداية للمناظر الطبيعية التى كانت فى انتظارى، والتى سوف أكتشفها والمدن التى سوف أعبرها وخاصة التى بها شعور خاص بالحرية التى تمنحها لك السيارة ، فالسفر بالطائرة دومًا معقد جدا، حيث يجب عليك الوصول قبل الموعد بعدة ساعات لتجد نفسك محشورًا فى صالات مكتظة، وتنتظر بالتالى على مقاعد غير مريحة بدون عمل شىء، ثم المرور بتفتيش متعدد وممل . أما فى السيارة أعبر فرنسا وإيطاليا ويوغوسلافيا ثم اليونان ثم آخذ المركب إلى بيريه لكى أصل للإسكندرية، ولطالما تمتعت بهذه الرحلة السياحية، وكان صعبًا على نفسى أن أواجه اليوم

الذى أخبر فيه أننى تخطيت العمر الذى يمكننى فيه التنزه هكذا بمفردى على الطرق .

أودران لابروس ، مدير البعثة الفرنسية للحفائر فى سقارة اصطحبى فى رحلتى الأخيرة ، فى ذاك الزمن كان لا يزال صغيراً ذا شعر طويل ، فعلى الحدود اعتبره رجال الحرس ابنتى .

وعندما وصلت فى عام ١٩٢٦ كانت مصر بلداً شاعريا ، كانت مملكة الرمال والسكون والغموض ، حديقة هائلة حيث كل شىء ينمو بغزارة ، وأن تطأ قدماك أرض هذا البلد المدهش فى وقت الفيضان وتحت هذه الأشعة الجميلة لهو حلم . رحلتى الأولى ستبقى للأبد الذكرى الأكثر إبهاراً فى حياتى ، فأتذكر حقول البرسيم وذهب عيدان قصب السكر والشعير الأصفر وسنابل القمح الأخضر ، علام نخشى المصير ؟ شابٌ... لم أكن أتخيل أننى سآتى يوماً لزيارة مصر وأننى سأمضى بها أربعة وسبعين عاماً من عمرى! أجهل الملابسات التى قادت خطاى إلى مواقع خطى إيمحوتب ، أكثر المهندسين المعماريين شهرة فى تاريخ البشرية، والذى عاش فى ٢٧٠٠ ق . م. قبل عصرنا . كان هنا قدرى، ولقد سرت إليه دونما أدنى تردد رغم أن الحياة بدت لى أحياناً مملة، وكان لدى انطباع بالرتابة حتى كان اليوم الذى استيقظت فيه ووجدتنى هنا منذ سبعين عاماً دون أن أشعر .

وأحد حظوظى فى هذه الدنيا هو تمتعى بصحة من حديد ، فعند سن السادسة أصبت بكل أمراض الطفولة ، الجدرى والسعال الديكى ...

بعد ذلك أصبحت محصنًا، ثم أفدت من مناخ سقارة الصحى جدا فى جو نقى تمامًا ، فهناك سماء صافية ذات نجوم لم تكن قد تلوثت بعد ، وأشعة الصباح الأولى تشرق على الشرفة حيث أتناول كل صباح إفطارى، والهدوء يحيط بالمكان . أما اليوم فالطائرات تحدث ضجيجًا لا يطاق فى المكان .

بكل تأكيد لدى وصولى للموقع لم أكن أحيط بحجم العمل الذى ينتظرنى فى المجموعة الجنائزية للملك زوسر ، فى عهد هذا الفرعون الذى حكم حوالى ٢٧٠٠ ق.م. عرفت مصر عصرًا من أزهى عصورها ، ولقد فطنت بسرعة منذ العام الأول، أى عمل جبار ينتظرنى بين جنبات هذا الحطام فى سقارة . وكل من جاء لمساعدتى سرعان ما يتخلى عن ذلك ، حتى صلاح النجار وهو واحد من ألمع علماء المصريات المصريين، والذى عمل معى لعدة أعوام لكنه لم يوفق للعثور على قطعة ولو صغيرة، لكى يضعها فى موضعها من الدهليز، فى حين إننى أعدت ما لا يقل عن سبعمائة قطعة فى هذا الدهليز . على الرغم من الصعوبات التى لم تكف عن التعرض لى طوال هذه العقود المديدة، فإننى فى الإجمال أرانى محظوظًا هنا . وأكثر اللحظات سعادة تلك التى أحسها لدى العثور على قطعة مهمة للترميم فى أحد الأعمدة، على سبيل المثال لطالما جربت هذه السعادة الغامرة التى تغزوك عند توصلك لهدف رئيسى . عبر حياتى كلها كانت سقارة رئيسية، وعندما أنظر خلفى كثيرًا ما يثيرنى عدد السنين التى قضيتها فى مصر ، ويبدو ذلك لا يصدق عندما أجدنى على مبعدة

عامين من عمر المائة عام ، ولم أستطع التحقق من أننى وصلت هذه السن فكل شىء مر سريعًا ورغم كل ذلك لدى شعور أننى أستطيع عمل المزيد، ولكن الواقع يحول دون ذلك ، تمر علىَّ أوقات أحِس أننى أفيق من حلم كبير، وأحيانًا أقول لنفسى إن العمال كانوا محقين عندما يقولون "إن الإله قد نسى السيد لوير" .

الخطـــاب

لن أنسى ما حييت ذلك اليوم من عام ١٩٢٦ عندما هرولت أمى نحو باب غرفتى تقرعه بلهفة لكى تعطينى خطابًا، فقمت عن طاولة عملى وأخذت المظروف شاكرًا لها ، والنظر كان مصوبًا تجاه الورقة البيضاء حيث اسمى مدون بشكل جميل ودقيق ، إنه خط ابن عمى جاك هاردى، وهو فى الحقيقة ابن عمى بالمصاهرة ، فلقد تزوج من ابنة عمة لى ، جرمانية ، وهى ابنة أخت والدى، والتى كانت تجمعنى بها رابطة قوية دومًا على الرغم من فارق عمرينا، حيث كانت تكبرنى باثنى عشر عامًا ، وكذلك كان جاك متعلقًا بى جدا، وهو زوجها ، رجل لذيذ وبالأحرى أصيل ولامع من ناحية مهنته . لقد كان مهندسًا ويعيش فى القاهرة منذ سنين عديدة مع ابنة عمتى وأطفالهما السبعة . هذا الخطاب هو الذى سوف يغير مجرى حياتى ، وكنت أتساءل ، ما الذى دفع هاردى حقيقة لكى يكتب إلىَّ ؟ وفى هذا الخطاب وبعد عبارات المجاملة المعتادة ذكر أن بيير لاكو مدير مصلحة الآثار المصرية يبحث عن مهندس شاب للعمل بموقع سقارة؛ لمساعدة عالم المصريات الإنجليزى سيسيل فيرث الذى كان قد عرف اسمى من هاردى أثناء تناول طعام العشاء ، وطلب لاكو الاتصال

بى سريعًا لمعرفة ما إذا كانت وظيفة لمدة ثمانية أشهر فى مصر تلقى لدى قبولاً . آنذاك كنت فى العام الأخير من دراستى للعمارة فى مدرسة الفنون الجميلة فى باريس، وكنت أجهل كيف أتجه مستقبلاً فى الحياة العملية . العمارة لم تكن على ما يرام تمامًا فى فرنسا . لقد انتهوا من إعادة بناء الأقاليم التى خربتها حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وفى باريس لم تشهد عمليات البناء أى نشاط لرفض السكان هذا الأمر بشدة ، وبالطبع لا أحد يجرؤ على الاستثمار فى البناء ، وكنت أفكر فى الرحيل لأمريكا اللاتينية أو المغرب ، بلاد بها أشياء كثيرة نقوم بها، ومع ذلك لم أكن قد اتخذت أى قرار لأننى لم أكن قد حصلت على شهادتى بعد . وقد غمرنى هذا الاقتراح الذى هبط علىَّ من السماء بالسعادة البالغة، ومن ثم فقد أخذت أحلم بقية يومى هذا .

وفى المساء فاتحت والدى الذى كان قريبًا منى ، فى هذا الأمر ، وبالمناسبة إننى أكن لهذا الرجل احترامًا عظيمًا، فلقد كان واسع الاطلاع والمعرفة ، حيث كان طالبًا متفوقًا ، وأول دفعته فى مدرسة المدفعية ، ثم أخذ إجازة الحقوق قبل أن يحصل على شهادة مدرسة الدراسات العليا . ولقد ابتعث إلى روما ، إلى قصر فارنيز للإعداد لدرجة الدكتوراه حول اكتشاف تم فى قصر لاتران . ولقد كان محظوظًا عندما عثر على مكان خبيئة كنز سانكتا سانكترم، وعين لدى عودته مباشرة من روما مرممًا بالمكتبة الوطنية بقسم المحفوظات، حيث أمضى حياته العملية حتى وصل لمرتبة المشرف على المرممين . لكنه عارض

فكرة أن أسير على دربه . ومن جهة أخرى كنت أجهل ما إذا كانت لدىَّ القدرة على ذلك، وخاصة تلك المعاملة القاسية التى لاقاها هو وأمثاله، فلم يكن ليستطيع أن يعيش بمرتبه الزهيد، لولا ما كان ينفق على نفسه من ثروته هو وأسرته المكونة من زوجته وأطفاله الأربع .

ولأن العمارة كانت تقليداً عائليًا خرج عليه والدى ، فلقد ألح علىَّ فى اقتفاء أثر والده وجده اللذين امتهنا ذات المهنة وهى العمارة . وبعد البكالوريا الثانية لى ١٩١٩ قدمنى لواحد من أصدقائه ، وهو حاصل على جائزة روما القديمة ويدرس بمدرسة الفنون الجميلة . فى هذا العصر كان عليك أن تلتحق بأتيلييه مهندس ما، والذى يصبح أستاذاً لك خلال هذه الفترة من دراستك . وانتبهت إلى أننى يجب أن أتدبر أمرى ولكن ليس أكثر من ذلك . ولقد وصلت بدون مشقة كبيرة إلى نهاية دراستى بعد أن أمضيت ستة أعوام ختمتها بنظرية عن تشييد مركز طبى ، واخترت هذا الموضوع؛ لأنه فى هذا العصر كان أخى الأصغر الذى أحببته جدا يتردد على مصحة للعلاج من داء السل، وكنت أزوره، وكانت حالة المكان مزرية .

ولم يخف والدى ، وهو الرزين ، حماسته لهذا الأمر . ولكن والدتى كانت ترى الأمر بشكل مختلف نوعًا ما ، كانت قلقة من فكرة رحيلى لمدة طويلة فى بلد تبدو بالنسبة لها متوحشة . كانت والدتى قوية البنيان ذات شخصية قاسية أحيانًا ، وكانت ابنة صاحب مصنع للسكر من منطقة سان – لو – دى أسرون فى إلواز . تزوج والداى فى عام ١٩٠١

وولدت فى عـام ١٩٠٢ ولاحـتـرام تقليد آخـر عـزيز على والدى عـمـدنى باسم "جـون فيليب". وولد أخى فى عام ١٩٠٣ ثم أختـاى بعد ذلك بفترة، الأولى فى ١٩١١ والأخرى فى ١٩٢٠، وكان على والدتى مسئولية البيت والأطفال؛ نظراً لانشغال والدى المستمر فى حياته العملية معظم الوقت فى المكتبة الوطنية، أو بالمنزل كذلك مـشـغـولاً بالعمل فى مكتبـه . ومن ناحيـة أخرى فإن شـقتنا الواقـعة فى بولفـارد جول سـاندو ، حـيث كنا نسكن منذ عام ١٩١١، تحولت إلى معـمل أبحـاث، وعلى الرغم من أنها كانت كبيـرة فإن حجراتها كانت معتمة، والكتب التى تكدست فى كل مكان كـانت تمتص طاقـتنا ، ومكتب والدى، والذى كنا نادراً مـا نتـسلل إليـه لأن والدى لم يكن يحب أن يزعـجـه أحـد ، كـانت له رائحـة شـمع العسل التى أتذكرها جيداً ، وأحتفظ دوماً بحب عظيم - طيلة عمرى - للكتب والمكتبات .

وكنت سـعيداً جدا بحماس والدى، ومنـذ ذلك اليـوم لم أعد أحيا إلا مع مـصـر فى رأسى . ولقد أرسلت فى الغد خطاباً إلى بيير لاكو لأرشح نفسى، ثم كـتبت بعـد ذلك إلى جـاك هاردى لأشكره، ولم يتـبق أمامى سوى انتظار مجىء بيير لاكو مع بداية الصيف .

الانتظـــار

بدأ شهر يوليو، سماء زرقاء ملبدة بالغيوم، سوف تهطل الأمطار فوق باريس ، وكان يومًا مناسبًا للقيام بزيارة مهمة . وأفضل المشى على الأقدام، فشوارع باريس فى عام ١٩٢٦ كانت لا تزال هادئة والخيول تعبرها مما يعطيها سحرًا خاصا . وعند وصولى أمام المبنى حيث يسكن بيير لاكو أخذ قلبى ينبض بشدة. ووالدى الذى كان يعرفه قال لى إن هذا الرجل يفرض احترامه ، ولذلك ضغطت على جرس الباب بتأثر ، وجاءت سيدة لتفتح لى الباب وتقودنى إلى مكتب الأستاذ ، وتلعثمت عند تحيته عندما نهض ليصافحنى بحيوية . رأيت أمامى رجلاً قويا ذا قوام متناسق، وذا بنيان غير عادى . ذلك الذى كان يكسو حقا جمال هذا الوجه الكهنوتى الجذاب ذى اللحية البيضاء الطويلة المهذبة بعناية، والتى يداعبها بيد ناعمة، وتأثرت بهدوئه . بيير لاكو ، كان على دراية بأنه يحظى باحترام كونه على قمة علم المصريات عالميا . وكنت أعلم من والدى أن خلف هذا الهدوء عزيمة عالم كبير وروحًا متفتحة .

أجبت عن أسئلته بصراحة معترفًا أننى معى بكالوريوس فى اللاتينى واليونانى، لكننى لم أدرس إطلاقًا اللغات القديمة ولا أى لغة من

لغات الشرق الأوسط كالعربية أو العبرية ، أما الهيروغليفية فكانت بالنسبة لى واحدة من أكثر اللغات جاذبية وغموضاً فى تاريخ البشرية .
لم أستعد لمواجهة عالم العلماء، ولكن لاكو استوقفنى : ليس الأمر أن تصبح عالم مصريات فكل ما تحتاجه مصلحة الآثار مهندس معمارى لا أكثر . وأوضح لى لاكو أن سيسيل فيرث هو الذى يعمل منذ عام ١٩٢٤ فى سقارة على مبعدة حوالى ٣٠ كيلو متر جنوب القاهرة ، أزاح لتوه الرمال من حول بقايا الآثار التى تحيط بالهرم المدرج ، هذا الهرم هو الأول فى مصر، وهو مشيد كما لو كان سلماً يصعد نحو السماء، والذى حدث بعد ذلك أنهم أخذوا يكسون الجوانب، وأخذوا يطورون ويتقنون فى بنائه، حتى وصل للشكل الهرمى الكامل مع هرم خوفو فى الجيزة ، ولأن فيرث لم يكن يفهم وظيفة هذه الآثار التى اكتشف بقاياها فقد طلب الاستعانة بمهندس من مصلحة الآثار عندما أخذ بيير لاكو فى وصف الموقع ، الصحراء الهائلة المحيطة والمناخ المحيط بمواقع الحفائر وشخصيات علماء المصريات الذين يعملون . تركت نفسى أتخيل هذا العالم الساحر الذى سألتحق به ؛ فلقد كنت كطفل يقلبون أمامه صفحات كتاب عجائب مبهر ، فلم أكن أعلم عن مصر سوى صور الأهرام ولم أتخيل ما هى الصحراء ، وليس لدى أى فكرة عن موقع حفائر . ثم انتقل لاكو إلى شروط هذا العمل فاقترح علىَّ عقداً بثمانية أشهر مهندساً مساعداً لسيسيل فيرث مدير الحفائر فى سقارة بمرتب خمسة وسبعين جنيهاً مصريا شهريا ، فسأصبح موظفاً مصريا. ولأن هذه النقود كانت تعادل بالجنيه الإسترلينى فإن المبلغ فاق تطلعاتى كلها عند العمل فى فرنسا ،

ومع ذلك فإن لاكو سرعان ما تنبه إلى أنه بهذه المعاملة ساوى بينى وبين علماء المصريات المثبتين ، ومن ثم خفَّض مرتبى الشهرى إلى خمسين جنيهًا، ومع ذلك ظل هذا المرتب مناسبًا تمامًا وقبلت بسعادة .

لم يتبق أمامى الآن سوى انتظار العقد ، ومنذ عودته لمصر فى نهاية الصيف وعدنى لاكو بأن يرسل العقد لتوقيعه ، بعد توقيعه من السلطات المصرية . هذه القطعة من الورق كانت بالنسبة لى فاكهة ، واستثمرت هذا الشهر من الانتظار فى الغوص فى تاريخ الحضارة المصرية ، فسوف أرتحل إلى مصر لأرى بنفسى ما اكتشفته مع والدى فى طفولتى .

وجاء سبتمبر ، ولم يجئ العقد وبدأت أحس بأن الوقت يمر طويلاً ثقيلاً . ولقد كنت سعيداً جدا فى وسط عائلتى وإن كنا قد تلقينا تربية قاسية فى ذلك السكن فى الحى البرجوازى فى الضاحية السادسة عشرة ، ولم أتمرد أبداً على التقاليد المحافظة لعائلتى ، وكنت أشاركهم الإيمان المسيحى بحرارة . ومع ذلك وعند بلوغى الرابعة والعشرين من عمرى كانت عندى رغبة ملحة للتحليق وحدى بحرية ، وكانت مصر هى المكان الذى يلبى أملى فى المغامرة .

وصلنى العقد أول نوفمبر ، ولم أدر كثيرًا سبب ذلك ولم أبحث عنه . وغمرتنى السعادة فأخيرًا أستطيع السفر ، وليس أمامى إلا إعداد حقائبى ، ومنها بالتأكيد ملابس تلائم الجو الصحراوى وغطاء رأس كولونيال ، كما يقتضى التقليد ، واستعرت أحذية ضابط التى تناسب تمامًا السير

فى الرمال . وكانت تلزمنى أدوات الرسم وكمية من الكتب ، كتاب ماسبيرو "تاريخ مصر" ، وكتاب جيكيه وموريه ، وكانت والدتى مشغولة بى وقلقة من أجلى . أما والدى فقد استدعانى ذات مساء لمكتبه ليقدم لى باديكار ، إنجيل السائحين فى هذا العصر . وتأثرت جدا بهذا واحتفظت بهذا الكتاب لأعوام عديدة .

ورغم السعادة التى كانت تملؤنى ، فإننى لم أستطع أن أمنع قلبى من التأثر لحظة الرحيل لفراق أحبابى وشقيقتى ، وخاصة أخى الذى كان معتل الصحة ويخضع للملاحظة الطبية ، لكنه كان متماسكًا شجاعًا وكان ينتوى متابعة دراساته بعد الخروج من المصحة ، ومن ثم فقد كنت فى خدمته وقمت بالتسجيل له فى الجامعة وجمعت المحاضرات التى لم يستمع إليها وقمت بالاطلاع على الكتب التى قد يحتاج إليها والوثائق فى المكتبات ، ومن ثم استطاع أن ينجح فى العلوم (بو Po) وهذا جعلنى أشعر بالفخر . وبنهاية نوفمبر اصطحبتنى كل عائلتى إلى محطة ليون ، التى منها أخذت القطار إلى مرسيليا . ولست فى حاجة إلى القول بأن عينى لم تر النوم طيلة ليلة الأمس ، وكان الوداع على رصيف المحطة عاطفيا ومؤثرًا جدا .

وكنت محظوظًا للسفر فى مقصورة فى الدرجة الأولى ، وأخذت مكانى استعدادًا لرحلة تستغرق ليس أقل من اثنتى عشرة ساعة ، النظر الحالم للمناظر التى تمر بى ، واكتشاف فرنسا التى لم أكن أعرفها إلا قليلاً فى الإجازات الصيفية عندما كان الوالدان يصطحباننا إلى

بريطانيا على البحر أو إلى فيفى أو سويسرا أو إلى برا لونين على مقربة من شامونى . ولم نكن نتزحلق على الجليد بل نتسلق "جبال الألب" أو نتجول على الأقدام، وبقى معى من هذه النزهات هواية المشى . والدى – وفى شهر إجازة – أخذنا ونزلنا فى فندق ، ولأنه يعشق فن العصور الوسطى فقد كان يصطحبنا لزيارته بشكل منتظم على الدراجة ، فكنا نرى آثار الإقليم الذى نسكن به هذه الفترة من الإجازات ؛ ومن ثم تشبعنا بحب الأحجار القديمة .

وعلى النقيض لم أكن أحب الرياضيات ، فالجبر وحساب المثلثات بالنسبة لى كانا كاللغة الصينية ، وعندما يتحدثون عن البرهان فى الرياضيات كنت أجهل عمَّ يتحدث هؤلاء ! ولحسن الحظ كنت متمكنًا من باقى المواد ، فالكهنة الذين كانوا يقومون بالتدريس فى مدرسة جرسون فى حى راق فى باريس كانوا يتمتعون بأفق أكثر رحابة من اليسوعيين . وكنا نحس بذلك ويتحدث بذلك التلامذة ؛ فقد كانوا يعرفون كيف يبصروننا بصورة مبسطة بطبيعة الإله ، وساعدونا لكى نتعامل مع النصوص المقدسة . وبفضل التعليم الدينى القوى الذى تلقيته فى هذه المدرسة بقيت ممارسًا طيلة مدة دراستى ، مع أن الأمر لم يدم تمامًا على هذا الحال فيما بعد ، فلم يكن سهلاً الذهاب للقداس يوم الأحد فى سقارة لأننا نعمل فى هذا اليوم ، واحتفظت لنفسى فى حياتى اليومية بأوقات للصلاة ، وفى كهولتى عدت من جديد مخلصًا للكنسية، فالإيمان يعطى دومًا معنى لأعمالى .

خلال ثلاثة أعوام وبعد إعلان الحرب فى صيف ١٩١٤ لم نعد نرى عمليا والدنا، والموقف مع الوالدة كان مؤلمًا ، وشتاء أعوام ١٩١٦ - ١٩١٧ كان مرعبًا والبرد القارس ضاعف آلام الناس . ولكن ذلك لم يمنعنى أنا وأخى من الذهاب كل أحد إلى القناة الكبيرة فى فرساى للتزحلق ، وفى عام ١٩١٨ كان ضرب "جروس برنا" بالمدفعية . انتهيت لتوى من البكالوريا الأولى ، وواحد من أعمامى وهو داود سانت كلير جاء يبحث عنا لكى يؤينا فى قصره فى توران ، وكان علىّ الانتظار للعام القادم لإنجاز البكالوريا الثانية ، ورغم تدمير الحرب سرعان ما عادت الحياة لطبيعتها .

كانت هذه الذكريات تتداعى إلى مخيلتى أثناء هذه الرحلة التى لا تنسى ، ولأننى لم أسافر أبدًا خارج فرنسا فإن فضولى كان بلا حدود ، وعند نزولى من قطار مارسيليا أسرعت لمكتب الشركة البحرية للحصول على تذكرتى ، وتبعنى حمال الحقائب تحت أشعة شمس حارقة فى نوفمبر وكنت فى ملابس سائح. ولسوء الحظ كانت السنايا Sinaia على الرصيف لدى إقلاع السفينة بالركاب قد بدأت ، وكانت توجد أربع درجات على متنها وكنت فى الثانية ، ومن ثم أخذت مكانى مستريحًا لمواجهة خمسة أيام فى البحر .

ورفعت الأشرعة فى النهاية بعد الظهر ، والمدينة القديمة اختفت تحت أشعة الغروب ، ومن أعلى نقطة فى المركب استطعت رؤية الهضاب السبعة التى تقوم عليها المدينة تحت رعاية نوتردام دو لا جارد . وأول يوم على

متن السفينة كنت قلقًا ، فعلى الرغم من هدوء البحر فإن اضطراب السفينة البسيط بدلاً من أن يهدهدنى دفعنى لتذكر أشياء ، وأورد الكثير من الأفكار على رأسى ، فكانت أول مرة أسافر على متن سفينة . وكان هذا أمرًا مثيرًا جدا بالنسبة لى ، وكان قدرى أن أبدأ مغامرة سوف تأخذنى إلى آماد تفوق الخيال . أثناء العشاء وجدت نفسى وحدى على المائدة وعلى مقربة من فرنسى آخر ، والذى سرعان ما دخل فى حديث بعد وصوله مباشرة ، وكان هذا رفيق الرحلة الوحيد لأننى كنت خجولاً بطبيعتى .

منذ الفجر قمت وقفزت على أعلى نقطة فى المركب لملاحظة شروق الشمس الرائع على صفحة الماء الصافى . وبالقرب من نابولى ، غزتنى روائح مختلفة ، فلقد كنا نمر بعالم آخر مختلف ، أكثر حرارة ، ومتنوع فى ألوانه ، ومتلألئ فى أضوائه والرياح كانت لطيفة ، فكانت الأيام الخمسة فترة جميلة عشتها .

جـــروبـى Groppi

لدينا ميل فى ذكرياتنا لتأمل ما كان وما لم يكن وهكذا بقيت أحب القـاهرة. هـــذه المدينـة موئل كل ذكـــرياتى المهمـة . أثناء تنزهـــاتى التى أضـحت مع مـرور الوقـت قليـلة جـدا خـاصـة فى هذه الأعـوام الأخيرة . فى الواقع ، المدينـة مصممـــة بطـريقة متميزة فالأزبكيـة ، على سبيل المثال ، حديقة بها أشجار استوائية وكانت مفضلة خاصة لدى الأوروبيـين وأضـحت رمـاداً واختفت أشـجار الجميـز والأشـجار الأخـرى العملاقة. ومع ذلك تبقت أماكن مازالت تشهد بعض المتنزهين. الحلوانى جروبى كان هناك ، وشكل جزءاً مهما من ذكرياتى ؛ فلقد ذهبت إليـه مـرات فى عـام ١٩٢٨ مع مـارجـيت جوجى ، الشـابة التـى سـوف تصـبح زوجى ، لأنه فى مـصـر كان قـدرى أن أتقابل مع الإنسـانة التى سـوف تشـاركنى حـيـاتى ، لكننى كنت أجـهل مـا إذا كـانت تشـاركنى مشـاعرى كذلك ، ففى تلك الفترة كان من الأفضل أن تصطحب فتاة فى هذا المبنى العريق الذى ترتاده الطبقة البرجوازية فى القاهرة ، لتتناول قدحاً من الشاى أو لتلتهم بعضـاً من قطع الحلوى التى لا يوجد لها مثيل فى أماكن أخرى ، سوى أن تذهب لتحتسى كأساً فى شرفة فندق شبرد .

ولقد كتب الصحفى فى جريدة لوموند - وهو جون بيير بيرونسل هوجوز - بلا مبالغة وبكثير من الجدية أن جروبى "برصيفه المزدوج مملكة غذائية ترتادها الطبقة البرجوازية" ، فى الجهة المقابلة لميدان طلعت حرب . يقع على زاوية شارعين بنوافذه الزجاجية الضخمة ويحتفظ بزخارف داخلية نادرة جدا . ومن حول موائد متناثرة يتدافع أناس كثيرون فى الساعة المعتادة لتناول الشاى .

وأتذكر أننى ذهبت إليه بعد الحرب فى ظروف خاصة ، فلقد كنت قد التحقت بسفارة فى عام ١٩٤٥ تاركًا زوجتى وأطفالى فى باريس فى انتظار المركب التى تنقلهم إلى مصر، وعندما وصلوا أخيرًا إلى القاهرة. حماتى التى لم تكن قد رأتهم منذ ست سنوات أخذت - وبسبب من الحالة التى كانوا عليها - فى الاكتئاب تقريبًا ، فزوجتى والتى كل أفراد عائلتها يتلقبون بلقب ميمى "اسم الدلع" أصبحت نحيفة جدا والأطفال كذلك . واصطحبتهم حماتى فى جولة شرائية ثم دخلنا جروبى وحيرتنا أنا وزوجتى نظرات الأطفال المعلقة بجبال الجاتوه التى أصبحت تراها العيون الآن ، فلقد عجزوا عن الاختيار من بين هذه الأنواع الكثيرة ، وألحت عليهم جدتهم أن يأخذ كل واحد منهم عدة قطع ، لكن بالكاد استطاع كل واحد منهم أن يتناول قطعة ، لأنهم منذ وقت طويل لم يعتادوا تناول غذاء دسم هكذا . وبعد المحال الخالية والشوارع الحزينة لعدم وجود البشر بها فى باريس ، هاهى القاهرة بشوارعها البهيجة

وضوضائها الكثيرة ، والكريمة، بدت بالنسبة لهم كما لو كانت عالم "أليس فى بلاد العجائب" يبدو أننا أبحرنا فى أسطورة من الأساطير" هكذا حكت لى ابنتنا فلورنس ، "فنحن نجد الجنة على الأرض المدينة والمناظر الطبيعية ، والدفء والألوان والروائح وهذا الضياء الجميل جدا ، كل هذا بدا لنا خياليا" .

كان عندى كذلك الحظ أن أعرف مكانًا من أكثر الأماكن سحراً بالقاهرة ، قهوة الفيشاوى الشهيرة ، القهوة التى كانت فى عام ١٩٢٦ تبلغ من العمر أكثر من مائة عام ، ولم أعد إلى هناك منذ وقت طويل لأن السائحين ملأوا حى خان الخليلى الذى تقع فى قلبه قهوة الفيشاوى ، وأن تصل إليها بالسيارة فهذا هو الجحيم بعينه . وهناك أعمال ضخمة لتهيئة الشارع الذى يؤدى إلى الجامع الأزهر الكائن فى مواجهة السوق . فالمصريون كانوا بصدد حفر نفق للسيارات ، فهم أخيراً فهموا أنه من الأفضل أن تسير العربات تحت الأرض أفضل من الكبارى العلوية التى تشوه المدينة ، فى هذه الفترة تعرفت على قهوة الفيشاوى، والتى أطلقوا عليها كذلك مقهى المرايا لاحتوائه على ١٩٠٠ مرآة فى كل جوانبه، فيغزونا الإحساس أننا نتسلل إلى عالم آخر مختلف تمامًا ، فالمكان هادئ ، أما الزبائن فهم من شباب الحى أو من طلاب الأزهر ، ويقدمون دومًا الشاى بالنعناع وهو المشروب الرئيسى مع شيشة التفاح ، بأوراق ملونة جميلة ، وواحد من الزبائن الدائمين فى الثلاثينيات كان اسمه نجيب محفوظ ، كاتب شاب من الحى نفسه ، اعتاد المجيء إلى المقهى

ليكتب رواياته فى هذا الجو الهادئ الحالم ، لكنه ومنذ إحرازه لجائزة نوبل فى الأدب ، لم يعد يأتى للفيشاوى ، ولكن المقهى وبفضله أصبح مكانًا تاريخيا ، ومالكها الحاج فهمى الفيشاوى مات كمداً فى عام ١٩٦٩ ، عشية اليوم الذى بدأوا فيه أعمال الهدم ، فلم يتبق إلا جزء صغير من المقهى الأصلى ، ولكنه كاف لتخيل مدى جمال وسحر المكان .

وهذه المشكلة متكررة بالقاهرة ، فهم يهدمون المبانى الراقية الجميلة ليشيدوا بدلاً منها أخرى قبيحة ، وكم من فيلات باهرة اختفت الآن وعددها بالمئات لتقوم مكانها عمارات أسمنتية ، قصر المنيرة أنقذه الفرنسيون الذين أعادوا شراءه فى عام ١٩٠٧ ليكون المعهد الفرنسى للآثار الشرقية (IFAO) ، وبناء على طلب صهرى ، بيير جوجيه ، الذى شغل منصب مدير المعهد حتى عام ١٩٤٠ ، قام ابن عمى جاك هاردى بتغيير واجهته ، وشيد واجهة أخرى من الطراز الكلاسيكى الحديث . هذا المقر الرائع شيد عام ١٨٦٠ على إقطاعيات إبراهيم باشا ، وأعطوه تبركًا اسم المنيرة ، وهو اسم زوجة هذا الباشا ، والتى تزوجت به ولها من العمر ثمانية أعوام ، ومع الأسف عانى القصر من التلف ولم يتبق منه إلا بقايا من ذلك القصر الذى عاش به صهرى عام ١٩٢٨ ، الحديقة الرائعة تحولت لجراج لسيارات الموظفين بالمعهد ، والمدخل تغيرت ملامحه وكذلك الصالونات التى لم تعد تستخدم بشكل عملى ، وعندما أصعد السلم الأثرى الذى يؤدى لغرف الباحثين والدارسين المقيمين ، لا أستطيع أن أمنع نفسى من رؤية أبنائى وهم يلعبون فى كل مكان .

فالصالون الصغير الذى قابلت فيه مارجريت لأول مرة ، هذه الحجرة التى شهدت فى ٢٥ ديسمبر ١٩٣٥ ميلاد ابنتنا فلورنس ، هذه الحجرة لم تعد موجودة وشغل مكانها توسعة المكتبة . المنيرة ومنذ وقت طويل تعطيك انطباعًا ببرودة الأماكن المنعزلة وعندما عرفت هذا المكان ، كان يشع بالسعادة على عائلة سعيدة وهى عائلتى ، وعند عودتى للقاهرة الخميس مساء لقضاء نهاية الأسبوع ، نمت فى المنيرة مثل علماء المصريات الفرنسيين كلهم ، الذين يعملون فى سقارة ، ولو كان يوم جمعة وأنا غير مدعو عند أصدقاء لى أسرع إلى شارع هدى شعراوى باحثًا عن مطعمى المفضل ، فلفلة وتكعيبة العنب البلاستيكية وأرضيته المرمرية ، وأضواؤه وكأنها من ألف ليلة وليلة وموائده من الخشب المقوى ، ونوافذه الزجاجية الملونة والتى ينفذ منها ضوء خافت جميل ، ونافوراته المليئة بالقواقع ، ويبقى هذا المطعم بالنسبة لى الأكثر جاذبية بالقاهرة . وهو مكان تناول الطعام المفضل لى بالقاهرة من عدة أعوام .

فـى اتجاه الشـرق

بدت لى الإسكندرية بيضـاء عندما انقشـعت السـحب، واسـتطعت رؤية السماء التى تكاد تلامس الأعمدة المرتفعة والمنارات وكذلك المداخن، وتسـمرت عيناى على هذا المنظر الطبـيـعى الذى لم أكن أحلم به ، هذا النخـيل الباسق على خلفـية من لون برتقالى هو لون الصـحـراء ، فـهذا المنظر الطبيعى الذى أتأمله كما لو كان قصيدة رائعة . وسـافرنا ، ولا يمكن أن أنسى انطباعاتى الأولى فالصخب والزحام، حتى الروائح بقيت برأسى ، ولعلى أقول إنـها أشـيـاء فـاتنة ، فـهى تتـخلل الجـيـوب الأنفيـة عندما تفوح بالعبق عند هبوب الريـاح . واستطعت أن أشق لنفسى طريقًا وسط جلبـة لا توصف ، يتبعنى رجـلان عمـلاقان لحمل المتـا ع . وعندما وصلت إلى الرصيف هجم علىّ التجـار المتجولون وسط حشـود لا تصدق من كل لون . وارتديت جلبــابًا طويلا من ذلك الذى يرتديه الرجــال ، والعمامـة الجميلة وهى الطربوش ، وهو نوع من لباس الرأس المميز للشرق والذى يرتديه كل المصريين . ثم تتبعت حاملى المتا ع رغم الحر الشديد وأخذت تاكسيًا وودعاننى بحرارة وأعطيت كلاً مكرمته . ولم أستطع أن أتأخر بالإسكندرية ؛ فلقد نصحنى بيير لاكوم أن آخذ أول قطار للقاهرة

حيث سيكون فى انتظارى . ورؤيتى للمدينة كانت سريعة ، فكان لدىً بالكاد الوقت لرؤية ما وراء أسوار منطقة المرور ومخازن الميناء التى تخفى وراءها المدينة الواقعة بعيداً ، وعبر التاكسى الشوارع المزدحمة والتى كانت بالنسبة لى عالمًا جديداً لم أعهده . وكان هناك عتالون آخرون تابعوننى وسط الزحام الشديد حيث الحشود والزحام واختلاط البشر والألوان وأنواع التسريحات وألوان الملابس ، وكان القطار على الرصيف ، ووضع هؤلاء متاعى فى مقصورة درجة أولى فى عربة إنجليزية قديمة من القرن الماضى . وألقيت بنفسى على أريكة كبيرة من الجلد الأخضر ، وامتصت عرق جبهتى ، فلقد أغرقنى العرق فى هذا اليوم .

الخط الحديدى الذى يربط الإسكندرية بالقاهرة أنشئ عام ١٨٥٧ وهو بالضبط العام نفسه الذى أنشئ فيه الخط الواصل ما بين باريس ومارسيليا ، فقد كانت مصر تحذو حذو أوروبا . فى عام ١٩٢٦ لم يعد يعمل خط السكة الحديد عشر ساعات كما كان عليه عهد أوجست ماربيت ، هذا العبقرى الذى ترأس مصلحة الآثار فى مصر ، ولكن فقط ثلاث ساعات . وبعد أن يعمل جرار القطار البخارى ، يسير القطار بطول الطريق الذى يمتد مع ترعة المحمودية ، التى حفرت فى بداية القرن التاسع عشر فى عهد محمد على وكرس لها ٤٠٠ ألف فلاح ، والذين عملوا فى ظروف غير آدمية ؛ لإرضاء أطماع هذا الوالى الذى يحكم البلد . أما الهدف من هذه الترعة التى بلغ طولها حوالى ٧٠ كيلو متراً ، فهو أن تصل الإسكندرية بنهر النيل ، مع أن الإسكندرية أنشأها

الإسكندر وراعى فى تصميمها أن تكون مدينة منعزلة بعيدة عن المصريين ، وأنجزت هذه الترعة فى ١٨ شهراً ، أما الثمن المدفوع والدم المسفوح فقد فاق الثلاثين ألف جثة لفلاح مصرى .

ويخرج بعد ذلك الخط الحديدى من المدينة ، ليسير على شريط ضيق فى أرضٍ رملية ، يقسم هذا الشريط بحيرة مريوط إلى قسمين ، وفجأة يتحول المشهد من صحراوى أصفر إلى مشاهد خضراء يانعة وأسراب من الطيور المائية تشق المسطح المائى الكبير ، وهذا يدل على الثراء فى الخضرة والقنوات التى تقسم السهل إلى مربعات كأنه رقعة من لعبة الشطرنج ، هذه الأرض بدلاً من أن تكون قاحلة تحولت إلى أرض خصبة بفضل معجزة الماء ، فلقد ظللت متشككًا من صدق جملة قرأتها وهى : "مصر هبة النيل" الآن وأمام هذه الطبيعة أحس تمامًا بصدق هذه العبارة ، وكان عندى الحظ فى أن أصل مع نهاية الفيضان ، حيث بدأ الماء المحمل بالغرين فى الانحسار تراكًا وراءه الطمى الغنى بالخصب للأرض ولقد شاهدت الفلاحين المنغمسين فى الطين حتى الركب وهم يبذرون الحب أو يحرثون الأرض . إنهم يتفانون فى عملهم هذا ، وأنا أشاهد هذا التناغم فيما بينهم وبين الأرض تحت الشمس ، وبمشاهدتى لذلك ، وأنا صاحب العقيدة الإيمانية ، رأيتنى أضع أقدامى على أرض وطئها المسيح .

بعد عبور الكوبرى فوق بحيرة مريوط ، تبدى النيل الأسطورى والمقدس ، فالأنهار التى رأيت فى فرنسا مقارنة به كأنها جداول صغيرة ،

فالنيل قادم بتياره المتدفق من أعمال إفريقيا ، مياهه غنية ولون الأرض هو لون طميه الذى هو لون ضفافه بطولها ، وخمنت أنه على مدى البصر هناك قطعان من الجمال والأغنام . ومن خلف النخيل الباسق توجد قرى الفلاحين متجاورة وكأنها أكوام من الطين المجفف ، وعلى طول حافة النهر تبيت المراكب وسط عيدان البوص. وقبل ساعة من الوصول للقاهرة ، عبر القطار هليوبوليس مدينة الشمس القديم . لقد قرأت الوصف الذى خطه سترابون فى مؤلفه "الجغرافية" ، وطبقًا لما أورده فإن رجال الدين المصريين القدماء زعموا أن هليوبوليس أبدعت الثامون ، مجموعة من ثمانية آلهة ، وهم أصل العالم عندما لم يكن يوجد إلا الماء الأزلى المظلم البارد .

على الرغم من أن هذا النص ظل غامضًا بالنسبة لى فقد صدمت عندما قرأت أن الشمس أتون أوجد العالم عن طريق الاستمناء قبل وجود المحركين الأوائل التسعة فى الأسطورة الأوزيرية ، هليوبوليس هى عين الشمس وهى مكان أسطورى ومهد العلوم ، هيرودوت وبلاتون جاءوا إلى هنا ليعرفوا الأسرار . لكن المدينة الزاهرة انتهت بالدمار على يد قمبيز فى عام ٥٢٥ ق . م هذا الملك الفارسى المختل الذى شحن إلى سوس وفارس عمومًا الفنانين المصريين لكى يشيدوا له قصوره ، لكن كانت هليوبوليس قد تلقت زيارة مشهودة .

بالقرب من هذه الأطلال ، وفى قرية تسمى المطرية ، استراحت مريم ويوسف أثناء هروبهما إلى مصر ، "وقد جعل السيد المسيح نافورة

تنضح بالماء فى هذا المكان ، حيث غسلت مريم ملابسها ، والصمغ الذى ينتجه هذا البلد كان نتاج العرق المتساقط من أعضاء المسيح" ، هكذا قرأت فى الأناجيل المختلفة عن الطفولة . ولقد جذبنى هذا المكان ، وعندما سنحت الفرصة قمت بزيارته ، شجرة الجميز المقدسة "شجرة العذراء" التى تحل محلها زرعت فى عام ١٦٧٠ بالقرب من مصدر الماء المقدس ، وهو مصدر الماء العذب الوحيد الذى ينبع من الأرض المالحة بهذا البلد ، والشجرة المقدسة وطبقًا للنصوص الدينية ستموت من الشيخوخة فى القرن السابع عشر ، وعندما وصلت رأيت هذه الشجرة قد غطاها وأخفاها تمامًا سور القديسين ومكان النذور والقرابين والمقاصير ، وقد جعل الأقباط منها مكانًا يحجون إليه ، ولكن لفرط حماسهم فإن الحجيج كانوا يقتطعون قطعة من القشرة الخارجية للشجرة أو جزءًا من الخشب من هذه الشجرة البائسة ، حتى أضحت ذات هيئة معتلة تزداد سوءًا مع مرور السنين .

عندما توغل القطار فى أحياء القاهرة ، وقد غمرها النهار وقت الظهيرة ، وانعكست الألوان على غابة من القباب والمآذن ، تفحصت المدينة ، وعندما وصل القطار إلى نقطة النهاية اكتشفت أن محطة القاهرة تغوص فى وسط ضجيج وزحام فاق ذلك الذى رأيته فى الإسكندرية ، وعندما رأيت الناس تتدافع ويلكم بعضهم الآخر والمعارك مع الحمالين الذين يتخاطفون الحقائب ويدوسون عليها بلا حياء انتابنى بعض الرعب ، لكن سرعان ما عدت إلى هدوئى وعادت إلىّ الطمأنينة لوجود بعض

المصريين الذين أرسلهم لاكو من أجلى، استقبلنى هؤلاء استقبالاً حاراً، وحملوا حقائبى إلى حيث كانت تنتظر سيارة جاءت خصيصًا كيما تقلنى إلى حيث السكنى .

وعبرنا المدينة من المحطة إلى المتحف سريعًا، ومن الصعب أن نتصور اليوم كيف كان هذا الأمر بالأمس ، فلم يكن بالقاهرة سيارات ولكن حناطير تجرها الخيل ، هكذا كان الحال فى عام ١٩٢٦ ، دعك من المشاة وعربات النقل الصغيرة ذات المظلة والحمير ، فقد كانت الشوارع فسيحة ذات أرضية من البلاط، الأشجار تحفها من الجانبين وتتنفس فى هدوء عفى عليه الزمن .

لا تأوى هذه المدينة سوى ثمانمائة ألف نسمة ، ولعل الانطباع الذى تعطيه العاصمة المصرية فى الحال هو أنها بابل مسلمة ، مزيج من الأصوات والألوان ، الطرابيش الحمراء والعمائم الزرقاء والقفاطين والكوفيات ذات الألوان العديدة تتداخل كالطيور داخل مطيرة ، وعندما وضعتنى السيارة أمام المتحف كنت واقعًا تحت تأثير السحر من هذا الذى أرى . خلف السور الذى يعزل المتحف عن المدينة فيللتان مشيدتان واحدة تؤوى الإداريين المحليين والأخرى مخصصة لمدير مصلحة الآثار المصرية ، وكان لاكو هو السيد الحاكم هنا ، وتمتد سلطته على البلد بأسره . لا شىء يمس الآثار، المصرى بمنأى عن حكمه ، وبفرط حماسه أحيانًا لا يأبه لاكو لأحد سوى الملك فؤاد الذى يضع فيه ثقة مطلقة .

ولقد وجدت لاكو فى مكتب كبير فى الدور الأول الذى يطل على الحديقة ، وقد نهض لتحيتى وسألنى ما إذا كنت قد حظيت برحلة طيبة وتمنى لى إقامة طيبة فى مصر . أخذنا الشاى فى الشرفة ، ولفرط وده معى اقترح علىّ قضاء يومين بالقاهرة قبل أن أغادرها متوجهًا إلى سقارة حيث ينتظرنى الجميع ، فيما يبدو ، بفارغ الصبر .

زوسـر

بعد مرور سبعين عامًا أتذكر بتأثر مقابلتى مع الفرعون الذى بدل التقاليد فى مصر ، ذلك الرجل كان يسمى زوسر وحكم حوالى ٢٧٠٠ ق.م وعشت جزءًا كبيرًا من حياتى فى ظلاله ولا أملك إلا أسفًا لعدم وجود أى نصوص عن تاريخه ، وتشير لأهمية هذا الفرعون فى عصر الدولة القديمة المتوهج تلك المجموعة الجنائزية التى شادها المهندس المعمارى العبقرى إيمحوتب ، ومع تلك المجموعة أمضيت معظم حياتى كذلك غمرنى شعور بالعظمة عند اقترابى من حدود هرمه بعد وقت قليل من وصولى للقاهرة ، فلقد جذبنى بقوة هذا الأثر ، فهو يفعل فعل السحر فى النفس ، ذلك الإحساس الذى نجده عند النظر إلى تاج محل فى أجرا ، أو ما كان يمكن أن يغزونا لرؤية برج بابل فى بلاد الرافدين .

يقول فولنى فى القرن الثامن عشر عنه إنه الشىء الذى يأسر قلبك وروحك فى آن معًا بالدهشة والرعب والإعجاب والاحترام ، ولقد عملت طيلة عمرى فى الدولة القديمة التى تعتبر العصر الأكثر اكتمالاً فى الحضارة المصرية كلها ، تبدأ بالأسرة الثالثة باعتلاء زوسر للعرش فيما بين ٢٧٠٠ و ٢١٦٠ ق . م وفى نهاية الدولة الحديثة كان المصريون يحلمون

بالعصر الذهبى الذى كان متجسداً فى عصر الملك زوسر . ولا نعرف الكثير عن التاريخ السياسى والإدارى أو العسكرى للدولة القديمة ، فيما عدا السمة الدينية للملكية التى تشهد بها الآثار القديمة والخصوصية التى ظلت حتى العصر اليونانى ، والتى تتبدى من خلال جباناتها بشكل أساسى . أما باقى الآثار فقد اختفت ، فالمقابر شيدت بعبقرية فى الصحراء بعيداً عن الفيضانات وصممت للخلود ، ومن أجل هذا الهدف انتبه المصرى منذ وقت مبكر إلى أن الحجر أكثر صلابة وتحملاً . فى البداية كانت هذه الآثار حكرًا على الملوك ، ثم ما لبث كبار رجال الدولة ، ولا سيما رجال البلاط، أن شادوا مقابر لهم على غرار مقابر ملوكهم لكنها فى صورة مصغرة . ولسوء الحظ ، لا نعرف إلا الشيء القليل عن الموقع الأثرى لمنطقة زوسر ، إذ لا يوجد أثر ولا نقش على الهرم ليمحو جهلنا ، ومع ذلك وبوصفه رمزًا لشعب أراد أن يمسك بالزمن فهو يجسد فى ذاته فقط المحاولة الأكثر ضخامة للتغلب على الموت ، ولقد أخذت فى اعتبارى هذا الأمر ، وحكمت مسبقًا بأن هذه المقبرة وبشكل متناقض تواجه الموت وتبقى على الزمن منذ آلاف السنين فى هدوء أبدى ومقدس .

لم يختر إيمحوتب هذا الموقع اعتباطًا فقد أعطت المجموعة الجنائزية انطباعًا بالجلال والمهابة لمن يرى منف من ذلك الزمان ، والتى كانت العاصمة التى يحكم منها زوسر ، ومثله مثل مايكل أنجلو وليوناردو دافنشى ، فإن إيمحوتب مبتكر عبقرى أنهى عصر البناء بالطوب النيئ ، ومع ذلك لم يكن يعرف تصور الهرم وأوجده على طريقته بلا شك

بأسلوب تجريبى ، فقد وضع الواحدة فوق الأخرى من درجات الهرم حتى كوم أحجاراً شكلت أثراً مدهشاً مظهره الخارجى الفخم مكون من عناصر معدة مسبقًا ، فالهرم الحقيقى ، ذو الأربعة أضلاع ظهر فى عهد الملك سنفرو من الأسرة الرابعة ، وقد نشأت فكرة المقبرة الهرمية من الرغبة فى المشاركة فى العالم السماوى مع الآلهة والاتحاد الأبدى مع رع إله الشمس ، ويرى المصريون أن بقاء الـ "كا" (ka) هى الطاقة الحيوية فى الكائن الحى منذ ميلاده ، وأن بقاءها حية أمر أساسى ، واختفاءها يعنى الموت المؤكد دونما رجاء فى حياة فى العالم الآخر ، ومن ثم عملوا بالوسائل كلها من أجل بقاء الكا قريبة من جسد المتوفى ، ومن تلك الوسائل طقوس سحرية بالإضافة إلى التحنيط ، ويحفظ الجسد فى مكان آمن ، ويكون فى متناول الكا لكى تجد مأوى لها فتملأ الجسد بالطاقة الحية ، هكذا تحولت المقبرة "لبيت الأبدية" ، والميت المحنط يأوى إلى الكا الخاصة به ليحيا من جديد شريطة أن يتلقى غذاءه عن طريق العبادة الجنائزية . وبما أن الأحياء كانوا ينسون غالبًا أن يحملوا الغذاء ؛ فإن المصريين ابتكروا "السحر التقليدى" ورسموا على الجدران فى المقابر كل ما يحتاجه المتوفى فى العالم الآخر من أغذية أبدية تكفل الراحة والهدوء للجميع . ومن ثم وُجِدَت النصوص الهيروغليفية فى المقابر والمناظر .

أما اسم إيمحوتب فمعروف لنا بكل تأكيد ، ولكن لا أحد تأكد إن كان حقًا موجوداً ، وفى أى عصر بالضبط ، وبفضل الاكتشاف الذى قام به الرجل الذى التحقت به وهو سيسيل فيرث فى عام ١٩٢٤ ، والمتمثل فى قاعدة التمثال التى كانت مغطاة بالرمال عند مدخل بهو الأعمدة ،

والتى قـرنت بين اسم ايمحـوتب واسم الملك زوسـر ، ونرى على هذه القاعدة أقدام الملك تطأ الأسرى وعلى واجهة الحجر ، اسم الملك مع اسم وزيره المهندس متبوعًا بكل ألقابه ، وأحد هذه الألقاب تشير إلى أنه كان له الإشراف العام على الأعمال الملكية المعمارية ، وأعمال النحت وكذلك تصنيع الأوانى الحجرية ، التى هى مادة الصناعة الرئيسية فى هذا العصر .

دخل إيمحوتب التاريخ بهذا الإهداء بعد أن ظل وجوده ولوقت طويل إلهًا أسطوريًا ، والأمر غير المعتاد والمدهش فى هذا النقش أن اسم المهندس المعمارى يأخذ حيزًا كبيرًا على القاعدة يفوق المساحة التى خصصت للملك ، وهو ما يعطى انطباعًا بأن إيمحوتب كان شخصًا غير عادى ومبتكرًا عظيمًا ، وهذا يفسر ذكراه التى ظلت محفوظة وباقية لدى الأجيال التالية ، ومع أننا نادرًا ما نجد اسمه مكتوبًا فى الوثائق فإن سمعته ظلت عبر القرون ، وخلال عصر الأسرة السادسة والعشرين اعتُبِرَ إلهًا ، ومن أجله نحتوا العديد من تماثيل البرونز التى تمثله جالسًا ورأسه حليقة ، يرتدى رداءً طويلاً وممسكًا بلفة بردى على ركبته ، وبالنسبة للبطالمة فإنهم رأوا فيه أصلاً مقدسًا فجعلوا منه ابنًا للإله بتاح ، والمؤرخ الشهير مانيتون ، الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد كرس له إهداء هو : "بسبب من علمه الطبى فإنه اعتبر فى مصر مثل إسكليبيوس، وهو الذى شيد من الحجر المقطوع آثارًا ورعى فن الكتابة". وأؤكد على أنه يعنى بالحجر المقطوع الأحجار المستخرجة من المحاجر ، والموضوعة فى "مداميك" منتظمة كأنها طوب مصنوع ، وليس أحجارًا

خشنة من تلك التى نجدها منذ الأسرة الأولى . فمن أعمال إيمحوتب العبقرية إدخال الحجر فى العمارة الجنائزية .

ولعل واحدة من المكتشفات الأساسية التى سوف أقوم بها على مر السنين فى ترميم آثار الملك زوسر هى أن هذه المجموعة الضخمة لم تكن مكرسة للملك ، ولكن لـ "كا" الخاصة به ، فالمبانى كانت مخصصة ببساطة لـ "الحب سد" للملك ، أى لعيد اليوبيل الذى كانوا يحتفلون به هنا بشكل رمزى ، لتجديد السلطة الملكية "لملايين المرات" وفى العالم الآخر .

ويجرى الاحتفال بهذا العيد الذى يعود إلى عصور قديمة جدا وسط جو خيالى ، ويسير وفق طقوس تنصيب الملك . وقد كنا نعتقد ولوقت طويل أن السلطة الملكية لا تمتد لأكثر من فترة واحدة مدتها ثلاثون عامًا . ثم يغادر الملك كرسى العرش أو يموت . وعن طريق خليط من العادات البربرية المحتفظة ببقائها ، وتصور أكثر بشرية أضيف فى عصر لاحق ، استطاع الملك بدلاً من أن يترك العرش أن يجدد ظهوره ملكًا لمصر العليا والسفلى بشكل ما كطقس فتوة ؛ الأمر الذى يعطيه طاقة جديدة حتى يتابع حكمه .

شيد إيمحوتب إذًا مبنى ضخمًا يتكون بصفة عامة من مبان رمزية داخلها ملىء بكتل حجرية ، وواجهاتها الخارجية تكفى لتذكر الكا ومرافقيها من العالم الآخر ، ليستمروا فى جولاتهم عبر طرق الأرواح . وبعد مراسم الجنازة توضع القرابين ، ولا تتم أى مراسم أخرى فى المجموعة الأثرية التى أصبحت بذلك منطقة مثالية تمامًا .

ومع استقراری فی سقارة عام ١٩٢٦ لم تكن لدیّ فكرة محددة عن الموقع الذی طلبت للعمل به ، ولطمأنتی فإن جوستاف جیكییه – وهو واحد من علماء المصریات البارزین فی هذا العصر – اصطحبنی فی عربته القديمة لعمل جولة فی هذه الجبانة الضخمة ، ومركزها سقارة ، وهو اسم قرية تقع على مقربة منها وتمتد مسافة خمسين كيلو متراً على حدود وادی النيل من أبو رواش شمال أهرام الجيزة وحتى اللشت جنوبًا على طريق مصر العليا . وسقارة التی سوف تترك أثراً على حياتی ، تخلد اسم سوكار ، إله الموتی فی العاصمة الأولى لمصر الموحدة "منف" . وعن طريق هذه الوحدة، وفی ظل حاكم واحد وهو الملك مينا ، عندما اتحدت مملكتا مصر العليا والسفلی ظهرت البلد فی التاريخ ، وفی عام ٣٠٠٠ ق.م. لم تكن تلك البلد قد بزغت بعد . والآثار واللغة والفنون تبرهن على مدی تقدم هذه الحضارة ، ولكن لا توجد أی وثيقة للأسف لتكون شاهد عيان . ولكن وبفضل مانيتون الذی كتب باليونانية تاريخ البلد ، نملك معلومات دقيقة عن العصور المختلفة ، ومؤلفه "المصريون" ظل واحداً من مصادرنا الرئيسية التی منها نستمد معارفنا عن التاريخ وتتابع الملوك المصريين ، وعمل مانيتون الأصلی فقدناه فی حريق مكتبة الإسكندرية ، عندما استولى يوليوس قيصر على المدينة عام ٤٧ ق.م ، أو وتبعًا لمؤرخين آخرين عند غزو عمرو بن العاص لمصر بعد ستة قرون لاحقة . وبمحض الصدفة وجدنا منها أجزاء عند المؤرخين اليهود والعرب ، خاصةً المؤرخ اليهودی يوسف ، الذی استخدمه

للوصول لتبريرات دينية ، كما ترك اليونان و الرومان المغرمون بالعلوم والديانة والعادات المصرية شواهد تشكل ثروة ، ونعتمد عليها فى فهم تاريخ مصر القديمة .

فمن كان زوسر ؟ إنه بلا شك ابن خع - سخموى ، آخر ملوك الأسرة الثانية ، ومن المفترض أنه حكم حوالى ثلاثين عامًا فى النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد كملكية مطلقة ، وقد أحرزت مصر فى عهده تقدمًا على الأصعدة جميعها ، فبدت مصر تنتقل لمرحلة جديدة فى تاريخها وتمثال زوسر الذى اكتشفه فيرث قبل وصولى يقول الكثير عن هذه الشخصية القوية الفخورة، فالوجه بشفتيه الغليظتين وملامحه يشير لشخصية قوية ، وقد ترك الفرعون الشاب على آثاره اسمه الحورى "نثرى خت" "أكثر قداسة من الآلهة أو مقدس الجسد" ، وحل محله فيما بعد اسم زوسر "المبجل" أو المقدس" . وبقى الاسمان ردحًا من الزمن دونما فهم للصلة بينهما .

ومنذ قرن من الزمان ، ومع الكشف الذى تم فى جزيرة سهيل تم العثور على لوحة تسمى "لوحة أعوام المجاعة السبعة" ، وهى تؤرخ بالعصر البطلمى وتحكى قصة أعوام سبعة لم يفض فيها نهر النيل ، عصر أليم عانت فيه البلد كلها من مجاعة رهيبة ، أمر زوسر عن طريق وزيره إيمحوتب بتقديم قرابين للإله خنوم ، إله إلفنتين وسيد الفيضان . ورويدًا بدأ النهر يفيض ، وفى إشارة لامتنانه أمر الملك بعطاء لكل آلهة الإقليم النوبى

الممتد بين أسوان وتاكمبسو ، وهو إقليم تابع للتاج المصرى ، واسم نترى خت وألقابه كاملة مطبوعة باسم زوسر ، وهى تظهر منقوشة فى خرطوش على هذه اللوحة المهمة .

وفى هذه الحلقة يورد يوسف فى تاريخه عند الحديث عن سفر التكوين قصة إخوة يوسف وبيعهم له ، والعثور عليه فى مصر ، ووضعه فى السجن وتأويله أحلام السجناء، قبل أن يستدعيه فرعون الذى كان يبحث عن نبوءة تفسر واحداً من أحلامه . وها هى الحكمة التى كان يمكننى أن أقولها لفرعون : سبعة أعوام من الخير العميم سوف تعم أرجاء البلاد كلها ، ثم تدهم البلاد سبع سنوات من المجاعة . يفسر يوسف للملك الذى يجعله قائمًا على أمر المؤن المخزنة لتجنب الهلاك خلال السنين السبع للبقرات العجاف ، ولقد تساءلت لوقت طويل هل يوجد خلط فى العصر البطلمى بين التاريخين ؟!

لقد استوعب زوسر الأهمية السياسية لمنف ، فجاء واستقر فى هذا المكان الاستراتيجى ، الذى يقع عند نقطة التقاء مصر العليا والسفلى . وتحسبًا للوفاة فقد باشر فوراً العمل فى تشييد مقبرته فى جبانة سقارة، وكلما كان عهده مديداً مجيداً أفاد أثره من ذلك ليصبح أول مبنى كبير شُيِّد فى البلد فوق رمال سقارة ، والحجارة الجيرية بهذه المجموعة بمنظرها الناعم الأملس ، والبناء المدهش بواسطة مونة لا ترى من الخارج ، تدعونا إلى التفكير فى أصل هذا الفن الأساسى ، وهو العمارة

فى هذا العصر الضارب فى عمق التاريخ. إن الملك هنا هو قلب الملكية، وينظر إليه دائمًا على أنه إله ، وهو وريث حكمة آلاف السنين ، وهو الذى نجح بعد القلاقل والصراعات فى نهاية الأسرة الثانية فى أن يعيد الوحدة مرة أخرى ، وهو "الإله الطيب" الذى يعيش فى "البيت الكبير" (برعا) بالمصرية ، والتى منها جاءت كلمة "فرعون"، وهو الذى عين إيمحوتب العبقرى رئيسًا لوزرائه .

القاهرة . الانطباعات الأولى

بعد لقائى مع لاكو حان الوقت لرؤية عائلة جاك هاردى ، والتى استقبلتنى بحماس ابنة عمتى جين - وهى سيدة ذات جمال أخاذ ، ولقد علمت فيما بعد أنهم اختاروها بين أجمل جميلات القاهرة - قد أعدت حجرة داخل شقة رحبة كبيرة لإقامتى حتى زواجى . أما جاك فكان سعيداً حقًّا لحصولى على هذه الوظيفة فى سقارة . ورغم إقامته منذ زمن بالقاهرة فإنه لم يكن لديه الفضول لزيارة أو معرفة الموقع الذى جئت للعمل به ، وعلى العكس من ذلك ، فهو يعرف جيداً كل شىء عن الاستعمار الفرنسى للقاهرة . رجل وسيم ذو ذهن حاد وأحياناً مراوغ نوعًا ما . كانت لديه القدرة على المزاح اللاذع جدا ، ومشوار حياته حافل ، ولقد جرح فى معركة شارلروا فى الحرب العظمى ووقع فى الأسر فى معسكر قضى به أغلب فترات الحرب .

ولكنه فى محنته هذه كانت تنتظره مفاجأة لم تخطر له ببال ، وهى أن يرى فى هذا المعسكر أسرى مثله ، ومن بينهم اثنان من زملاء الفنون الجميلة : قدرى ، يهودى مصرى التحق طياراً فى الجيش الفرنسى ، وعظيمة الذى أحرز فيما بعد جائزة روما ، وكانا مثلهما مثل هاردى

أشخاصًا غير عاديين ، ثم انتهت الحرب وتوطدت صداقتهم وقرروا أن يفتحوا مكتبًا للمعمار معًا ، فبدأوا يشتركون فى مسابقات ، وفازوا بالفعل بإسناد تشييد مستودع عظام دوامونت إليهم ، وكذلك مجمع المحاكم المختلطة بالقاهرة . وتقدموا من وقت لآخر لجائزة روما ، وبقى عظيمة فى إيطاليا، وسافر قدرى للقاهرة حيث لحق به هاردى . جذبته العاصمة اللامعة العالمية التى كانت تحت الاحتلال البريطانى ، والتى استقر بها ، والتى يعتادها نخبة من صفوة المجتمعات من المثقفين الذين جاءوا من كل أنحاء أوروبا، وهذا المجتمع الذى يولى أهمية دائمة للأعياد والبهجة – مارس قواعد التقشف الإسلامية قليلاً .

رغم صغر سنى النسبى – فقد كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى – لم أشاركه اعتياد هذه السهرات الباذخة حيث الأميرات الشابات ، وكن يخرجن من السراى كأنهن شهرزاد الرائعة مرتديات الذهب متشحات بالبياض ، ولم يتغيب هاردى عن هذه الاحتفاليات التى يرتادها الصفوة فى لهو وبذخ ، وحدثنى عن ابنة عمتى محاولاً إثارة فضولى .

كانت مصر تسبق جيرانها من البلدان بحوالى قرن من الزمان ، وتزهو بوجود قناة السويس ، وأثناء هذه السهرات كنا نجلس بجوار شخصيات معروفة من رجال الاحتلال الفرنسى ، مثل جورج فوكار ، المدير القوى للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، بعد الوزير المفوض ، لأنه فى هذا العصر لم تكن هناك سفارة ولا سفير ، وكان فوكار الرجل الثانى لفرنسا فى مصر ، لكن الرجل لم يفعل شيئًا ذا بال فى الوسط العلمى ،

كما يشرح لى هاردى ، منذ انغماسه فى الوسط المترف ، فلم يعد يفرق بين العمل والطيش ، الأمر الذى بدأ يسبب مشاكل للحكومة الفرنسية . وعندما حانت إجازته فى عام ١٩٢٧ طلب إمهاله عدة أشهر ليتمكن من تزويج ابنته فى قصر المنيرة الباهر ، مقر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO ومقر إدارته منذ بداية القرن .

عند استيقاظى فى صباح اليوم التالى قبل الفجر بقليل ، فهمت أنه الإسلام ، ففى القاهرة ، ترتفع الأصوات ، عندما تنادى ألف من مكبرات الصوت فى الوقت نفسه على الصلاة. قفزت من سريرى الناعم، ثم عدت للنوم لأستيقظ هذه المرة على أصوات الكمان ، تعرفت عليها ، إنها أصابع ابنة عمتى جين ، تقية ومحبة للموسيقى . تبدأ يومها بقداس اعتادته كل صباح ، ثم تهب نفسها جسداً وروحاً لهوايتها الثانية الكمان ، حتى أنها لا تضيع وقتها فى ضبط القبعة فتسرع إلى الحجرة التى بها الكمان الأثير ثم تبدأ فى العزف ، هذا الطقس الثابت شمل العائلة كلها ، ولقد انتهى بى الأمر باعتياد العزف .

من المفترض أن أمضى أول يوم لى بالقاهرة مع لاكو ، واقترح علىّ زيارة إرشادية للمتحف ، الأمر الذى أسعدنى وتعجلت فى اكتشاف الكنوز المعروضة فى هذا المبنى الكبير ذى الطابع اليونانى الرومانى ، والذى شيده فى عام ١٩٠٢ مهندس معمارى فرنسى وهو مارسيل دورنيون ؛ لاستقبال مجموعات الآثار المصرية ، والتى أتى معظمها من حفائر أوجست ماريبت . ومن ثم وجدت لاكو كما كان بالأمس فى مكتبه .

ولقد أثر فىَّ هذا الرجل أيما تأثير ، حتى أن ابتسامته كانت خالية من الحرارة ، الأمر الذى تركنى على خجلى . لقد أسرّ لى هاردى بأن لحيته الطويلة البيضاء وسلطته المستبدة جعلت علماء المصريات وموظفى مصلحة الآثار يعطوه لقب "الإله الأب" ، وعند سن الحادية والخمسين استطاع أن يكون واحداً من أبرز علماء المصريات العالميين ، مع أنه فى البداية أبدى تردداً واضحاً تجاه فكرة الانغماس فى هذا العلم .

طالب قديم فى دار المعلمين أضحى مغرماً بالفلسفة بالتدريج ثم بالحضارات الشرقية ، وتعلم العبرية قبل أن يصبح تلميذ جاستون ماسبيرو الذى ألح فى إحضاره إلى مصر فى عام ١٨٩٩ ، ولكنه لم يتحمل البلد فى البداية ، ونظراً لصحته المعتلة وأعصابه الحساسة فكر فى استكمال حيـ ته العملية فى فرنسا ، وخلف ماسبيرو فى إدارة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO ، وأبدى تردداً فى إمكانية إحرازه لشىء مهم فى هذا المجال ، لكن أستاذه استمر فى دفعه وتحفيزه بكل قوة حتى قبل العمل وانتهى تردده ، وجاء لاستلام عمله عندما اشتعلت حرب ١٨١٤ وبرهن على شجاعته . عاد لمصر بعد نقاهته من التهاب رئوى وخلف ماسبيرو فى مصلحة الآثار مديراً لها ، ولكن وكما تنبأ فإن مهمته كانت ثقيلة وصعبة ، كان عليه أن يواجه المشكلة الشائكة – مع مشاكل أخرى – وهى مشكلة مقبرة توت عنخ أمون التى تحولت بالنسبه له إلى كابوس – أراد أن يطبق التوجهات الإدارية التى فرضها ماريت عندما أنشأ مصلحة الآثار فى عام ١٨٥٧ ، والذى كان يمنع خروج آثار من

مصر . وأشعل لاكو حريقًا ، اختلف تمامًا مع الأمريكان الذين ساعدوا كثيرًا فى إزالة الرديم عن المقبرة ، وعادى الكثير من الإنجليز وعلى رأسهم هوارد كارتر الذى اكتشف لتوه المقبرة . أبدى لاكو تصلبًا ، كان مصريًا أكثر من المصريين ، رفض أن يرى الكنز الرائع يبدد وهو ملك هذا البلد ، ومنذ تلك اللحظة قضى ثلاثة عشر عامًا لم يعرف فيها طعمًا للراحة . شهورًا وشهورًا يأتى رجال الصحافة من العالم كله يلاحقونه بالأسئلة ، ويحاولون اقتحام مكتبه لمعرفة تفاصيل ، ليس فقط عن المجموعة نفسها، ولكن كذلك عن الأسلوب الذى اتبعه اللورد كارنارفون ، الثرى السخى الذى أفنى ثروته على مدار عشر سنوات فى البحث عن المقبرة . أما كارتر فقد كان شخصية شرسة ، كان مهيأ للتعامل مع النصوص المصرية القديمة ، فضلاً عن نصوص القانون . وقد قضى لاكو أيامًا يعد وثائق قانونية وسياسية فيما يخص دعاوى رفعها المكتشفون ضد الحكومة المصرية ، ويوم إحالته للتقاعد فى عام ١٩٣٦ اعترف لاكو : "أجهز علىَّ توت عنخ أمون" وترك مصر بلا ندم .

وتحت قيادته خطوت أولى خطواتى فى قدس أقداس الحضارة الفرعونية ، على الرغم من أن المتحف كان ككهف على بابا مليئًا بالغبار وتنقصه الإضاءة الكافية والعرض غير منظم فإن هذه الكنوز أدهشتنى ، وعلمت لماذا كرس لاكو جل جهده لكى يعرضها كما يجب . وتركت صالة المومياوات ولدى ذكرى مزعجة ، كانت برأسى القصة التى حكاها مالرو عن هذا الموضوع ، عند افتتاح المتحف فى عام ١٩٠٢

لاذ الموظفون الحكوميون الذين يرتدون الطرابيش والسترات الطويلة بالهروب ، وهم يصرخون فى هذا الجو الغريب بعض الشيء من مومياء رمسيس الثانى ، الذى بدا وكأنه يرفع ذراعه نحوهم ، والأمر هنا يتعلق بظاهرة بسيطة لكن مؤثرة ، التيبس فى مكان أو جو ليس به رطوبة .

أما ما كان دومًا محل فخر لاكو فهو الصالات الجديدة المضافة لتضم مجموعة كنوز توت عنخ أمون : "قال لى بعض من سبقنى إنه كان سيزيل بعض الأعمدة أو التماثيل الضخمة ، أو ينشر بردى ، أو يشيد فسيفساء ، أو يضع في المخازن لوحات ونقوشًا ، لكن ما كان يشغلنى هو ألعاب الطفل الفرعون وأسرته وملابسه الداخلية، وستائره ومقاصيره المذهبة التى تضم تابوته وعصيه وجواهره ، وعرباته المستخدمة فى التنزهات أو العربات الحربية أو صور الآلهة الحارسة له عند نومه ، وأصبحت مؤتمنًا على مئات الكيلو جرامات من الذهب وكهوف التوابيت الخشبية ، كنز أدهش المصريين كلهم ، ابتداء من الملك وحتى أبسط الفلاحين" .

بالخارج وفى حديقة المتحف ، توقفت برهة أمام مقبرة ماربيت ، الأب المؤسس للمتحف ، مثله مثل لاكو سار ضد التيار، وقضى حياته من أجل أن تحتفظ مصر بتراثها ، ومن أجل هذا الرجل الشجاع قدمت الحكومة المصرية التحية فى عام ١٨٨١ ، جنازة مهيبة كأنها جنازة ملكية، واحترامًا لرغبته فى أن يتركوه مدفونًا بالقرب من المتحف ، والذى يعد إنجاز حياته الأبرز . يتمدد ماربيت فى تابوت فخم من المرمر الأبيض يعلوه تمثال من البرونز، "أقدمت مصر منذ زمن على تدمير آثارها والآن

تحترمها ولعلها غداً تحبها" ، هكذا خطى ماريت فى كلمته فى افتتاح كتالوج أو متحف افتتح فى بولاق فى عام ١٨٥٨ .

بعد قرن ونصف من الزمان أتساءل إذا ما كان المصريون توصلوا إلى أن يحبوا آثارهم ؟ عندما أفكر فى الصعاب التى واجهتى على مدى هذه السبعين سنة التى مرت بى فى سقارة أشك فى هذا أحياناً . إن المشكلة تكمن فى ترتيب السلالات وفى الحقيقة إن العرب لم يستقروا فى مصر سوى فى القرن السابع ، ديانتهم وثقافتهم مختلفة تماماً : فلم يشعروا إطلاقاً بأى صلة تربطهم بالحضارة الفرعونية التى اعتبروها نتاج شعوب حقيرة من عبدة الأوثان ، وبعد أن حطموا أعداداً كبيرة من الآثار، فهموا اليوم أن المنفعة المباشرة التى يمكنهم أن يربحوها من هذا التراث تترجم فى أرقام بملايين الدولارات ، ومن ثم يهيئون لهذا الأمر المواقع الأثرية ، فهناك طريق سريع يؤدى إلى وادى الملوك اليوم يسمح بمرور مئات الأتوبيسات ، وكذلك أصبحت هناك سلالم لتيسير صعود وهبوط السياح الزائرين وهبوطهم للمقابر ، أما إعادة افتتاح مقبرة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى للجمهور فهو خطأ ، فكان يجب أن يترك الفنانون الإيطاليون يعملون فى هذه المقبرة عشر سنوات لترميمها فيجب حماية الألوان التى تتأثر بثانى أكسيد الكربون الناتج من تنفس مئات الزائرين يومياً . ومن ثم واحد من أجمل أعمال فن الرسم الملون مهدد بين عشية وضحاها بالاختفاء ، وكما رأيت أمثلة مشابهة لمقابر بها رسومات ملونة بسقارة اختفت وضاعت الآن .

ألف ليلة وليلة

تجسد لى القاهرة الإسلامية القديمة الصورة التى يمكن تلمسها للشرق الذى طالما حلمت به ، فلقد اكتشفتها قبل الآثار الفرعونية ، لأننى كرست أول يوم بعد زيارة المتحف للتجول فى الحى الفاطمى ، وقد نصحنى هاردى بالتجول أولاً حتى ساحة القلعة ، حيث ترى المدينة كلها من علٍ فى مشهد لا نهائى ، يمتد فيما بين الصحراء وشطآن النيل المكسوة بالخضرة ، والهواء كان نقيًا كالهواء عند الأهرام الثلاثة ، وهى أهرام خوفو وخفرع ومنقرع ، ويحيط بهم هالة من الغبار الذهبى الشكل المرسوم بدقة ، يا له من مشهد عظيم ، مع الوقت اختفت الهالة كلية من الأفق ، وغطت عليها العمائر الفوضوية التى تزحف أكثر فأكثر فى الصحراء . من هذه الساحة حيث المشهد البانورامى الرائع ، كنت أرى المدينة القديمة كلها من أمامى ، المنازل بسقوفها ذات الشرف ، والقباب الكثيرة ، ومآذن المساجد التى ترتفع فى الفضاء كأشرعة مراكب ، لم أفحص عددها ، لكنهم يزعمون أن عددها يفوق الثلاثة آلاف ، كل يحكى تاريخ مصر الإسلامية ، وفى مقابل هذه البانوراما التى كأنها السراب ، وقعت فى غرام هذا البلد .

خلال هذه العقود لم يتغير شيء من المشاهد التى تدور فى الشوارع العربية، ولم تبح بأسرارها كلها، مناظر تصيبك للوهلة الأولى بالصدمة، إنهم يذبحون دومًا الخروف أمام بوابة الحجيج الذين يعودون من مكة ، هنا بوتقة بداخلها خليط من المعتقدات والخرافات ، هذه المدينة القديمة أعطتنى إحساسًا بعالم ثابت لا يتغير مغلق فى عصر وسيط أبدى ، حملة المباخر يمرون كل صباح يطلقون البخور لاصطياد الأرواح الشريرة وللاتصال بعالم الموتى ، نترك الشمع الأسود يحترق طيلة اليوم أمام بوابة الموتى .

وأجد سعادة كبيرة فى التسكع عبر الشوارع الضيقة ، حيث أترك نفسى أتمشى بشكل عفوى تقودنى الروائح ، ويا لها من روائح تبدأ من روائح منتنة لا تطاق ، من شارع المدابغ وحتى روائح العطارة ، ثم من وقت لآخر أتقابل مع التاجر المتجول الذى يحمل قدرًا تفوح منها رائحة أشياء مقلية أو لحم مسلوق ، والتى تختلط برائحة القاذورات المتعفنة فى مجارى الماء فى الهواء الطلق . أحب أن أترك نفسى أتوه وسط هذه الشرايين التى تعج بكل شىء، متاهة حقيقة بالنسبة لعضو جديد مثلى ، حيث تتداخل العربات ذات الأذرع وعربات النقل المغطاة والحمير والجمال ، أو تحت أسقف وقتية لمحال صغيرة خربة متلاصقة الواحد بجوار الآخر .

اقتنع المصريون فقط منذ عدة أعوام بجمال مدينتهم وانطلقوا بمساعدة اليونسكو فى أعمال ترميم معتبرة ، فبعد أن تركوا المئات من

القصور والمنازل ذات المشربيات تتهدم ، يحاولون الآن إنقاذها كلما أمكن ذلك وتحويلها لمتاحف . كان للفرنسيين دور الريادة في إنقاذ التراث المصرى ، وذلك منذ حملة نابليون بونابرت على مصر فى عام ١٧٩٩ ، فبعد العمل الكبير لعلماء الحملة المصرية "وصف مصر" ، وصل شامبليون – الذى فك رموز الهيروغليفية – بمصر لإقناع الباشا محمد على بالإقلاع عن تدمير الآثار المصرية . وأخذ الراية من سابقه العبقرى ماربيت الذى أنشأ متحفًا يضم الآثار التى تخرج نتيجة للحفائر . كان يلزم هؤلاء الرواد سنون وسنون ؛ من أجل إقناع مصر بأن تحتفظ بتراثها .

لقد درست قليلاً العمارة الإسلامية ، لكنها كانت المرة الأولى التى أواجه فيها هذه الآثار ، حتى وإن بدا لى أن المعماريين المسلمين لم يأتوا بالجديد إلا أننى كنت منبهراً . هل تحولت المعابد القديمة لمساجد وأبراج الكنائس لمآذن ؟ لكن عبقريتهم جاءت قبل كل شىء من استلهام هذا. نحس بحيوية الإسلام ؛ هذه الديانة التى تسيطر هنا على الأرواح، ويلخص هذا المسجد وبخاصة مسجد السلطان حسن أسفل القلعة ولو أن مظهره الخارجي يبدو كحصن مرصع بالمرمر متعدد الألوان ، وفى الداخل يتميز ببساطة فى الفن وأضواء الفضاءات الداخلية التى تقود لقدس الأقداس خافتة . أسلوب بارع لكى يشعر المؤمنون بالمسافة الفاصلة بين الإنسان والإله .

المئذنة الأقدم والأكثر كمالاً من الناحية المعمارية من وجهة نظرى هى مئذنة مسجد ابن طولون ، وهى عمل رائع من القرن التاسع ، والتى قاومت بمعجزة أعمال التخريب الكبيرة التى جرت فى عهد محمد على ، الذى حول المسجد لمستشفى ، وكذلك تغلبت على الزلازل ، وبقى المسجد من أفضل المساجد ذات البوائك المشيدة فى مصر ، ويحتفظ بتأثير بيزنطى ، وقد رُمِمَ بشكل جيد ، وعلى الرغم من كثرة الخرسانات بمدينة القاهرة ، فإنه المسجد الوحيد - وهذا غريب - الذى يمكن أن نميزه تمامًا عندما ننظر إلى المدينة من أعلى القلعة ، فهو هنا قابع فى بهاء يغالب عوادى الدهر .

بعد عبور خان الخليلى ، هذا الخان غير العادى بمحاله ، سوق يروق للسائحين ارتاديه ، ويغزونا سريعًا انطباع بأننا ندلف إلى عالم آخر ، الأزقة التى تصل حتى الأزبكية والتى أضحت منذ زمن طويل المكان الأثير لدى الأوروبيين ، هذه البحيرة القديمة التى نضب ماؤها بنهاية القرن التاسع عشر ، تحولت طبقًا لأحلام بونابرت على يد مهندسين فرنسيين إلى جنة خضراء ، مستلهمين حدائق بت شومون فى باريس ولكى يحولوا بين المصريين وهذا المسطح الأخضر والمتنزه الجميل شيدوا أسوارًا عالية ، تلك التى هدمتها الثورة عام ١٩٥٢ بعد سقوط الملكية . وتجئ الطبقة الراقية من المجتمع لتلعب هنا التنس أو لتذهب إلى السينما . والشرفات بالميدان المجاور تكتظ بشباب من علية القوم ، وعرفت سريعًا أن نعومة الحياة كانت قاصرة على الأوروبيين ،

ولا يحق إطلاقًا أن يرتاد المصريون هذه الأماكن ، وهم الذين يطالبون منذ سنوات بالاستقلال ، والفجوة بين العالمين تتسع بشكل جلى ، بحيث نستطيع التنبؤ برياح ثورة على وشك الهبوب ، وعلى الرغم من انسحابى من العالم إلى سقارة، فإننى سرعان ما فهمت أن تطور هذا البلد لا مفر منه ، على الرغم من أن الطبقات المالكة لا ترغب فى تصديق ذلك .

الأهـــرام

حتى هذه اللحظة لم أشاهد من الأهرام سوى ذلك الذى رأيت من أعلى القلعة ، تبدو من بعيد فى صورة أشكالٍ مثلثة مرتفعة فى الفضاء كأنها ألغاز عتيقة ، واستطعنا بدقة تمييزها ، تلك التى تقف منذ ما يربو على الخمسة آلاف عام راسخة على الأرض ، مهيمنة على المكان الذى يتفرع عنده النيل مكونًا دلتا .

منذ اليوم التالى لوصولى للقاهرة ، وتحت تشجيع لاكو ، الذى جعل فى خدمتى سيارته وسائقه الخاص ، وصلت الجيزة لكى أتأمل بإعجاب من قريب هذه الآثار التى تدل على جرأة معمارية وتمكن فى الوقت نفسه . لقد استيقظت مبكرًا لاكتشافها عند شروق الشمس ، وعند مغادرة المدينة كنت مندهشًا من الضباب البسيط الأبيض الذى غشى وادى النيل .

الطريق الواصل حتى الأهرام قد أنشئ فى عهد إسماعيل باشا قبل افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٩٦ بقليل ، وكان جزءًا من أعمال عظيمة بدأها كيما يقدم صورة معاصرة لبلده أمام المدعوين ، وهم بالآلاف جاءوا من كل مكان من العالم بهذه المناسبة ، تحت قبة تكونت من

أشجار الأركالبتوس والأكاسيا كان يمتد هذا الطريق بمحاذاة النهر ، وكانت الخضرة تحيط به من جانبيه . بدا لى أن الرومانسية سيطرت على مشيديه ، لقد وقع إسماعيل فى غرام الإمبراطورة أوجينى أثناء زيارته لفرنسا . ولأنه كان مقرراً أن تزور الإمبراطورة مصر بدون الإمبراطور ، فكان على إسماعيل باشا أن يصطحبها لزيارة الأهرام ، وطلب الباشا أثناء التشييد أن يكتموا السر ، وأثناء المسير ستقع الإمبراطورة بين ذراعيه ، لا يروى التاريخ هذه الرغبة المحمومة ... وما يمكن تأكيده اليوم أنه لا يمكننا أن نتخيل ، ونحن نرى هذا الشارع الذى يعج بالزحام والسيارات والتلوث والشاحنات ، ما كان عليه يومًا ما من سحر ورومانسية .

وكان لدىَّ الحظ كذلك أن أرى الأهرام وهى تنبثق من وسط الضباب الذى ينقشع رويداً رويداً مع أشعة الصباح الباكر ، ثم وهى تأخذ اللون الوردى لانعكاس الأشعة الأولى للشمس عليها صباحًا ، ويمكن أن نضيف إلى هذا المشهد السحرى فيضان النيل الذى يغمر المكان . كل هذه البانوراما اختفت للأبد عندما بدأوا فى عام ١٩٣٦ فى تشييد تعلية جديدة فى أول سد بأسوان .

كثيراً ما تأخذنى الدهشة وأنا أقف بجوار قاعدة هذه الأهرام ، وهى كجبال عملاقة من الأحجار ، أىّ عقيدة خلود ، أو أى إرادة بقاء ورغبة فى الانتصار على الموت تلك التى سيطرت على هؤلاء ؟! أفكر فى هذا وأتذكر كلمات شاتوبريان : "ليس اللحد ذلك النصب الذى يعلن نهاية

المطاف ولكنه الحد الذى يبدأ عنده الدخول إلى حياة بلا نهاية ، فهو بوابة للأبدية ، مشيد على حدود الخلود" . أمام خوفو ومليونين وخمسمائة ألف كتلة حجرية والتى ترتفع نحو مائة وستة وأربعين مترًا ، ونقول فى أنفسنا إننا لم نشيد على مدار خمسة وأربعين قرنًا من الزمان مبانى شاهقة هكذا ، وضخمة هكذا : وعلى مدار قرن فقط ، تجمعت أهرام احتوت ثلاثين مليون كتلة حجرية ، كيف شيدوها؟! لازمنى هذا السؤال طيلة حياتى .

الاهتمام بالأهرام ، بالطبع ، خطوة تفرض نفسها بالنسبة لمهندس معمارى ، وما يدهشنى خاصة ، هو كيف تأتى لأناس مثل هؤلاء حديثى عهد بالبناء ولأول مرة يشيدون فى تاريخ البشرية ، أن يشيدوا مبان صعبة ودقيقة وضخمة ، لدرجة نعجز معها نحن فى العصر الحديث بكل وسائل التكنولوجيا التى لدينا . جوستاف جيكييه ، أستاذى فى الآثار المصرية كان أول من لفت نظرى وحفزنى لمواجهة هذه المشكلة الشهيرة للأهرام ، أحذرك من كل المجهودات التى ذهبت أدراج الرياح ، قائلاً عن سر الأهرام الغامض : "شكل الأمر بالنسبة لمعظمهم لعبة أرواح وخيال ، وألح أن هذا لا يستحق الدوى الذى أحدثوه بعملهم هذا ، ولكن أحذرك من أسلوب كهنوت تدعمه تبريرات ذات شكل علمى" .

درس بقى معى طويلاً وبخاصة بعد دراسة أول الأهرام إطلاقًا وهو الهرم المدرج ، ثم بعد ذلك بدأت أطأ باقى المواقع الأثرية فى سقارة حيث الأهرام الأخرى ، هرم وسركاف ، وهرم ونيس ، وهرم تتى ، وببى الثانى ...

من عصور مختلفة . ثم استقر بى المطاف فى الجيزة ، فى محاولة لإيجاد إجابات شافية للقضايا التى تطرحها هذه المبانى العملاقة من الحجر . وكنت الأول الذى يتصدى لهذه الدراسة ، فى عام ١٩٤٨ نشرت "مشاكل أهرام مصر" ، كنا نعرف أن الأهرام هى مقابر ، الأمر الذى جعل المصريين يكرسون هذا المجهود الضخم لتشييدها ، والاعتقاد الراسخ أن بقاء الجثة سليمة يعتمد على أمرين أساسيين : حفظ الجسد سليماً من أى تلف ، وإمداده بما يحتاجه من مواد . وظل هذا الاعتقاد ولم يتغير رغم مرور ثلاثة آلاف عام من التاريخ المصرى .

وحاولت أن أقف على النظريات كلها التى تناولت هذا الموضوع ، سواء أكانت رياضية أو فلكية أو إنجيلية فيما يتعلق ببنائها ودورها ، وبدأت أوجه النظريات المجردة الموجودة من قبل ، قلمى بيدى ، ووضعت نفسى ببساطة مكان المهندس المعمارى المصرى القديم الذى صمم هذه الأهرام ، فالمعمارى ليس رجل رياضيات يتسلى على الورق برسومات متنوعة ولكنه يدرس النسب ثم يحاول إحكامها وضبطها على أفضل وجه ، فلا يحاول حل مشاكل هندسية ، ولكن أن يجعل تخطيطاته تقف على الأرض والعمال الذين سينفذونها يفهمونها، وهكذا عند دراسة هرم خوفو بهرت، فلقد فكر هؤلاء فى أدق التفاصيل ، سُمْك المواد اللاصقة على سبيل المثال دقيق جداً ، لدرجة لا يمكن تلمسها ، ومن الصعب تخيل كيف وضعوا كتلاً تزن عدة أطنان فى أماكنها من البناء بكل دقة ، وعند كسوته أصبح الهرم فى هيئته الكاملة ، وكان عليهم أن يقدروا حجم البناء حتى يستطيعوا

تمثل " أشعة الشمس التى يصعد الملك عليها ليدلف إلى عالم السعداء ، "فيتحول لطريق صاعد من الضوء ، ومن ثم يغدو هو نجم فرعون" .

ويبقى السؤال ، ماذا فعلوا ليضعوا هذه الملايين من الكتل التى تزيد عدة أطنان فى أماكنها وعلى هذا القدر من الارتفاع ؟ إنه لشىء يصيب بالدوار . ومع ذلك فليست الأهرام من إنجاز العبيد المسخرين فى أعمال البناء ، ولكن كما عندنا فى كاتدرائياتنا من العصور الوسطى ، هو عمل من شعب بأسره ، من أجل رضى إلهه وهو الفرعون ، لقد ترسخ لدى هؤلاء الناس اعتقاد عميق بأنهم سوف يلتحقون بالأبدية مع فرعونهم ، وسوف يساعدهم ويمدهم بما يحتاجون فى العالم الآخر . وبالنسبة للأسلوب الدقيق الذى اتبعوه ، رغم كل الافتراضات والاحتمالات ، يبقى الغموض مسيطراً تماماً . عالم الآثار أودران لابروس ، والذى يعمل منذ سنوات فى هرم ببى بسقارة قال ذات يوم كلاماً وأظنه محقًا : "إذا ما عثرنا غداً على وسيلة تمكننا من بناء الأهرام ، فلا يجب أن نعتقد أن المصريين القدماء قد اتبعوا الطريقة نفسها ، لأننا لا نملك أى دليل على ذلك .

بعد زوسر ، رغب كل فرعون من فراعين الدولة القديمة فى أن يكون له مقبرته فى شكل هرمى . لكن لم يجرؤ أى منهم على تشييد مجموعة جنائزية كمثيلتها لدى زوسر، والتى أبدعها العبقرى إيمحوتب . لا شك لم يجد البعض الوقت والمكان لكى ينجز ما كان يأمل فيما يتعلق "بالمقر الأبدى". لقد حدثت فجوة فى تشييد الأهرام خلال عصر الانتقال الأول ، ثم عادت على استحياء فى عصر الدولة الوسطى ، ثم تكوّن شىء

من التراث العتيق، لكن لم تعد فخامة المعمار ولا رمزية الهرم الدينية كما كان عليه الأمر فى الدولة القديمة ، وذات يوم اختفت تماماً من مصر . وهكذا ، وبعد أن كانت الرغبة معانقة الشمس ، فإن الفراعنة رضوا بأن يدفنوا فى مقابر فى باطن الأرض . نعرف الآن أربعة وثمانين هرماً معظمها أطلال الآن .

ذات صباح عندما اكتشفت واحداً من أجمل المواقع الأثرية فى البلد الذى سأقضى به حياتى ، لم أستطع مقاومة الرغبة فى التسلق حتى قمة الهرم ، ومنذ اختفاء الكساء الخارجى للهرم أضحت الكتل عارية وشكلت سلماً ضخماً يقود إلى القمة فى خمس عشرة دقيقة ، وكان هذا التسلق ممنوعاً منذ عدة سنوات وذلك مخافة السقوط ، وكذلك حفاظاً على الأحجار ، وهذا المنظر الفريد يجعلك تطل من هذا الارتفاع على المشهد الرائع ، فالنيل شريط يجرى ملتوياً وسط مسطح أخضر ، وعلى مبعدة ، القاهرة يغمرها الضياء . بعد الحرب تسلقت الهرم مع ولدىّ من الناحية الشرقية منه ، وفى لحظة قلت فى نفسى "مع كثرة الحفائر لم يعثر أحد على معبد الهرم" وفجأة ، تفحصت الأرضية ، مدهش ! نعم ! إنه تخطيط معبد ذلك الذى يتبدى من تحت الرمال : نزلت مسرعاً لأننى لم أصدق عينىّ ، على الأرض تبقت آثار معبد ، ودونما انتظار أسرعت لمقابلة دريوتون الذى حل محل لاكو منذ وقت قصير على قمة مصلحة الآثار المصرية لكى أحيطه علماً بهذا الاكتشاف ، وقد أجابنى " حسن ! ارجع وارفعه أنت بنفسك !" .

أراد ولداى بيير ودانييل أن يصطحبانى ويتسليا بمساعدتى . ومن الغريب أنه لم يعر أحد اهتماماً للجانب الشرقى من هرم خوفو . نعلم أن أغلب المعابد قد تهدمت ولم يتبق منها شىء فوق سطح الأرض ، ويفضل الأثريون العمل فى المقابر ، حيث توجد النقوش والمناظر ، أما أنا فعلى العكس من ذلك فلم أهتم سوى بالآثار وعمارتها .

الخطوات الأولى نحو الأبدية

من نافذة القطار السريع الذى نقلنى فيما بعد إلى سقارة ، كنت أنظر الضوء الشاحب، ويتكشف المنظر بالتدريج عن جمال أصيل ، وكنت حقًا سعيدًا . وأثارنى كثيرًا أن أجدنى فى الموقع الذى طالما حدثوننى عنه . ففى الصباح حزمت حقائبى وودعت أقاربى لأذهب لمحطة القاهرة ، حيث قطار الصعيد الذى سوف يصل بى إلى قرية البدرشين ، على مبعدة ثمانية كيلو مترات من سقارة ، النيل يجف عند إغلاق أبواب سد أسوان ، وقد شيد هذا السد عام ١٩٠٢ ؛ لينظم الفيضانات التى تكون عنيفة عادة ، وعلى الرغم من انخفاض منسوب النهر ، كنت أرى مجموعات من الأشجار يغمرها الماء ، والنهر يطرح غرينه المغذى للنباتات والذى يغطى البراعم ، وكان يدهشنى سرعة نمو النباتات بعد موسم الجفاف ، فالمزارعون يسرعون ببذر الحب فى الأرض الطينية قبل أن تجف ، فيضعون هذه الحبوب فى حفر ناتجة عن أثر سيرهم فى الطين ، والذى فيه تغوص أرجلهم حتى أعلى الفخذين ، وبعد أسبوع تخضر الأرض ، وتنشد الحياة المتجددة نشيدها على ضفاف النيل ، فمصر بلا فيضان النيل فقدت كثيرًا من سحرها .

كنت أشاهد القرى المبنية فوق تلال بسيطة ، والنيل يتلوى فى جريانه كأنه شريط من الفضة بين أشجار الأكاسيا والجميز وأشجار الأثل . وتلهو بين الغصون هنا وهناك الأطيار والعصافير . هذا المشهد هو نفسه ما رأيته فى الكتب التى تذكر عبر لوحات فنية ما كان موجوداً فى مصر الفرعونية . وبعد نصف ساعة وبالقطار البخارى المزعج وصلنا محطة البدرشين ، وأخرجت رأسى من النافذة لأتأمل المشهد ، زحام شديد وفلاحون بجلابيبهم الزرقاء يتدافعون ، جموع تحاول الصعود وأخرى تحاول الهبوط وسط صخب ودود . كل محمل بأشياء مثل أكياس أو أقفاص دجاج ، وبعض السيدات المحجبات يجرين بطول القطار يبعن البرتقال والخبز. جلت بنظرى أبحث عن سكرتير سيسيل فيرث ، لم أكن أعرفه لكننى رأيت مصرياً يتجه نحوى، تعلو وجهه ابتسامة ويغطى رأسه طربوش ، ألقى التحية بانحناء شديد ، وبعث اثنين من الحمالين لينقلوا الحقائب ، ووضعوها فى عربة كانت تنتظر بعيداً عن الزحام ، قبل أن أدعى للصعود لأجلس بجوار الحوذى فى هذه العربة الصغيرة الإسبرطية ذات العجلتين ، ولم يكن العجل سوى إطارين من المعدن ويجر هذه العربة حصان نحيل ضعيف ، وتحرك أخيراً وغادر المحطة ودلف إلى القرية ، والبدرشين بلدة كبيرة تختبئ تحت أشجار نخيل كثيفة ، والشارع الرئيسى الذى عبرناه وسط ركام من الحمير والأطفال كان حيوياً جداً ، الفلاحون منتشرون أمام منضدة بضائع مبرقشة ، وتجار يتجادلون على عتبة حوانيت متواضعة ، ونكاد نجد أنفسنا على الأرض بين الحين والآخر لوعورة أرض الطريق غير الممهد ، منذ عدة أعوام أراد مخرج إنجليزى

جاء يصور فيلمـاً عن قصة حياتى ، أن يستعيد لحظة وصولى للبدرشين فى هـذه العـربة ذات الحـصــان ، وعندمـا رآنا رئيس المحطة نبـدأ فى استعادة لحظة وصـولى للمـحطة ثار قائلاً إن محطته ليست مـعمولة من أجل تصوير أفلام .

على مشارف القرية أشجار النخيل التى تحيط بالبحيرة ، تلك التى جـفت بعـد الحـرب بسبب وباء المـلاريا ، وفـى المـاء الذى يمـيل للسـمـرة جاموس بعيونه البارزة المستديرة ، ولا نرى منـها إلا خطمـها وجزءاً من سلسلة ظهرها ، ولسذاجتى ، اعتقدت أن ما أرى هو تماسيح ، وبدا لى أنها جاءت من المياه الأفريقية .

تابعت هذه العربة طريقـها عبر الريف الغنى بالأكاسيا والخروع والسنط وعيدان اللوتس ، وعند الاقتـراب من نخيل منف يسـير الطريق متعرجاً ، بين تلال من الركام المتبقى من العاصمة القديمة حتى آخر ما كان يصله الفيضان . أشـار سكرتير فيرث إلى تمثالين ضخمين تحت النخيل ممددين فى الرمـال ، لرمسيس الثانى الذى حكم ستين سنة فى مجد وعظمة ، ولم يتبق هنا إلا هذان التمثالان لملك أراد أن يقهر الزمن ، وبعد ذلك بعدة سنين شاركت فى نقل أحدهما (الجرانيتى)، واحتاج هذا المشروع إلى مئات من الرجال واستخدام رافعات لتحريك هذا التمثال الضـخم الذى حـمل إلى القـاهرة ، ويقف الآن فى الميـدان أمـام مـحطة السكك الحديدية، حيث يعانى من التلوث والشهرة كذلك ، بدلاً من خبيئته تحت الرمـال . ورأينا وجه التمـثال الآخر من الألباستر ، وكذلك جذع التمـثال ، ولاستكمال الكشف عن التمـثال المختبئ تمامًا ، كان يجب أن

نعتلى فوق صدره ، الأمر الذى لم يحدث منذ أن وضعه المصريون فى مخبئه لحمايته من عوادى الزمن .

شيد زوسر قصوراً من الطوب النيِّئ والخشب وأعواد الغاب فى العاصمة منف ، ولم يتبق من ذلك شىء إطلاقًا لأنها كانت مبنية من مواد ضعيفة لا تقوى على المقاومة مع مرور الزمن ، ومن جهة أخرى لم يهتم المصريون برؤية منازلهم تبقى طويلاً ، فقط مقار الأبدية الخاصة بهم التى ستحمى الجسد وتضمن له حياة مستمرة فى العالم الآخر ، ومن ثم ليس لدينا أى نموذج لمبنى من مبانى المدينة ، ومنف العاصمة نفسها ، عاصمة المملكة المهمة لمدة قرون ، ومن أهم مدن البلد ، لم يتبق منها شىء كذلك ، وكل معلوماتنا عن هذا الأمر جاءتنا من المؤرخين والرحالة . كان شامبليون سعيداً بما رآه من بقايا عند زيارته فى القرن التاسع عشر "كتل الجرانيت على الأرض ، والتى تزحف عليها الرمال رويداً رويداً ، تظل شاهداً على ما كان لهذه العاصمة من بهاء فى مبانيها ، وكان هنا المعبد الشهير للآلهة بتاح ، مركز المدينة المدهشة وروحها ، والتى ظلت حتى فى أواخر أيامها وفى لحظات تدهورها بنهاية القرن الثانى عشر الميلادى محط إعجاب "عبداللطيف"، هذا المؤرخ الذى كتب فيما يتعلق بمدينة منف : "بقاياها تقدم لمن يتأمل ضميمة من العجائب تربك العقل" .

الجزء الأجمل والأهم من العاصمة الكبيرة كان يمتد فيما مضى ، حيث توجد اليوم البدرشين وقرى ميت رهينة وقصر النغزيج ، وفيما يتعلق برحلته فى الصعيد ، قال أوجست مارييت عن البقايا التى رآها

فى عصره ، لا توجد مدينة كان قدرها كقدر هذه المدينة ، فلقد كانت فيما مضى المدينة الباهرة ، مصدر فخر مصر، تبهر العالم بعدد مبانيها وفخامتها ، ولم يتبق منها اليوم حتى بقايا ، وهكذا يتحقق قول إرميا النبى "أيتها الابنة التى تسكنين مصر استعدى لمن سوف تخدمينه أثناء أسرك ، لأن منف ستتحول لصحراء" (إرميا - ٤٦ - ١٩) .

ستترك الأرض الخضراء لنقتحم الصحراء ، وفى لحظة يستدير فريقنا نحو الشمال ، وعلى بعد كيلو متر هناك سد صغير يفصل سقارة عن أبى صير، وبعد هنيهة تطلعت فوجدت على مد البصر الهرم المدرج ، وفى عمق المشهد نجد عمل المهندس العبقرى إيمحوتب ، وهو المجموعة الجنائزية المبنية كلها من الحجر عند مدخل الصحراء ، وبرؤية هذا الأثر لم أستطع له مقاومة ولا لجاذبيته دفعًا ؛ فاعترتنى فنة وملأنى فضول بلا حدود . لا أستطيع الحديث عنه اليوم من جديد دونما تأثر شديد . فقد كان عنيفًا ما أستشعره فى داخلى بلا شك ، إن يوم ٢ ديسمبر من عام ١٩٢٦ سيغير مجرى حياتى ، وقد كنت مؤمنًا جدًا لكى أتخيل أن الصدفة وحدها هى التى قادت خطاى وسط أطلال آلاف السنين هذه ، وفى غضون ساعات وجدت نفسى أغوص فى عالم آخر وحياة أخرى .

ملكة ببى

لم يكن يدور بخلدى فى عام ١٩٢٦ ، عندما عملت مع جوستاف جيكييه بموقع الملك ببى ، أننى وبعد مرور أربع وسبعين سنة سوف أشارك فى اكتشاف غير عادى بذات الموقع ، ففى الثانى من أبريل من عام ٢٠٠٠ استخرج أودران لابروس تحت أعيننا الجاحظة من الدهشة تابوت الملكة عنخ سن ببى الثانية ، شخصية أسطورية من الدولة القديمة .

وكانت هذه مكافأة سخية مع قضاء أكثر من ثلاثين عامًا من العمل فى الموقع ، وكانت من نصيب فريق جون لوكلان ، وهو حاليًا السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والفنون الجميلة . ففى الفترة الممتدة من يناير وحتى مايو من كل عام يعمل أودران بالحفائر ، ومعه الباحثة اللامعة فى اللغويات كاترين برجيه فى موقع الأسرة السادسة ، على مدار عشرة أعوام وهم دائمو البحث عن هرم زوجة الملك ببى الأول ، وأخيرًا فى عام ١٩٩٧ اكتشفوه بجوار قاعدة الهرم الملكى ، مدفونًا على عمق خمسة أمتار تحت الرمال ، كتلة من الجرانيت ١٧ طنًا ، وكنت حاضرًا ذاك اليوم وسعيدًا مثلهم تمامًا .

وكان اكتشاف المقبرة مهمًا ، ولكن الأكثر أهمية كانت النصوص ، والأهمية الخاصة لمحتواها أن أعمال ماريبت فى ١٨٨١ وأعمال جيكييه فى ١٩٢٦ عثرت على نصوص فى هذه الجبانة الشاسعة ، لكننا لم نعثر من قبل على نصوص فى مقبرة زوجة ملكية من عصر الدولة القديمة . أن تتمتع الملكات بطقوس ، كانت منذ قليل حكرًا على الفراعنة ، يبرهن على مرحلة مهمة من "حالة الديموقراطية" التى سادت هذا العصر فى ممارسة طقوس الأبدية ، وهذه سوف تجد طريقها لمعظم المصريين فيما بعد ، وسوف يعجل هذا سقوط الدولة القديمة ، والنقوش داخل هذا الهرم محفوظة بشكل تام تقريبًا وذات جودة نادرة ، فهى محتفظة بألوانها ، وخاصة الأخضر رمز البعث .

تغيرت الحياة فى بر مصر بعد الحرب العالمية الثانية ، زوجتى وجدت نفسها وحدها فى سقارة ، وابناى واصلا دراستيهما فى مدرسة بالقاهرة ، وعندما قررت زوجتى مغادرة مصر نهائيًا فى عام ١٩٤٧ مع أبنائنا الثلاثة ، بقيت وحدى لسنين طويلة فى هذا الفضاء والوحدة ، وبقيت وحدى حتى الستينيات ، عندما أصبح عندى القليل من الأصدقاء من جديد، ثم جاء عالم المصريات جون لوكلان ليستقر معى ليكمل عمل أستاذه جون سانت فرجارنو بعد الأعمال المهمة لجيكييه ولاكو حول نصوص أهرام ببى الثانى ، والتى تساعد كثيرًا فى دراسة الكتابة واللغة المصرية القديمة ، ويبدو ضروريًا مباشرة دراسات مشابهة فى ثلاثة أهرام أخرى من الأسرة السادسة ، وهى أهرام كل من تتى وببى الأول ومرينرع ،

لكن صالاتها الداخلية كانت مهدمة بسبب أعمال التحجير التى كانت تتم فى العصور الوسطى ، حيث يأخذون الأحجار من هنا لاستخدامها فى البناء والتشييد بالقاهرة ، واللافت للنظر أنه عندما تزور الآثار المشيدة فى هذا العصر ، مثل بقايا المدينة القديمة ، تظهر نقوش فرعونية على الجدران ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

كان علينا أن ننتظر عام ١٩٥١ ، ووصول جون سان فارجارنو إلى الموقع ليبدأ العمل فى الحفائر بالأهرام الثلاثة ، وكنت شخصيًا مكلفًا بإزالة الرديم وتقوية الآثار من الداخل ليصبح الدخول إليها ميسراً ، وهذا عمل محفوف بالمخاطر فيمكن أن يتهدم الممر فوق من بالداخل إذا حدث أقل خطأ ، فكان علىّ أن أباشر أعمال بناء بالطوب لزيادة صلابة الجدران قبل أن نضع مكانها الكتل التى تحتوى على النقوش .

ولم نستطع أن نعمل كثيراً فى هذا الاتجاه ؛ لمشاكل عرضت فجأة بين مصر وفرنسا ، أمر ناصر بعد لحظات من استيلائه على السلطة فى - ١٩٥٤ - المقابل بإرسال البعثات الأثرية المصرية لتقوم بأعمال حفائر فى الأرض الفرنسية! طلب أذهل الحكومة الفرنسية وبالتالى رفضته ، وبين عشية وضحاها أغلقت كل مواقع الحفائر ، ولم تكن لدىَّ الرغبة فى انتظار افتراض انفراج الأزمة بين البلدين فقمت بزيارة جارى الجديد فى سقارة ، رئيس مجلس الدولة السنهورى باشا ، الذى شيد منزلاً صغيراً بالقرب من منزلى يأتى إليه لقضاء عطلات نهاية الأسبوع ، وبيننا علاقات ممتازة فهو مهتم بأعمالى ، وبدأت أعالج المشكلة

بدبلوماسية ، فقد أوضحت أننى أعمل فى بعثة فرنسية مصرية وأمثل فيها الجانب المصرى ، وأوضحت له أن فرنسا لا تنتظر أى شىء من هذا العمل سوى النتائج العلمية ، فلم يكن ذا معنى أن تأخذ نصوص الأهرام ، فالهدف هو وضعها فى مكانها فى الهرم . وبعد عدة أيام أبلغونى بالموافقة بإمكان العودة للعمل .

كان الرحيل المبكر للسنيد سان فارجارنو هو الحدث المفجع فى عام ١٩٦٣ فقد أحدث لى هذا الرحيل ألمًا كبيرًا ، فكنت أحس بكثير من المحبة لهذا الرجل المفيد والطيب جدًا ، فقد وصل للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO بدلاً من شارل كوينتز ، شخصية غير محبوبة ، والذى استبعد كل معاونيه ، حتى عام ١٩٥٩ ، عندما ترك وظيفته ، وكان على فارجارنو أن يواجه صعوبات جمة وقفت أمام المعهد المهدد بالاختفاء على يد السلطة المصرية ، وبفضل مثابرته وذكائه فى مفاوضة الجانب المصرى استطاع أن ينقذ المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO الذى استطاع معاودة أنشطته .

أثناء هذه السنين من الإضرابات السياسية توقفت الأعمال فى أهرام الأسرة السادسة ، ثم كان جون لوكلان الذى أخذ على عاتقه مسئولية استئناف هذا العمل الضخم ، وبعثت له برسالة على الكرنك حيث كان يعمل منذ سنوات ، أشرح له مرة أخرى أننى أجد نفسى وحيدًا فى سقارة ، وأننى فى حاجة إلى متخصص فى اللغة لنسخ النصوص ، وكانت هذه مشكلة كذلك ، وكنت على يقين أنه إن لم يسرع

فرنسى ليلتحق بى فى هذا الموقع الكبير ، وهو الجبانة المنفية ؛ فسينقض الإنجليز عليها من جديد ، وترك لوكلان الكرنك الذى كان محط اهتمامه ليأتى ليتعامل مع نصوص الأهرام ، وكنت سعيداً أن أجد فى هذا الرجل ، الذى كنت أعرفه آنذاك قليلاً وكان أصغر سنًا منى ، أقول كنت سعيداً أن أجد فيه رفيقًا مدهشًا ، مرحًا دائمًا ، ومتعاونًا ولطيفًا ومستعداً للتكيف مع ظروف معيشة صعبة .

بعد أن استقر سافرنا لزيارة الفيوم ، على بعد حوالى ساعة إلى الجنوب من سقارة ، إقليم جميل وظل لوقت طويل حديقة مصر الغناء . بدأنا فى إزالة الرمال عن فوهة هرم ببى الأول ، وهنا بدا الأمر مشروعاً صعبًا ، فقد تطلب الأمر بالفعل عدة سنوات لتقوية ما بداخل الأثر ، ثم نعود للجبانة لوكلان ، وأنا كل يوم بعد الظهر حول أطلال هرم ببى الأول ، وذات يوم دفعنا فضولنا للنزول حتى الحجرة الجنائزية عبر دهليز منحدر وضيق ، وزحفنا تحت سقف من كتل الجرانيت التى كان يمكن أن تتهدل فى أى وقت ، ووصلنا بهذه الحالة إلى أعتاب الحجرة الأمامية ، وبددنا الظلام بلمبات الزيت وهالنا ما وقعت عليه أعيننا ، كتل جيرية ضخمة متهدمة وأجزاء من جدران وكتل أخرى خلقت جواً كأننا فى عشرين ألف مكان تحت البحار ، فلقد كنا فى كهف على بابا المليء بالكنوز . أغلب المستويات من النصوص تكسرت ووقعت على الأرض وكنا نعلم أن أقل حركة قد تعرضنا لانهيار مروع للأثر - وكان يلزمنا رافعات لوضع كل شيء فى مكانه لتستعيد الحجرة سماءها ذات النجوم وسحرها .

موقع عمل جديد بدأ ونحتاج فيه لعمال كثيرين ، يقسّمون إلى مجموعات ، يمررون فيما بينهم هذه الأجزاء الكبيرة من الحجر ، والتى تصنف بالتوالى وترسم وتصور ولا نستطيع وحدنا أن ننجز هذا العمل الشاق . لوكلان وابتداءً من السبعينيات ، شرع فى تكوين فريق عمل من حوله يضم أودران لابروس وكاترين برجيه وإيزابل بيير ، ثلاثة من علماء المصريات الكبار الذين ساعدوه فى وضع كل الأجزاء فى مكانها من الجدران بالتدريج ، وأمضوا سنوات مضنية فى هذا العمل ، وبإعادة هذه النصوص لمكانها الأصلى ، لم يكف لوكلان ولا فريقه عن ترديد اسم ببى الأول وإحياء اسمه بالتالى ، وهو الأمر الذى لطالما تمناه الملك كما هو مكتوب فى نصوص هرمه .

أودران مثله مثل مورجان وجيكييه عمل فى إيران ، وشارك فى العمل فى قصر فارس فى موقع فى سوس ، أثناء إعداده لدكتوراه الدولة عن عمارة الأهرام ذات النصوص (الأهرام التى على جدرانها الداخلية نصوص منقوشة) فى الدولة القديمة ، ومن ثم كان مطلوبًا للعمل فى أبحاث لوكلان ، وبالنسبة لكاترين وإيزابل فكانتا متخصصتين فى اللغويات ، وبمرور الوقت أصبحنا أسرة واحدة نجتمع كل شتاء تحت سقف منزلى ، بينما يسكن أودران الأتلييه الذى كانت تشغله زوجتى ، وكانت سيدة المكان ، تسهر على إدارة المنزل وكنت سعيدًا لوجودهم، وكنت متعلقًا بهم جدًا وهم كذلك كانوا يحسون الشىء نفسه تجاهى ، وكانت كاترين تلاحظنى عن قرب ، وتصدت للمشاكل التقليدية كحجز تذاكر

الطيران أو اختيار السائق ليقودنى للقاهرة ، وكان هذا يروق لى وكان أن تعايشنا باحترام كبير ، احتفظت بحجرتى التى كنت أسكن فيها مع زوجتى ميمى والتى تطلع على النخيل ، وحتى وإن تغير الديكور فإن الذكريات لا تمحى ، وفى آخر الصالون مكتبى الأخضر الصغير وهو أثرى حقًّا فهو هنا منذ عام ١٩٢٧ .

ومع أن أشياء كثيرة قد تغيرت منذ ذاك العام فإن ظروف العمل لم تتغير كثيراً ، فالذين يقومون بالحفر ينهضون مع الفجر ، والمنزل قارس البرودة شتاء لعدم وجود مدفئة إلا تلك التى دشنها أودران فى الصالون ، وهذا أفضل قليلاً من تلك الأيام التى قضيناها أنا وزوجتى ميمى حيث كان الموقد ، وكان هذا لتدفئة أغطية الفراش بعض الشىء ، وكان هذا مهماً للقدرة على مواصلة الحياة بروح معنوية مرتفعة وكان الإفطار فى صالة الطعام ، ويقوم بالخدمة شابان من السفرجية (خدم المنزل) الأوفياء ، ثم سائق البعثة الأثرية الفرنسية فى سقارة يأتى ينتظر هذه الأسرة بسيارة المصلحة ؛ ليقودهم إلى موقع العمل فى هرم ببى .

بعد دراسة استغرقت حوالى عشرين عاماً لمبانى الفراعنة ببى الأول ومرينرع ، بدأ لوكلان وفريقه بحث آثار زوجات هؤلاء الملوك على أمل اكتشاف نصوص أخرى ، فالموقع مازال به الكثير ، مئات العمال يعملون به ، نشاط لم أعهده منذ أيام فيرث وعملنا حول الهرم المدرج . يرتدى هؤلاء العمال الجلاليب المعتادة والعمائم ويعملون تحت رياسة حسين ، رئيس العمال الذى بدأ عمله تحت إدارتى ، أى منذ حوالى خمسين عاماً ،

والرجل أسطورة حية محبوب جدا من العمال ، ويشكلون معًا عائلة كبيرة ، وهذا يفسر فى جانب منه لماذا يسير العمل فى الموقع بشكل جيد ، وكذلك بفضل أودران الذى يعلم كيف يدير الحفائر إدارة الأستاذ ، وهو موهوب ، ولعلى أقول إنه كان مثل أوجست مارييت فى زمانه ، لديه معول حفر مثنىٍ ليسهل نقل الرمال ، وصنع مثلما صنعوا فيما مضى مسارات تسير عليها العربات التى يدفعها العمال لينقلوا الرديم والرمال . وكان العمال يتعرفون علىّ بطاقية الصيادين ، أما أودران فهو معروف بقبعة ذات تصميم يرجع للشرق الأقصى ونظارته السوداء ، أما ما تغير حقًا فهو أساليب الجس الأثرى ؛ عن طريق أجهزة تخبر إذا ما كان تحت الرمال آثار أم لا . وفى عام ١٩٨٨ تمت اكتشافات مهمة بفضل أجهزة EDF ، فالفنيون الذين أرسلتهم فرنسا إلى الموقع استخدموا أساليب اصطناعية حديثة ، منها عدة أساليب جيوفيزيقية للسطح وكهرومغناطيسية وتحليلات مغناطيسية وقياس كهربائى واستخدام التردد الإشعاعى ، وهكذا ظهر مبنى مكون من ثلاثة مداميك موجود فى الزاوية الجنوبية الشرقية من هرم ببى الأول وهو من الحجر الجيرى ، ولوكلان رأى فى هذه النتائج أهرام ملكات أحدها إلى الغرب والآخر فى الوسط والثالث فى الشرق ، وهذه الاكتشافات تمت فى الواقع بعد ذلك ، لأن لوكلان كان يعلم بوجود أهرام ملكات من حول هرم ببى ، ولكن بفضل هذه التقنية وفر سنوات من البحث ، وبمنتهى الإثارة بدأ فى فحص الهرم الأول الذى ظهر ، وهو هرم ملكة الغرب والذى مازال اسمها غامضًا .

وبعد الأعمال الطويلة ، كنا محظوظين عندما عثرنا فى الحجرة الجنائزية على الفائض من القماش ، وأدوات صغيرة من الخشب ، وبقايا فازات من الألباستر منقوش عليها هيروغليفى بخط جميل ملون ، أما الشىء الأكثر تأثيراً فكان صندلاً من الخشب المذهب كانت ترتديه الملكة . فإذا كنا مازلنا نجهل اسمها فنحن نعرف مقاس حذائها ، قدم صغيرة ، لعلها كانت فاتنة .

عند جوستاف جيكييه

على حدود الصحراء ، نزل الحوذى على الأرض ، وغاصت العجلات فى الرمال ، والحيوان المسكين لا حول له ولا قوة ، ومن ثم نزلت وأكملت الطريق على قدمىّ رغم اعتراضات سكرتير فيرث . أخيرًا وعند قمة الهضبة ، لمحت بيت جوستاف جيكييه ، وتراه من بعيد يقف فى الفراندة حيث كان يجلس مع زوجته ، وجاء لمقابلتنا . والبيت مبنى من الطوب النيِّئ ، متواضع جدًا فى قلب الصحراء ، ومن الشرفة نستمتع بمنظر رائع ، وحتى وإن لم تعد معظم الأهرام سوى أطلال ، وأخذتنى هذه الرحابة وتلك الضخامة .

بدت لى عائلة جيكييه سعيدة لاستقبالى ، فقد حملت معى بعض التغيير على وجودهم الحاد الصارم ، حمل جيكييه حقائبى ووضعها فى حجرة صغيرة عتيقة لكنها تفتح مباشرة على الصحراء ، وهنا سأمضى شهرًا حتى ينتهى مقرى المصيرى فى سقارة . بلحيته البيضاء وعيونه المرحة ، بدا جيكييه شخصية حاضرة الذهن وكريمًا ، وذا صوت خفيض وهذا كله لم يترك شكًا فى الدلالة على أصوله ، فهو سويسرى من نيوشاتل ، ينحدر من عائلة كبيرة برجوازية ، وهو يبلغ من العمر ثمانية

وخمسين عامًا وما يزال يباشر الحفائر بشكل يبعث على الإعجاب . ولقد بدأ مسيرته كأثرى فى إيران مع جاك دو مورجان ، وكان منه مقربًا وله صديقًا ، ثم جذبته مصر فبدأ فى الحفائر فى سقارة لحساب المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، وكان مهتمًا بالعمارة المصرية فى الدولة القديمة ، وعلمنى الكثير ، وكان ودودًا معطاء مما ساعدنى على استكناه علم المصريات الذى أراه أمامى . كان عام ١٩٢٤ عام رحيل دو مورجان ، وكان قد عهد إلى جيكييه بجبانة سقارة الجنوبية ، واستطاع أن يصل إلى حجرة معينة الشكل ، ولأنه لم يكن لديه المعدات للوصول إلى الحجرة العليا، فقد نقل العمل إلى مصطبة فرعون ، وهو أثر فريد أسماه بهذا الاسم سكان القرى المجاورة ، والاسم يعنى "مقعد فرعون" ، هذه المصطبة الضخمة على شكل تابوت ترجع للأسرة الرابعة ، ونسبها جيكييه إلى الملك شبسسكاف ، ابن منكاورع وأول عمله هو إزالة الرمال من المدخل ، تلك التى كانت قد أخفته بعد أعمال ماربيت الذى استخدم الديناميت لعمل طريق إلى المدخل ، ثم قام جيكييه بعمل التقويات اللازمة للمنحدر الهابط بطول بهو المدخل ؛ لجعل الدخول لهذه المقبرة ممكنًا . وقد أرانى كل ما يحيط بالأثر من بقايا ، أسوار من الطوب النيئ ، ومعبده الجنائزى ، وطريق أبى الهول الذى يصل إليه ،.والكسر المنقوشة التى جعلته ينسب هذا الأثر للملك شبسسكاف .

وأفهمنى الاختلاف الجوهرى بين أن تطلب إلى "الريس" ، أى رئيس العمال فى الموقع ، أن يحفر فى هذا المكان أو ذاك فقط، وبين أن بنفسه

الأعمال حتى فى أدق التفاصيل ، ويرفع التخطيطات مع توالى الاكتشافات ويعمل عليها فى الوقت نفسه على أرض الواقع ، "وهذا عمل لم يكن معروفًا فيما مضى" هكذا علمه جاك دو مورجان . واصطحبنى جيكييه على مبعدة مائتى متر من هنا إلى موقع هرم ببى الثانى ، الذى بدأ لتوه فى عملية التنظيف وإزالة ما حوله ، ولم أكن أتخيل فى تلك اللحظة أننى – وبعد مرور أربعة وسبعين عامًا – سأشارك فى افتتاح مقبرة والدة هذا الملك الذى حكم قرابة مائة عام ، الملكة غنخ إس إن ببى الثانى ، والشىء الذى لم يدر لنا بخلد هو ما احتواه هذا الهرم .

عاش مارييت يعتقد أن الأهرام كتلة "صامتة" كان أول من دخل هرمًا بسقارة يحتوى على ما أسميناه فيما بعد بنصوص الأهرام ، وكان ذلك عشية وفاته ، ولسوء الحظ لا ندرى شيئًا عن عصر كتابة هذه النصوص ، فلعلها كانت أقدم نصوص عرفتها البشرية ، فهذه صيغ سحرية وترانيم وطقوس أو قوائم قرابين ، هدفها الوحيد تأمين حياة أبدية للمتوفى .

فى عام ١٩٢٦ كان أول عمل عهد به إلىّ جيكييه أن أنفذ الرفع الأثرى من حول مجموعة ببى الثانى الجنائزية ، فلقد اعتبرنى هكذا وفورًا مساعدًا له . ولم أكن أقل فخرًا بهذا ، فلقد خلفت فى هذه الوظيفة عالم المصريات البارز الأمريكانى داوس دونهام ، وقد علمنى هذا العمل أن أكون قوى الملاحظة ، حيث يجب تحديد مكان كل حجر بدقة وأفحص

بعينىٍّ أدق التفاصيل وأتفهم أهمية أقل علامة ، ويجب أن أعترف أننى فى البداية شعرت بالإشفاق على نفسى مما ينتظرنى أمام هذا الأثر الضخم ، وأدهشنى صلابة البناء ، ترتيب العمل يوميًا كان متغيرًا ، أذهب للموقع بعد تناول إفطارى مع جيكييه ، وأتسلل إلى داخل الأبهاء السفلية لأصل إلى الحجرات الداخلية بأحجارها الكبيرة ، ودرست الصالات المقبية ذات الكتل الجرانيتية الضخمة ، وكنت أفحص كلاًّ على حدة بالنقوش التى تظهر، وكنت أشعر بسعادة حتى أننى كنت لا أحس بالمجهود البدنى الشاق . وفترة وجودى فى الصحراء فى ديسمبر ، الجو ليلاً شديد البرودة ، ونهارًا شديد الحرارة خاصةً عندما تكون الشمس فى كبد السماء ، لكننى تعودت على ذلك سريعًا .

جوستاف جيكييه لم يأخذ إلا يومًا واحدًا إجازة أسبوعيًا ، ومعظم الوقت هو حبيس منزله جالسًا على مكتبه يحرر التقارير الخاصة بالحفائر ، أحيانًا ما يقبل أن يصطحب زوجه إلى القاهرة وكنت أفيد من هذه الفترة من النهار لأزور المواقع الأثرية فى ما حول سقارة ، والباديكار (المرشد السياحى) الذى قدمه لى أبى كان مفيدًا لى ، هذا المرشد المعتد والذى حرره عالم المصريات الألمانى شتايندورف ، فهو يحتوى وصفًا دقيقًا للمواقع الأثرية ، ومثل كل المواقع فإن الحفائر توقفت أثناء الحرب العالمية الأولى ، وطبعتى لعام ١٩١٣ كانت سارية ومعاصرة ، فلم يحدث أى اكتشاف ذى بال فى أى موقع منذ ذاك التاريخ (١٩١٣) ، فيما عدا بالطبع اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون فى

عام ١٩٢٢ ، وبعد ذلك بخمس سنوات استمر هوارد كارتر فى العمل بها ، ولاكو أخبرنى أنه انتهى بتفريغ الحجرة الجانبية من المقبرة ، وكان متذمراً من تدفق السياح الذين جعلوه يفقد الكثير من الوقت .

صعب الآن تخيل ما لا يقل عن ثلاثة عشر ألفًا من الزوار أسرعوا فى عام ١٩٢٦ إلى وادى الملوك على أمل زيادة المقبرة الخاصة بهذا الفرعون الصغير ، لم يتحمل كارتر هؤلاء ، وكاميراتهم وآلات تصويرهم لكن كان عليه أن يكون ذا قلب كبير ، خدمة لهذه الكنوز لأن غضبه كلفه عامًا قضاه فى انجلترا ، وكان عليه أن يحصل على تصريح من لاكو للعودة للعمل . وكان يلزمنى بعض الوقت لزيارة الصعيد ، وواتتنى الفرصة سريعاً فى عام ١٩٢٧ عندما دعانى هنرى شيفرييه ، الذى كان يعمل منذ عام بالكرنك لزيارته .

لكننى كان لدىَّ الكثير لأكتشفه ، هنا حيث أعمل . ذهبت ذات يوم لرؤية هرم ميدوم ، فقد شرح لى جيكييه أن الأثرى الألمانى لودفيج بورخارت اكتشف لتوه بقايا منحدرات ، ربما كانت تستخدم أثناء عملية البناء ، وهذا الافتراض دافعت عنه فيما بعد ، مفضلاً المنحدر الوحيد المتعامد على إحدى واجهات الهرم والتى تمكن من الاتصال بكل الأجزاء بسهولة ، لكن إذا ما كان هذا الأسلوب سهل الاستخدام فى تشييد الأهرام الأقل حجمًا ، فإنه يصبح غير عملى فى حالة أهرام عملاقة كهرم خوفو .

هرم ميدوم أثر غريب الشكل ، شيده سنفرو ، الأب المؤسس للأسرة الرابعة ، له شكل خاص جداً ، يبدو كهرم مدرج ولكنه مكسو من الخارج ، وسقطت كسوته الخارجية على الأرض . وطبقًا لبعض الباحثين كان هذا نتيجة لأكبر كارثة معمارية فى كل العصور تلك التى جعلت الهرم يعرى تماماً من كسائه الخارجى . أثناء فعاليات مؤتمر علم المصريات الثامن ، والذى شاركت فيه بالقاهرة فى نهاية مارس عام ٢٠٠٠ ، أعلن باحثان هاويان اكتشاف حجرتين وبهوين وكلها سليمة لم تمس داخل هذا الهرم فى ميدوم . ولسوء الحظ كانت هذه الصالات فارغة ولا تحتوى نقوشاً . ولم يأت هذا الاكتشاف بجديد بالنسبة لنا . لكن الأمر المثير هو أن تدخل أماكن لم يدخلها أحد منذ ٤٧٠٠ عام ، وسنحت هذه الفرصة عندما تسللنا أنا وفيرث إلى داخل المقبرة الجنوبية بالهرم المدرج .

كان لى من العمر أربعة وعشرون عامًا وكنت جاهلاً أنظر بإعجاب لهرم ميدوم ، منذ تشييده اعتبره العالم الإغريقى من بين عجائب الدنيا السبع ، وهو رمز مصر ؛ أرض الأسرار بين البلاد كلها ، حيث العديد من الآثار لحضارة ذات صيت ، وهى الأكثر قدمًا ، وتربطنا بالأصول الأولى للبشرية ، ولكى تشعر بهذا يجب أن تقف بجوار الأهرام وياحبذا فى ليلة مقمرة وسماء مزدانة بنجومها ، فهذه الأهرام بأحجامها الضخمة تبدو لا نهائية وواجهاتها وأضلاعها تتلاشى وتختفى فى اللانهائى .

ميمـــى

ميمى هى زوجتى منذ إحدى وسبعين سنة ، فلقد تزوجنا فى الأول من أكتوبر ١٩٢٩ فى باريس ، اتحاد طويل جدا يصعب تصوره اليوم وسط عالم سرعان ما ينهار ، فلم يعودوا يتزوجون ، هم يتحدون اتحاداً ما ، وعندما لا يرغبان فى رؤية بعضهما يترك أحدهما الآخر ، فلم تعد توجد تلك الإرادة التى كنا نتمتع بها والتى تجعل المشاعر والأحاسيس تستمر حية دافئة ، وأرى هذا شيئًا محزنًا جدا .

والذى أعطى زواجنا قوة هو الاحترام العميق الذى يكنه كل واحد لحرية الآخر ، فلم تعترض ميمى إطلاقًا على اختيارى البقاء فى سقارة ، ولكن فضلت العودة لفرنسا ، ومنذ تلك اللحظة لا نقضى سوى أربعة أشهر معًا كل عام ؛ لأننى أعمل باقى الأشهر فى سقارة ، ولم يباعد بيننا هذا الفراق الجسدى . فى مثل عمرنا يجب الاعتراف أنه تسلية كبيرة أن نكون قريبين ، وأتمنى أن تنتهى أيامى بجوارها .

لسوء الحظ ميمى فقدت بصرها تدريجيًا فى السنوات الأخيرة وعانت من ذلك كثيراً لكنها أبدت شجاعة مدهشة ، شجاعة لطالما تحلت بها تحت أى ظرف أثناء حياتها . فقد البصر ابتلاء شديد أليم لم نعتده

خلال ثلاثين عاماً ، كانت قريبة من عالم المكفوفين ، فلقد كانت مسئولة عن مؤسسة فالنتين - هوى ، ولم تتخيل أنها ستعيش ذات يوم هذه المحنة . بعودتها للاستقرار فى فرنسا بعد الحرب قررت بحسم أن تكرس وقتها لمصلحة المعوقين ، وتحدثت عنهم إلى مدام لاكو مساعد عمدة الدائرة السادسة عشرة، التى كانت مسئولة عن الشئون الاجتماعية، وبناء على نصائحها ذهبت ميمى إلى جمعية فالنتين - هوى لكى تقرأ للمكفوفين ، وسرعان ما لاحظت أن هؤلاء الذين لا يمكنهم الرؤية لهم احتياجات أخرى وتعايشت مع مشاكل هم ، وأصبحت على رأس مصلحة المساعدة ، وقررت أن تساعد المستبعدين على العودة لأحضان الحياة . وبشكل متطوع تماماً حاولت أن تجعل من حياة أولئك الذين يعيشون فى ليل دائم حياة بشرية طبيعية ، وأنجزت عملاً جليلاً .

كان لها من العمر عشرون عاماً عندما قابلتها عام ١٩٢٧ ، وكنت ولداً خجولاً ، وجذبنى إليها خفة دمها وروحها المرحة وبشاشتها الدائمة مما جعلها جذابة . ولها نظرة للحياة والناس مليئة بالسخرية والتهكم مما شدنى كذلك إليها ، ومسار حياة كل منا لم يكن ليلتقى بمسار الآخر ، فلم يكن مقدراً لى أن آتى للعمل فى سقارة ، وهى كذلك لم يكن مقدراً أن تأتى مارجريت الصغيرة إلى مصر . والدها بيير جوجيه ، عالم دراسات هللينستية وأستاذ فى السوربون ، لم يكن هناك ما يدعو لأن يصبح مديراً للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، الذى أنشئ مثله مثل مصلحة الآثار بمبادرة من أوجست مارييت . هاتان المؤسستان كان يديرهما فرنسى ، وتهتم كل منهما بعلم المصريات ، ولكن شيئاً فشيئاً تنافستا

بعد اختفاء مارييت ، وخشية أن نرى إدارة مصلحة الآثار تتفلت من بين أيدى الفرنسيين ؛ أنعش ماسبيرو تطور المعهد الذى كان يسمى المدرسة الفرنسية بالقاهرة ، كأخت صغرى لمدارس أثينا وروما ، لتصبح فى عام ١٨٩٨ المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO وأخذ ماسبيرو بزمامه .

وقد استطاع المعهد أن يتغلب على أزمة كبيرة أثرت على صورته ، وذلك كان فى عام ١٩٢٧ عندما اندلع التنافس بين علماء المصريات ، ورأت الحكومة المصرية أنه من الأفضل أن تستبدل بالمدير الحالى آخر من غير علماء المصريات ، ووقع الاختيار على جوجيه ، رجل بنبل شخصيته استطاع أن يقضى مؤقتًا على الاختلافات الداخلية .

وبوصفى موظفًا فى مصلحة الآثار كان من اللائق أن أذهب لأقدم التهانى للمدير الجديد للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO ، الذى فى عام ١٩٢٨ جاء ليستقر مع زوجته وابنتيه ، وانتهزت فرصة وجودى فى أحد الأيام بالقاهرة وذهبت لقصر المنيرة حيث استقبلنى جوجيه استقبالاً حارًا ، واندهشت عندما رأيته ، فهو رجل قصير القامة ، وفى عينيه يلمع الذكاء الوقاد ، وكل هذا مع طيبة تشع من شخصيته ، فى مكتبه بقيت تحت تأثير سحر هذا العالم الكبير . وخلال عهده انتعشت الحفائر الفرنسية فى مصر كما لم يحدث من قبل ، وكان يعشق استضافة الصفوة من العالم كله وأضحى قصر المنيرة بفضله مكان لقاءات دولية .

وبعد أن ترك مكانه لشارل كوينتز فى عام ١٩٤٠ استمر فى مصر ، فقد اقترح عليه المصريون شغل وظيفة أستاذ كرسى التاريخ بالجامعة فى الجيزة ، حيث استمر يدرس حتى عشية يوم وفاته . وعندما أصبح ديجول رئيساً مؤقتًا لحكومة الجمهورية الفرنسية فى عام ١٩٤٥ كان جوجيه أول من سانده بالقاهرة ، وطالب بأن يجعله مستشارًا ثقافيًا فى بيروت وأثينا والقاهرة .

أتذكر ذات اليوم ١٨ ديسمبر ١٩٤٨ عندما كتب إلىّ والدى : "هنا حماك تسلم لتوه ميدالية المقاومة ، وكان هذا غريبًا لأن هذه الجائزة لا يحرزها إلا المحاربون وليس أشخاصًا مثله ، لكنه كرس كل جهده ووقته لقضية تحرير فرنسا ومن ثم استحق هذا الشرف ، وهذا هو رأينا ورأى من حوله كلهم".

عند خروجنا من حجرة وفاة بيير جوجيه الذى توفى منذ لحظات بعد إصابته بسرطان عن عمر يناهز الثمانين عامًا ، وصديقه جاستون ويت تمتم قائلاً : "كان أكثر من طيب وكان لامعًا" ، وهذه كلمات لا ننساها أبدًا ، وكان ذلك فى عام ١٩٤٩ . ميمى تأثرت جدًا بوفاة والدها وبالرسائل التى وصلتها من العالم أجمع تنعى "الرجل ذا الروح العظيم ، الطيب والمضايف ، الذى يتسامح دومًا أمام ضعف الآخرين ، ولا يتهاون مع نفسه إذا ما أخطأ ، خدم بشكل رائع قضية الإنسانية والعلم" . لقد جاء المئات لكى يودعوا جثمانه المسجى ، جثمان عالم الهللينستيات الكبير ، عضو أكاديمية النقوش والفنون الجميلة ، لم يتردد فى المطالبة مثل

جاكلين دو روميلى اليوم "سيتأخر العالم وسيفقد ذاته إذا ما أدار ظهره لليونان" .

أحب حماى مصر حقًا ، حتى وإن اعترف أحيانًا أن هذا البلد سيأتى علينا ، فقد كان على قناعة بأنه يجب أن يُدرس ويُمحص فى ضوء الإنسانية ، وهو فى ذلك يسير على درب جاستون ماسبيرو فى التكريم الذى قدم لعالم المصريات ألكسندر موريه ، كتب : "لقد أحب موريه حقًا هذا البلد العتيق ، وواصل بشكل عجيب معاركه البطولية ليستنقذ من بين طيات الرمال العادات الأولى والتقاليد وأسس أخلاقًا إنسانية حقًا ، والتى أصبحت أخلاقًا عالمية ، ولم يكن مستبعدًا الاعتقاد بأن أرض أوزريس هى أصل كل الشرق ، ولم يكن مخطئًا فى الاعتقاد بأنه لا يوجد شعب أثر على أفكارنا الدينية والأخلاقية بشكل باق حتى أيامنا هذه مثل هذا الشعب" .

وعلى العكس من والدها ، عندما قابلتها ، لم تكن تحب مصر ، وكانت تنتظر لحظة عودتها لفرنسا ، ولكنها أخذت فى هذا الجو وأصبحت فتاة انطوائية ومتوحشة وتكره الاجتماعيات . ويوم زيارتى الأولى للمنيرة ، أخذنى جوجيه وهى بعد مقابلتنا فى أحد الصالونات ليقدمنى لزوجته ، بلانش سيدة وقورة للغاية ، ويقدمنى لابنتيه كذلك ، مارجريت وإليزابث التى كانت فى الثانية عشر من عمرها ، واستقبلونى برقة ولطف كبيرين . وكنت أحس بالخجل من نظراتهم ، ومن بعدها عائلة جوجيه ، وقد دعتنى بانتظام لزيارتهم فى المنيرة . ومن وقت لآخر كنت أصطحب ميمى لنلعب

التنس معًا ، رياضة كنت متفوقًا فيها ، وجذبتى هذه الفتاة بسحرها وذكائها الحاد ، تعرف كيف تكون طريفة بلا حدود ، ولها روح حية متدفقة رغم سنها ، ذلك كله قهرنى ولم أستطع المقاومة . خلال صيف عام ١٩٢٨ ، عدنا جميعًا إلى فرنسا ، ولم أرها إلا فى الخريف بمناسبة زيارة قامت بها مع والدها لموقع زوسر وكانت هذه أول مرة تخرج من القاهرة وكانت صدمة لها أن ترى الصحراء ، والمفاجأة أن تقع فى غرام هذه الصحراء . حتى عندما قبلت أن تتزوجنى ، لم أكن أدرى أذلك راجع لحبها لى أم لغرامها بسقارة ، وعلى كل حال فقد أحبت أن تشاركنى عالمًا من التجرد والعزلة . وشَعُرتْ أنها أمام طبيعة باهرة كأنها طبيعة إنجيلية ، وتسبح فى مناخ من السلام الداخلى ، وهذه أشياء تجد لديها صدى كبيرًا .

كانت ناعمة وإمبراطورة فى الوقت نفسه ، ميمى بالنسبة لى مصدر للطاقة ، لم تشعر بالضيق إطلاقًا من عملى ، حتى عندما افترقنا كانت تبعث لى بطاقة من بعيد "نحب الآخر للبهجة التى نحسها عندما نعطى" ، قالت هذا عندما سألتها كيف تحملت هذه الحياة . وعندما استقرت فى سقارة غيرت فى البيت الذى وجدته قبيحًا جدًا من الخارج ، دهنت النوافذ لتصبح أكثر بهجة ، وابتاعت نحاسًا وأشياء جميلة أخرى ، واقتنت قطع موبيليا من بعثة شيكاغو الموجودة فى منف ، ولكنها رغم ذلك ، شعرت بالملل بعد عدة أشهر فلم تملأ القراءة أوقات فراغها ، فأخذت تتنزه فى الصحراء بعد الظهر من كل يوم رغم الحر والشمس ،

"أجد سعادة لا محدودة فى التنزه فى هذه المساحة الشاسعة ، هنا حيث لا حركة ولا صوت ، أتوغل فى الصحراء إلى حيث ينقطع الأثر على الأرض ، وهذا رائع جداً أن تكون بين السماء والرمال ، حيث لا شىء آخر ، لا شجر ولا نبات ولا طائر ، لا شىء ولا إنسان ، أن تكون وحدك مع الله" . وتحت إلحاح الرغبة فى قتل الوقت ، كانت لديها قناعة أن تعمل شيئًا ما ليعيد التوازن المفقود . وجاءها الحل من صديق كنا معه نأخذ الشاى يومًا ما عند جروبى "لماذا لا تبتدئين فى التجليد ؟" هكذا اقترح عليها ، وأمضت عدة أعوام فى باريس تتابع محاضرات فى هذا المجال بكل الحب .

وقررت بحزم أن تتابع هذا النشاط فى سقارة واشترت قبل الرحيل لمصر المواد اللازمة كلها ، وعندما وصلت استقرت فى الأتيلييه الذى شيدته من أجلها قبل زواجنا بفترة قصيرة . وبدأت فى تجليد أكوام الكتب المكدسة فى المنزل ، أنقذها هذا العمل من وجود - مع طول الوقت - لن تستطيع تحمله . وعندما أصبح عندنا ثلاثة أطفال استطعنا رغم عدم وجود المال الكثير أن يكون لدينا عدة خدم ومرضعة للأطفال ، الأمر الذى وفَّر الوقت لزوجتى لتتابع عملها فى الكتب . ثم كانت الحرب التى وضعت نهاية لهذا النشاط الذى استغرقها . بعد العودة لمصر بعد ستة أعوام من الغياب ، لم تعد ميمى نفس السيدة ، فقد قتلتها الحرب وكانت كأم قلقة جداً على أطفالها ، واضطربت بخصوص المصير الذى ينتظر اليهود ، وكم من صديق لم تستطع مساعدته رغم الظروف البائسة

التى يواجهونها ، "أعوام من اليأس القاتل حلت بنا أثناء سنوات الحرب" ، فكانت فترة درامية بالنسبة لى ، فقد وضعت نهاية أبدية لحقبة من حياتى التى لم تعد بعدها كما كانت قبلها ، وهكذا اقتنعت" .

ومع ذلك لم يتغير شىء فى سقارة ، وجدت الهدوء وهذا الضوء المشرق الذى يتسلل ليوقظها مع إشراقة الصباح ، لكنها هى التى تغيرت ، آمالها لم تعد كما كانت ، وتأمل الصحراء لم يعد كافيًا بالنسبة لها ، وهى التى طالما عشقت سقارة ، لكنها لم تستطع استعادة مشاعرها السابقة . من جانبى ، كنت منهمكًا فى إعادة تشييد آثار زوسر ، فكنت أعمل بلا توقف ، خلال ستة أعوام عشت وأنا أفكر أننى قد لا أستطيع العودة . صيف عام ١٩٤٦ كان الصيف الأول والوحيد الذى قضيناه فى مصر فالسفر لفرنسا ذهابًا وإيابًا يكلفنا الكثير جداً . ذهبنا إلى الإسكندرية فى إجازة جميلة جدًا بوصفها أجمل إجازة قضيناها معًا ، ترك لنا أصدقاء منزلهم على شاطئ البحر فى أمينوبولو وبدون هذه المنحة لم نكن لنستطيع أن نقضى هذا الوقت فى هذا المكان الجميل ، لأن كل شىء أصبح مرتفع التكاليف فى مصر . وكان الصيف التالى عندما اتخذت ميمى قرارها بالعودة نهائيًا إلى فرنسا ، هذا الرحيل الذى تركنى فى اضطراب شديد ، وفى خريف ١٩٤٧ وجدت نفسى وحيدًا فى سقارة ، وحيدًا تمامًا . وكان مؤلمًا جدًا هذا الفراق ، لكن وجودها كان ضروريًا بالنسبة للأطفال حيث أصبحت دراستهم فى القاهرة مستحيلة لاضطراب كل شىء ، وأخذت زوجتى على عاتقها مهمة

تربية الأولاد بمفردها . ومن جانبى بقيت أعيش فى عزلة تزداد وحشتها يومًا بعد يوم ، مقطوع الصلة بأصولى العائلية فى مواجهة العمل الضخم الذى كان علىّ أن أنجزه .

ورتبت ميمى إقامتها فى فرنسا بدون شكوى ، بعد الحياة الجميلة التى قضتها فى الصحراء ، وكما تقول هى نفسها ؛ لم تعد ترغب فى رؤية سقارة مرة أخرى .

سيسيل فيرث

بدأت معرفتى أخيراً بسيسيل فيرث فى ديسمبر ١٩٢٦ ، عندما جاء لتحيتى فور وصولى إلى هذه الصحراء التى سوف تغادرها زوجى بعد عشرين عاماً من الآن . فى باريس لم أعتد إلا سكنًا برجوازيًا مريحًا ، وكنت أجهل أن الإنسان يمكن أن يشعر بالسعادة فى حجرة صغيرة ذات سرير مفرد وقاعدة تُستخدم حماماً ومنضدة متواضعة للعمل . منذ عدة سنوات أبدى جون لوكلان الذى استقر معى فى سقارة عام ١٩٦٣ هذا الانطباع : "لقد عشت متقشفًا ، ولكن أن أعيش متقشفًا على طريقة لوير هذا لم يحدث لى أبدًا" . كنا نموت من البرد شتاءً ، فقد كنا مجبرين على العمل مساء ملتفين فى معاطفنا ، وفى الصيف ، كنا نموت من العطش لأنه لم يكون يوجد أى ماء بارد مثلج نشربه .

ودعيت لقضاء نويل عند هذا الإنجليزى الطريف للغاية ، شدتنى منه الشخصية غير العادية منذ مقابلتنا الأولى ، قوى الصوت ، كريم كرمًا بلا حدود ، ولحسن حظى أنه كان يتحدث الفرنسية بإتقان ، وكان ذلك فى الوقت نفسه حظًا سيئًا لى ، لأننى بهذا لن أحرز تقدمًا فى لغتى الإنجليزية ، وكان هذا أول عيد رأس السنة أحتفل به بعيداً عن أسرتى ، وقضيته فى مناخ بهيج جداً . فلقد أعدت مدام فيرث عشاء على الطريقة

الإنجليزية ، وأن تتزود بالطعام والشراب بهذا الشكل فى الصحراء لم يكن بالشىء الهين ، للحصول على أشياء طازجة عليك الانتظار ليوم السوق الذى يكون فى الأسبوع مرة واحدة فى القرية ، أول شىء رأيته وسط المائدة هو حلوى نويل ، وانفجر فيرث فى الضحك وهو يخبطنى على ظهرى خبطة مداعبة وودة ، وأسرع لطمأنتى وهو يناولنى طبقًا من ذلك الذى تبدى لعينىَّ خليطًا لا معنى له ، وقال لى بلهجته الفرنسية إنه التقليد البريطانى الخالص ، وهو إعداد هذا الطعام الغالى عند الإنجليز ، مباشرة بعد نويل "ترتدى قبعة عتيقة عالية وتصب خمراً معتقًا ثم مشروبات متنوعة ، ثم لا يعود لديك سوى إضافة كل ما يتبقى من طعامك حتى نويل التالى ، وهكذا يا عزيزى . عليك أن تتصرف لكى تحصل على حلوى لذيذة جدا !" نادراً جدا ما كنت أجد فيرث بعيداً عن مزاجه المرح هذا، فبدونه كانت الحياة فى سقارة لا تطاق . والإنجليزيان الآخران وهما جن وكويبل ، كانا أقل دفئًا .

منذ الأيام الأولى فى يناير ١٩٢٧ حزمت حقائبى وغادرت سقارة الجنوبية لأستقر على بعد ثلاثة كيلو مترات إلى الشمال بجوار هذا العالم ، وهو الذى أحياه منذ تلك اللحظة وحتى يومنا هذا . عند وصولى بالعربة التى يجرها حصان والتى تحمل متاعى ، كان فيرث ينتظرنى أعلى سلم من الحجر يؤدى إلى المدخل ، وكان فخوراً أن يذكر أنه هو الذى شيد مقر إقامة مهندسه المعمارى ، وكنت متأثرًا جدا أن أتملك هذا المنزل ، والذى يشكل لى – على تواضعه – المكان الذى به أستطيع أن أحيا بشكل مستقل . أمام هذا العالم الذى وضعنى فيه قدرى بشكل

غريب لعدة أشهر ، وكان علىّ ألا أنسى أن تعاقدى مع مصلحة الآثار عندما ينتهى فعلىّ أن أسافر لفرنسا وأواجه وجوداً مختلفاً . المنزل مبنى من الطوب المصنوع من الطين كمنازل الفلاحين المصريين فى الصحراء ، ويمكننا رؤيته ونحن فى الوادى لكن عندما تكون فى أعلى الموقع فلا تراه أبداً . وقد اختار فيرث بنفسه هذا الموقع حتى لا أتعرض لما تعرض له هو من كثرة الزوار غير المرغوب فيهم . داخل المنزل يتكون من حجرتين من الطين المجفف ومطبخ صغير وحجرة للخادم . هذا الخادم أعطته إياى مصلحة الآثار المصرية ويطلق عليه وصف بربرى ، وهو وصف يلحق بالنوبيين الذين يعملون لدى الأوروبيين . محمد ، هذا اسمه الأول ، كان فخوراً أن يرينى أنه يستطيع نطق بعض الكلمات بالفرنسية ، والتى كان قد تعلمها أثناء عمله عند فرنسى آخر بالقاهرة ، وتوطدت علاقتنا سريعًا ، وتركت له أمر المطبخ كلية ، وهذا لاقى قبولاً لديه، ولأننى وحدى فقد كان يقظًا ومخلصًا ومجتهداً .

الضوء يتسلل من نوافذ على ارتفاع منخفض حيث تدخل الشمس بصعوبة ، فالحجرتان كانتا غالبًا مظلمتين وباردتين ، وهناك باب يفتح على الشرفة لنرى هذا المشهد الرائع اللانهائى على النيل والطبيعة ، ولكى أفيد من هذا الأفق الفريد أعددت فيراندا بالشرفة كى أتناول طعامى فى مأوى من الرياح والشمس ، ولم أكن أتخيل فى هذا الوقت أننى سأستقبل على الغذاء الرئيس جاك شيراك . وأصبح لدينا - فيرث وأنا - عادة تبادل الزيارات مساءً لاحتساء كأس وللمناقشة . كان محاميًا سافر إلى مصر يومًا دون أن يدرى أن هذه الرحلة ستغير كل شىء فى مستقبله ،

فقد تقابل مع عالم الآثار الأمريكى جورج رايزنر وكانت مقابلة مصيرية. وتوطدت علاقة الرجلين ، وكان على رايزنر أن يرحل إلى النوبة فى رحلة أثرية لمدة عامين ، واقترح على فيرث أن يصطحبه ، وأخذته هذه المهنة (مهنة الحفائر) ، وظل فيرث بالتالى يعمل بوصفه رجلاً ثابتًا مع رايزنر أثناء عمله فى أهرام الجيزة ، وبعد حصوله على امتياز الحفر فى جزء كبير ومهم بهذه الجبانة فى عام ١٩٠٦ ، بدأ الأثرى الأمريكى فى إزالة الرمال عن المعبد العلوى لهرم منكاورع عند عودته من النوبة شتاء ٩٠٩ - ١٩١٠ ، وكشف عن بقايا المعبد السفلى لهرم منكاورع وطريقه الصاعد ومقصورة ملحقة بهرم صغير لإحدى الملكات .

قبل عودته ذات يوم للقاهرة ، عهد رايزنر بمسئولية هذا الموقع المهم فى هذه الجبانة الكبيرة لزميله الإنجليزى طالبًا منه ألا يدع شخصًا يدخل إلى هذا الموقع . سرعان ما رجع نحو فيرث ، فقد وجد نفسه فجأة قد اقترح على الحلاق أن يأتى ليزور الموقع ، ومن الواجب استقباله ، ووافق فيرث ثم ذهب للعمل ، وبعد عدة ساعات أتت مجموعة صغيرة على حدود الموقع طالبين الدخول ، ومن بعيد صرخ فيرث أن هذا مرفوض ، ومع ذلك ، وبعد خمس دقائق تذكر كلام رايزنر فأسرع نحوهم وهو يصرخ : "الحلاق ! الحلاق! تعالوا" ولكن هؤلاء رجعوا كلهم وهم غاضبون . غداة اليوم التالى وصل ممثل المفوضية الألمانية بالقاهرة إلى الموقع طالبًا مقابلة رايزنر ، قائلاً : "لا أدرى من يكون هذا الشخص غير المهذب الذى يعمل معكم ، بالأمس ،

أمير منطقة إل "L" بصحبة الوزير المفوض ، جاءا لزيارة موقعكم ، ولم يرد فقط منعهم من الدخول للموقع ، ولكن عاملهم بوصفهم حلاقين!" واستدعى رايزنر فيرث للتو فأجاب "لقد سألت فقط إن كان هو الحلاق الذى كنتم تنتظرونه!" ، ممثل الجانب الألمانى أجاب باحتقار : "بالطبع أنتم أيها الأمريكان غير مؤهلين للتمييز بين شخصية من الطبقة الراقية وحلاق!" فانفجر فيرث فى الضحك ، "هذا غير مدهش ، لأنكم وأنتم الدبلوماسيون لا يمكنكم التمييز بين الإنجليزى والأمريكانى ! لكن هذا الأمر سبب حرجًا دبلوماسيًا حقيقًا ، وكان على فيرث أن يذهب ليقدم اعتذاره لأمير إل L . لم يكن رايزنر عالم لغة ضليع ولكنه كان أثريًا من الطراز الأول وبفضله تعلم فيرث الكثير ، وكان عندى الحظ أن أتعرف عليه ، وكان دقيقًا جدًا بمعنى الكلمة ، تعرفت على اللهجة الأمريكية فى الإنجليزية بالإضافة للإنجليزية التى يتحدثها فيرث ، بعد هذا التكوين القوى ، عين فيرث فى عام ١٩١٤ فى سقارة ليحل محل مواطنه كويبل ، حيث تقابل مع من ستكون زوجه الآنسة هانسارد ، فتاة إنجليزية جاءت لنسخ النقوش الموجودة فى مقابر الدولة القديمة ، لقد تزوجا بعد ذلك بعدة أشهر وسرعان ما أنجبا ابنة ، كانت من أصول أرستقراطية وكانت تتمتع بتميز كبير وترسم بشكل متقن تمامًا ، وكان لدينا نفس الغرام بالرسم بالألوان المائية، ولطالما رسمت خلال السنوات الأولى لى فى مصر ، وكنا نقارن رسوماتنا أنا ومدام فيرث ، ويحكم بيننا فيرث المتحمس الذى لم يبخل علينا بمجاملة أو تشجيع .

منزل السعادة

فى كل مرة آتى فيها لأسكن هذا المنزل البهيج بضلفته الكوبالتية الزرقاء ، أتذكر منذ سنوات عندما ارتحلنا جميعًا ؛ الأسرة كلها ، معنا متاعنا وأطفالنا والمرضعة والخدم ووصلنا أعلى سلم منحدر من الحجر ، وكنا سعداء أن نجد أنفسنا فى هذا العالم الهادئ والعظيم الذى أحببناه تمامًا .

اتسع المنزل بالتدريج من حجرتين فقط ، إلى زيادة أتيلييه ميمى ثم حجرات الأطفال وحجرة المرضعة . ذات يوم قال لى فيرث وهو يضحك : "لو استمر هذا التوسع ، ستصل قريبًا عندى" ، فمنزله على بعد كيلو متر من منزلى ، هذه التوسعات المتتالية لم تجعل المنزل أكثر راحة بدون ماء وبدون كهرباء ، اعتمدت حياتنا اليومية على الاجتهاد والتليفون الذى أدخله عندنا والد زوجتى عام ١٩٣١ عند ميلاد طفلنا الأول ، كان هذا التليفون هو شارة الرفاهية الوحيدة لدينا ، وحصلنا على رقم (١)، ولعمل مكالمة لابد أن نطلب سنترال البدرشين ، وتنشأ المشكلة بعد الثامنة مساء ، إذ يعود موظف السنترال إلى بيته لننقطع عن العالم ، وعالجت ميمى هذا الأمر عندما طلبت من الموظف بالسنترال أن يوصل خطنا

مساء على خط إحدى صديقاتنا، التى تسكن على بعد أربعة كيلو مترات أسفل الوادى بالحوامدية ، وفجأة أمضت سهرات كاملة تثرثر فى التليفون وانقطع خطنا فترة الحرب ولم يعد إلينا ثانية . كانت هناك فترة قبل طوفان التليفون المحمول ، فكان من المستحيل أن نتصل بسقارة ، فى نهاية القرن العشرين كنا منعزلين تماماً كما كان الأمر كذلك فى عام ١٩٢٦ ، وعندما كنت أود محادثة ميمى فى باريس كان علىّ أن أرتحل للقاهرة ، وأشترى بطاقة تليفون ، والتى تقطع المحادثة بشكل منتظم عدة مرات لدرجة مزعجة . والآن بالتليفون المحمول تستطيع زوجتى أن تحادثنى متى شاءت ، وفى أى وقت ، الأمر الذى طمأنها طمأننى وكذلك .

أمضى أطفالنا الثلاثة فترة من حياتهم فى مصر ، وظللت معهم فقد أمضوا طفولتهم فى الصحراء ، وسط الأطلال وفى مواجهة الأهرام ، وسكون الأماكن وغموض الآثار ، ونمط الحياة الغريب فى منزل تعوزه الضروريات ؛ جعل من حياتهم اليومية مسرحًا عظيماً ، ووجدوا صعوبة عندما حانت ساعة رحيلهم إلى باريس ، لطالما سمعت ابنتنا فلورنس تقول إن الهرم المدرج أختها الكبرى ، وأن منزل سقارة أجمل منزل فى الدنيا ، كان هذا واقع ما عشناه معًا هنا ، فلورنس هذه البنت الصغيرة الجميلة جداً أصبحت سيدة جميلة جداً وتوفت عام ١٩٩٦ ، ورحلت فجأة حتى دونما أن نملك أن نقول لها كلمة وداع ... فلقد وصلت متأخراً جدا .

قبل ميلادهم ، كنا ، ميمى وأنا ، سعداء جدا فى هذا المكان الإسبرطى بمنزلنا هذا المبنى من الآجر ، وبوجود الأطفال أضحى هذا السكن

البوهيمى غير ممكن ، وحتى هذا الوقت كان الماء يصلنا محمولاً على ظهر الجمال ويتعهده مراد المتعهد بنقله فى خزان به ما لا يقل عن ٢٨٠ لترًا من الماء ، وكنا نرشح الماء بجهاز ترشيح ماء باستير اشتريناه من فرنسا لهذا الغرض ، وكان علينا أن نصبر ؛ لأن ترشيح الماء بهذه الطريقة يستغرق وقتًا وتبدلت حياتنا عندما وصلنا الماء الجارى ، واستبدلوا بالخزان آخر أضخم سعة ٤٠٠ لتر ، وكان واصلاً إلى بئر ، ويقوم على ملئه اثنان من رجال المطافئ ، وتستغرق عملية ملئه ساعات .

ولأننا لم تكن لدينا ثلاجة ، فقد كانت قضية حفظ الطعام تمثل لنا مشكلة حقيقية ، لحسن الحظ فى مصر توجد طريقة قديمة جداً وفعالة وهى الزير ، وهو آنية كبيرة من الفخار ، يوضع على حامل من ثلاثة أرجل من الحديد لتجعله بعيداً عن الأرض ، نملأه حتى منتصفه بالماء ، ثم نضع الطعام على سطح الماء فى شبكة ، ثم نغطى الجميع بغطاء من الخشب ، وبهذه الطريقة استطعنا الحفاظ على الطعام لأيام عديدة ونقطة أخرى طريفة ، فى هذا الصدد ، فبعد مرور الوقت يبدأ الماء فى المرور من الآنية الفخارية ببطء ، ويسقط فى آنية توضع فى أسفله ، ويجمعها محمد فى أبريق يضعه على حوامل من الفخار تتزن عن طريق الرياح التى تحفظ للماء برودته" ، وهذه الطريقة الفنية معروفة منذ عصور مصر القديمة .

حذَّر والد زوجتى الذى ترعبه الثعابين الموجودة فى الأرض الطينية والعقارب المختبئة فى الجحور من أنَّ البلاط يجعلها تظهر فى كل مكان. وانتهى كذلك عصر سُرُج البترول "الجاز" التى تشكل خطراً على الصغار ،

بإدخال الكهرباء التى تعمل حتى منتصف الليل ، وانتهى كذلك موقد الجمر الذى يدفئ المنزل شتاءً ، وبدأ عصر المدفأة التى تعمل بالبترول وهى أكثر أمانًا . ومنذ ذلك الحين أصبح وجودنا اليومى أكثر تنظيماً ، وفى هذا العصر كنا نعطى العمال يوم الأربعاء إجازة ؛ لأن هذا اليوم كان يوم السوق فى قرية البدرشين . يعد محمد حمارته فى الصباح الباكر ويفرش على جانبيها قفتين كبيرتين قبل أن يمتطى ظهر الحيوان ، ثم يرحل ليعود بعد عدة ساعات والقفف مليئة بالمعايش من المؤن ، وتجبره هذه الأحمال على الاتزان على ظهر الحمارة التى تسير هذه المرة ببطء. واستفدنا منه ذاك اليوم فى الذهاب للقاهرة ليعمل المشتريات للأسبوع كله ويملأ الثلاجة الخاصة باللحوم التى نشتريها ليجلب السوق ، ونحن نأكل بعض هذه اللحوم ونرمى الباقى الذى سرعان ما يفسد ، وباقى الأسبوع نأكل الدجاج والحمام المنزلى ، وكان لدينا الفاكهة والخضروات بكثرة ولبن الجاموس للأطفال ، أما الخبز فيذهب محمد ليأتى به من عند زوجة الريس فى سقارة وهى تعد خبزاً لذيذاً ، لم آكل مثله إلا نادراً فى حياتى ، ولأسباب دينية أصبح يوم الجمعة إجازة وكان علينا أن نختار يومًا آخر للذهاب للقاهرة لعمل مشترياتنا ، لأن الإدارات والمحال تغلق أبوابها فى هذا اليوم .

نستقبل العائلة يوم الأحد ، والد الزوجة تغشاه السعادة عندما يرى الموقع ويرى الأشخاص قريبين منه ، وذات يوم اصطحب إدوارد هريوت ، أصدقاء منذ زمن طويل ، فقد كانوا زملاء فى المدرسة العادية العليا ،

وفى يوم حار جاءا لزيارة سقارة ، هريوت يدون ملاحظاته بدقة ، أحب رؤية كل شيء ، لكنه كان بدينًا جدا ؛ ولذلك سرعان ما اعتراه التعب ، وتوقفنا بجوار جدار لنتيح له الفرصة كي يلتقط أنفاسه ، ووجدناه متخففًا من ملابسه ، ويضع مذكراته على بطنه كى لا يشعر سريعًا بالتعب . وعندما يأتى ابناى الصغيران الأشقران يثيران فضول الأطفال المصريين فى البداية ، لكن سرعان ما ينتهى الفضول ويبقى الجميع يلعبون معًا . بيير ودانييل يأتون غالبًا لرؤيتى فى الموقع لكى يلعبوا بـ "حجارة بابا"، وفيما بعد أصبح موقع العمال ساحة لعبهم! ومع أختهم يلعبون الاستغماية فى السرابيوم ، والقطة الشقية على قواعد الأعمدة المحطمة ، والجرى على الكنوز فى المقابر ، وعندما يأتى بنات بيير لاكو ، يلعبون مع أولادى جميعًا عند حافة المنحدر ، ويلهون بمومياوات القطط التى يجدونها فى كهوف صغيرة مفتوحة ، وكنت أخاف كثيراً عند اختفائهم فننادى عليهم كثيراً ، ولا يظهرون إلا عندما يعترينى الغضب . فى هذه الصحراء الموحشة لم يشعروا إلا بالحرية ، حرية أن يكونوا كما يريدون هنا .

كنا محظوظين هنا لاستقبال مربية جديدة واسمها فاليريا ، سيدة فى السادسة والثلاثين من العمر وجذابة جداً ، وأهم مهاراتها هى أنها تعرف كيف تسيطر على الأطفال ، وهى مؤهلة لتكون مربية بالمعهد السويسرى بالقاهرة ، بروتستانتية ، مؤمنة وممارسة لعقيدتها ، وقامت بتدريس الدين لبيير ودانييل ، وفيما بعد لفلورنس ، وكانت بالنسبة لميمى

نعمة حقيقة من السماء ، مثل زوجتى لم تكن تحب إلا الهدوء والوحدة والأطفال ، فلقد جاءت لخدمتنا لأننا نسكن الصحراء وهو السبب نفسه الذى جعل الأخريات يلذن بالهروب "لا أجد فى الصحراء إلا الله" هكذا اعترفت ذات يوم لميمى . كانت المتعة الكبيرة التى يمكننا تقديمها لأطفالنا هى أن نبعث بهم إلى عائلة بروير فى دير المدينة على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة الأقصر برنارد بروير عالم مصريات لامع ويعمل بلا كلٍّ ، اكتشف فى عام ١٩٢٤ فى موقع الدولة الحديثة الذى كان فى هذا الوقت أكبر مواقع المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، العديد من المقابر التى لم تمتد إليها يد ، إحداها كانت تحوى مومياوتين سليمتين ، وأثاثًا جنائزيًا رائعًا ، كان بروير عزبًا ومحنكًا ، تزوج فى سن متأخرة من فرانسواز دمارتر ابنة عم ألمانية لميمى ، عاش الاثنان فى مقاصير المقابر المدفونة فى الصخر وهيئوها لاحتياجات البعثة إلى أماكن للسكنى ، وجمعوا فيما بينها بشرفة طويلة ، كانت أرق حالاً من سكن سقارة ، لكن من الشرفة تطل على منظر رائع فترى من بعيد معابد الرامسيوم ومدينة هابو ، ومن خلفهم النيل .

فى خريف ١٩٢٢ ، استقبل بروير هوارد كارتر ، جاره فى وادى الملوك ، وكان كارتر يائسًا ، وراعيه ماليًا كارنفارفون ، الذى أنفق على الحفائر التى استمرت لمدة عشر سنوات بحثًا عن مقبرة ملك صغير يعرف باسم توت عنخ آمون ، قرر أن يتوقف عن المتابعة ، نصحه بروير ألا ييأس وأن يستفيد من هذا الموسم الأخير لمتابعة أبحاثه فى وادٍ قطعه بحثًا منذ سنوات ، بروير الذى كان يزوره غالبًا ، لاحظ أنه ترك

مكانًا فقط ، ذلك الذى تغطيه منازل فنّانى الجبانة والمشيدة من الدولة الحديثة . كارتر استسلم لفكرة عدم المساس بها خشية أن يسد مدخل مقبرة رمسيس السادس المجاورة تمامًا ومع ذلك استمع لنصيحة زميله ، وقد كان، وظهر تحت أنقاض هذه المنازل بداية السلم الذى يؤدى لمدخل المقبرة . بالنسبة لأطفالنا ، كانت الإجازة عند عائلة بروير تمثل لحظات رائعة فى حياتهم ، وقد اصطحبهم خالهم لرؤية الملك توت عنخ آمون كما نتنزه نحن فى حدائق لوكسمبورج ، أن ينزلوا إلى داخل المقابر كان بالنسبة لهم شيئًا عاديًا جدًا ، فلورنس تحب خالتها جدًا التى كانت تلبسها مثل المرأة المصرية وتغطى رأسها بالحجاب لكى تصحبها معها لزيارة السيدات التى تعتنى بهن ، أرادت فرانسواز بالاستقرار مع زوجها فى دير المدينة أن تكون مفيدة ، ولما شعرت أنها لا تستطيع أن تشارك فى الحفائر أعدت نفسها بوصفها ممرضة لعمال الموقع ، وجهزت مستوصفًا بسيطًا فى مقبرة ، وسرعان ما هرع إليها كل السكان فى الأماكن المجاورة لكى يتلقوا علاجًا لديها ، تقابل كل يوم مرضى لا يفهمون الفرنسية ، تعلمت العربية التى سرعان ما تحدثتها بشكل متقن ، هذه السيدة التى لا تستطيع أن تعيش إلا فى طى النسيان حتى من نفسها ، قدمت مساعدة هائلة أثناء سنوات حياتها التى قضتها فى مصر العليا لكثير من السكان الفقراء تمامًا .

لم يهتم أحد من أبنائى فيما بعد بمصر ، هذه البلد التى كانت لوقت طويل موضوعًا مقدسًا ، لم يعد لها بيير إلا مرتين ، الأخيرة جاء لسقارة على دراجة ، كان على رأس فريق يعمل جولة فى الواحات ،

وبعد أن تركنى رحل عبر الصحراء وتعرض لعاصفة رملية شديدة ، ولحماية نفسه ظل لمدة يومين منزويًا خلف عربات سكك حديدية قديمة لمدة يومين ، ولحسن الحظ كان لديه مؤن ، أما دانييل فلم يعد لمصر إلا العام الأخير وكان سعيداً أن يجد صورة طفولته ، وكذلك الشمس وجمال الأحجار ، واجه أبنائى صعاباً فى إنهاء دراساتهم بعد أن أحدثت الحرب لديهم خللاً كبيراً ، عانوا كثيراً من سوء التغذية ، الأمر الذى ترك بعض العواقب لدى دانييل ، ولكنه شفى منها لحسن الحظ ، وكان لديهم شخصيات صعبة . فى القاهرة ، ولما كان لا يوجد أحد لمتابعتهم كانوا يتركون محاضرات مدرسة الآباء الدومينيكان ، لكى يذهبوا إلى حمام سباحة نادى سبورتنج ، وأصبحوا أبطالاً فى السباحة ! ولم أكن أنا كذلك أبًا مثاليًا ، فابنتى تلقبنى بـ "الملك لوير ، الإله الغائب" وكانت تعتقد فى طفولتها أننى أعيش فى هذه الدنيا لعمل قطائر من الرمل ، وفيما بعد كانت تلومنى لعدم رؤيتى إلا من ظهرى عندما أذهب للموقع ، كانوا يريدون منى أن أجعل "الهرم" يمر من أمامهم ، وبعد عودتهم لفرنسا فى عام ١٩٤٧ لم أعد أراهم سوى أربعة أشهر فى العام ، ولم تكن هذه مدة كافية لأبثهم عطفى وحنانى الذى حرموا منهم باقى العام ، وفى كل مرة أعود فيها لمصر أشعر أن كلاً منهم يعانى بشدة ، كنت بالنسبة لفلورنس الرجل الذى يشكل عالمًا سحريًا لا تستطيع إليه سبيلاً ، فقد ظلت باقى عمرها تخلق جواً شرقيًا من حولها ، زخرفة المنزل والأرائك والمفارش المطرزة وأغطية تخفف من الضوء وأسرة ذات ناموسية .

كنت "تانتان فى مصر" بالنسبة لأطفالى الثلاثة ، شخصية الرسوم المتحركة التى كانت تحيرهم والآن يحترمونها ، أشعر بسعادة ، منذ بضع سنين ، فى قضاء الشتاء فى سقارة مع حفيدتى كولومب ، فارسة ممتازة ، تذرع الصحراء بسرعة ، وأنظر إليها من خلف الهضاب بإعجاب وتذكرنى بأيام أن كنت أقوم بالشىء نفسه على ظهور خيل فيرث . وعلى الرغم من أن أطفالى كان عندهم حق فى رغبتهم فى رؤيتى بجوارهم ، ولكننى أعتقد أنهم فخورون بى ، فخورون بالإنجاز الكبير الذى تحقق فى سقارة .

الحيرة الكبيرة

كان الثانى من يناير ١٩٢٧ أول يوم لى فى العمل فى المجموعة الجنائزية للملك زوسر فى سقارة ، أراد فيرث أن آخذ وقتى لكى أستقر قبل أن يصطحبنى لاستكشاف الموقع الذى يعمل به منذ عامين ، بعد أن عمل لسنوات عديدة فى المجموعة الجنائزية للملك تتى ، صرف اهتمامه إلى أثر آخر قريب ، وهو الهرم المدرج حيث يوجد تلان واقعان إلى الشمال الشرقى من هذا الأثر ، أثارا فضوله منذ وقت طويل . ففى شتاء عام ١٩٢٤ طلب من مدير مصلحة الآثار بيير لاكو التصريح بعمل حفائر فى هذا المكان .

وفى نهاية القرن التاسع عشر كشف جاك دو مورجان عن وجود سور فاصل ما بين الجبانة والصحراء المحيطة ، سور مستطيل الشكل مدفون فى الرمال ولكن تتبدى أجزاء منه ، وبعد عدة أبحاث توصل إلى أن هذا السور مبنى فى الأسرة الثالثة وتساءل : "ماذا عساه يحتوى هذا المسطح المحاط بعناية بهذا السور؟ " ، وبتتبعه لخريطة الجبانة أشار لهذين التلين على أنهما بقايا أهرام ملكات ، وأعطت هذه المعطيات قوة لفيرث ، ولكى يستطيع أن يستمر فلابد من إزالة الرمال من موقع

هذين التلين ، وما كان مدهشًا ، أنه مع استمرار إزاحة الرمال ظهر بدلاً من بقايا أهرام صغيرة ، مداميك سفلية من واجهة جميلة مزدانة بأعمدة مقناة ليس لها قاعدة ، ومقطوعة من الحجر الجيرى المجلوب من طرة على الضفة الأخرى من نهر النيل .

وعندما وصلت الموقع ، أدهشنى المشهد؛ أولاً عمال ، رجال كثيرون وأطفال بجلابيب ينقلون أطنانًا من الرمال بالقفف التى يضعونها على رؤوسهم ، والنشاط المحموم فى كل مكان ، وهذا الإيقاع هو ما أمر به فيرث رغم بدانته ، فقد كان يزن قريبًا من مائة كيلو جرام ، لكن هذا الرجل يشع طاقة وحيوية ، ثم قادنى إلى المقر الأبدى للملكات ، فقد كان يريد معرفة رأيى فى هذه المبانى وأعمدتها التى تذكرنا بالأعمدة الدورية اليونانية ، والتى ربما ترجع للعصر البطلمى ، ولكن الجرافيت الهيراطيقى الذى تركه الزائرون على بهو المدخل يرجع للدولة الحديثة ، الأمر الذى قلب تمامًا افتراضاتنا الأولية . وطلب إلى شريكه باتيسكومب جن أن يترجمها ، وفى هذه النصوص يظهر لأول مرة اسم زوسر ، ومما لا شك فيه أن هذه الأعمدة تعود لما قبل العصور اليونانية ، وكل شىء يشير إلى أنها من عصر الملك زوسر ، أى نهاية القرن الثامن والعشرين قبل عصرنا الحاضر ، وشرح لى فيرث كم حيره هذا الكشف وذلك لسببين : الأول وجود أعمدة ذات سمات دورية قبل العصر اليونانى بأكثر من ألفين ، والثانى المبانى نفسها المشيدة بأحجار ذات حجم صغير ، وأنذاك العمارة المصرية الحجرية كانت فى بداياتها ، وربما كان الأنسب البدء بأحجار ضخمة .

وبمواصلة الحفائر ، تنقل فيرث من دهشة لأخرى ، وقد حدث عند إزالة عماله للرمال من حول الهرم أن عثر على تمثال صغير من الحجر الجيرى الملون للملك زوسر جالسًا ، ويوجد الآن فى حجرة صغيرة ، وهى التى نطلق عليها "السرداب" . واصطحبنى إلى مكان وجود هذا السرداب ، ويقع بارزًا بجوار الهرم شمالاً إلى الشرق ، ويغطيه سقف من الخشب ، وحكى لى فيرث قصة هذا الكشف : تعلم أن الأثريين سيأخذون الأمر سريعًا على محمل الجد بمجرد أن يكتشفوا كذا وكذا ، مع أن الأمر فى الأغلب يأتى هكذا مصادفة . يومًا ما كان علىَّ أن أذهب للقاهرة ، ولم أكن أعلم بماذا أشغل عمالى ، فأمرتهم أن يزيلوا تلاً من الرمال على حدود المعبد الشمالى حتى يظهر كساء الهرم ، وعندما عدت فى مساء اليوم نفسه سمعت من يصرخ من بعيد : "وجدنا الملك! لقد وجدنا الملك!" تخيل لو أننى كنت ماكرًا...! .

وعندما صعدنا على أكداس الرمال وقفت مندهشًا أمام هذا التمثال المدهش فى مكانه ، وأُفرغت العينان من التطعيم ، وشوه الأنف ليعطى الوجه شكلاً أكثر صرامة ، يرتدى النِّمس موضوعًا فوق باروكة شائعة ، ويلبس زوسر رداء أبيض ، محبوكًا يشبه ذلك الذى يرتديه الملك فى احتفالات عيد "السد" ، وهو عيد اليوبيل الكبير . منقوش على القاعدة نقشًا خفيفًا اسم الملك وألقابه واسمه الحورى نثرى خت . اسم حورس ، الإله الكبير الحامى للملكية الفرعونية ، كان دومًا فى هذا العصر يسبق اسم الملك ، وعلى بعد عدة أمتار من هنا تتبدى بقايا معبد ملتصق بشمال الهرم ،

وليس إلى الشرق مثل معابد الأهرام المعروفة كلها حتى الآن ، ولقد قمت بعمل نسخة من التمثال ، لكى يذهب الأصل ليستقر فى أمان فى المتحف المصرى فى القاهرة .

فى حملة ١٩٢٥ للحفائر فى سقارة أضحى فيرث أكثر هوسًا وحماسًا لما يستجد من اكتشافات أمام عينيه ، فقد تم تحديد الفناء المستطيل الذى يمتد جنوب شرق الهرم ، وعلى جوانبه بطولها بقايا جدران منخفضة فى ممر متعرج يحدد مدخل مقاصير صغيرة ، وكثير من العناصر المعمارية ، أعمدة وتيجان أعمدة وأعمدة مقناة وكورنيش متناثرة على الرمال . فى موسم حفائر ١٩٢٦ اكتشفت صالة الأعمدة الرائعة التى تحدد المدخل للمجموعة الجنائزية، وأرانى المدخل الحقيقى ، وبعد الممر الضيق وجهنى نحو بقايا عقب باب ذى ضلف مفتوح تمامًا ، وكنت أجد صعوبة فى تفهم لماذا شيد المهندس المصرى أبوابًا وهمية: وأخيرًا وبعد ممر آخر محدد بعقب ومفتوح تمامًا ولكنه بضلفة واحدة ، دلفنا إلى الدهليز الذى يحده صفان من الأعمدة ، كانا يحملان سقفًا ثقيلاً فيما مضى من الحجر ، ومن المدهش أن اكتشف هنا بقايا أربعين عمودًا ، كل واحدٍ منها يتصل عن طريق جدار بجدار الدهليز ، ولم يتبين من هذه الأعمدة إلا قواعدها التى ترتفع بالكاد حوالى المتر ، وكلها كانت كافية لتبرهن على فخامة هذا الدهليز الذى يؤدى إلى صالة ضيقة مستطيلة يحدها ثمانية أعمدة من الطراز نفسه ، وكانت تحمل سقفًا ثقيلاً من الحجر ، ويتصل كل اثنين منها ببعضهما عن طريق جدار يصل فيما بينهما .

فيرث والذى جعلته هذه الاكتشافات يعمل كالمجنون ، لم يحاول أن يتوقف للحظة ليتعامل مع أكداس البقايا التى تخرج يومًا بعد يوم من الحفائر ، المهم بالنسبة لهذا الرجل هو إزالة أطنان من الرمال لإحراز مزيد من الاكتشافات الجديدة .

ووجد العمال الذين يعملون تحت هذا الحماس يومًا على حدود صالة الأعمدة ، أثرًا فريدًا فى هذه المجموعة الجنائزية ، وهو قاعدة تمثال آخر من الحجر الجيرى لزوسر لم يتبق منه إلا قدمان بجوار اسمه حورس نثرى خت ، والهيروغليفى المنقوش يحتوى اسم الوزير الأشهر إيمحوتب ، ونستطيع أن نقرأ :"مستشار الملك لمصر السفلى ، مدير القصر العظيم ، الأمير الوراثى كبير كهنة هليوبوليس ، إيمحوتب ، البناء ، النحات ، مصمم الأوانى من الحجر" . هذا الكشف المهم يجعل من هذه الشخصية غير العادية ، المهندس الذى صمم وشيد أول هرم فى مصر ، والذى لم يوجد من قبل إلا فى عالم الأساطير ، اكتشاف دقيق ومهم ويبقى لليوم الاكتشاف الوحيد بسقارة الذى يحمل بصمة المهندس العبقرى . وفى الأيام الأولى لم أكن أستطيع أن أقدر حجم العمل فى الموقع ، ولم يكن عندى بالتالى فكرة عما أستطيع أن أعمله بهذه الأحجار الكثيرة ، ومع مرور الوقت أخذت أفهم سريعًا .

هرم إيمحوتب

ذات يوم ، عهد إلىَّ فيرث أخيراً بزيارة الهرم من الداخل ، وهى لحظة كنت أنتظرها بفارغ الصبر. أن تصل إلى البئر الرئيسى ليس بالعمل الهين وسط خطر التهدم ، ثم يجب عليك خاصة أن تدلف على أربع داخل دهاليز ضيقة ومنحدرة ؛ لتصل إلى عمق البئر على بعد ثلاثين متراً ، أخذنا الكشافات ويحرسنا العمال ، وأخذنا المنحدر الموجود فى الجانب الشمالى من الهرم ، وبعد متاهات وصلنا إلى الدهاليز الضيقة التى تقود للداخل ، هنا حيث توجد تحت هذا الكوم الهائل من الأحجار مقبرة الملك ، وكان مدهشاً أن أجد فى هذا العمق هذه العمارة الضخمة المعقدة الصاويين ، واسمهم هذا مشتق من اسم مدينة سايس [صا الحجر]، حيث حكم الفرعون أحمس الأسرة السادسة والعشرين وشيد عاصمته ، وأفرغ البئر الرئيسى من الرديم وكان يحوى منه أطناناً ، ولتنفيذ هذا العمل المهلك ، شيد سقفاً من الخشب ووضع حاملين ضخمين يستقر عليهما الكمر واستعمل بكراً رافعاً للأثقال . وهو ما لم يكن معروفاً أيام زوسر ، وأرانى فيرث الدعامة الوحيدة المكسورة والتى تبقت من زمانها ، وبعد أعوام عدة ولما كان سياح يتسللون للدخول إلى "بهو الصاويين" الذى يفتح على الواجهة الجنوبية للهرم ، تسبب هبوب الريح فى سقوط

دعامة إلى داخل البئر ، وهدمت عند سقوطها السدادة الجرانيتية للمقبرة ، وبقى هذا البئر خطرًا لأن أحجاره يمكن أن تتصدع وتسقط فى أى لحظة ، ولسوء الحظ من الصعب مباشرة أعمال ترميم ، ولغرامهم بالعمارة القديمة والهيروغليفية القديمة فقد ترك لنا الصاويون أول دلائل الأعمال الأثرية فى العالم . منذ أعوام لم أعد أدلف إلى داخل الهرم لأنه وببساطة لم تعد هناك أبحاث لنباشرها فى هذا المكان ، ولكن فى ذلك العصر عندما كنت أدرس الأثر كنت أقوم بعدة عمليات دخول وخروج ، وذات يوم وأنا فى الداخل زارنى هنرى بوردو ، كاتب مشهور من فترة ما قبل الحرب أخبرنى فقط بأمر مجيئه عشية يوم زيارته ، وأيضًا غداة اليوم التالى انتظرت وصول الرجل الأكاديمى ، ولكن لما لم يصل بعد مرور ساعة دخلت الهرم ، ولم أكد أبدأ فى العمل حتى جاءنى أحد العمال حاملاً بطاقة زيارة باسم هنرى بوردو ، وبعثت إليه أننى سأخرج بعد قليل ، وبعد دقائق جاءنى عامل آخر مهرولاً يتصبب عرقًا وذيل جلبابه فى فمه ، وفى يده الكارت مخربشًا تمامًا ، فوضعته فى جيبى وخرجت من البئر ، واستغرق هذا بعض الوقت ، وعند خروجى هاجمنى شخص صغير غاضب وأخذ يصرخ : "أيها السيد ، كفى ، أننتظرك لزيارة الموقع ، وكنت مضصرًا أن أقوم بالزيارة وحدى وأقول لك إننى لم أفهم شيئا من حفائركم – نعم أيها السيد! لا تحمل هذه شيئًا مدهشًا" ، أجبته ، تريد أن تقول بذلك إنه لا يوجد شيء غير طبيعى بموقع الحفائر ؟ لكن هنرى بوردو كان – من الواضح – حساسًا للغاية ، أخذ هذه الملاحظة على أنها سبة فاستدار دونما كلمة تحية .

كنت معتاداً الذهاب بانتظام للعمل بالقاهرة بمكتبة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، هذه المكتبة منجم ذهب للباحثين ، واستغرقت عدة أشهر أقرأ كل ما كتب عن الأهرام ، ماذا كتبوا عنها ، ما هى انطباعات الرحالة الأوائل وما الذى استوقفهم ، بيير لوتى كتب عند رؤية هذه الآثار الضخمة تخرج من الرمال : "المثلث هو الشكل الأكثر بساطة وغموضاً فى الهندسة ، والأكثر ثباتاً من الناحية المعمارية" ، وكان محقاً ، لقد شيد المصريون هذه المبانى الفخمة بدقة لتكون من الداخل كأنها قواقع تحوى بداخلها نواة روح المتوفى ، وفهمنا أنها تحوى جسد المتوفى ، ومن هنا يأتى معناها ، وبمظهرها الخارجى الفخم مجدت أهرام مصر مملكة اللامرئى ، اسمه وحده يعنى أفق الرمال والضياء ، بلد العجائب والسحر ، اهتم ملوكها منذ الأصول الأولى بأن يخبئوا مقرهم الفخم للأبدية فى خزائن بلا أرقام .

أى . آى إس . إدواردز ، كان مثلى ، واحداً من أوائل من اهتموا بقضية الأهرام وأعطى تفسيره العلمى : "الذى حدا بالمصريين القدماء أن يكرسوا مجهودات ضخمة وأموالاً لتشييد مقبرة هو التغير الذى طرأ على الجسد لكى يستمر فى الحياة ، وهذا يعتمد على أمرين أساسيين " الحفاظ على الجسد من أى تلف ، وضمان الاحتياجات المادية كتلك الخاصة بالكا ، وهذا الاعتقاد استمر طيلة التاريخ المصرى" . قبل أن نكتب المجلدات عن أصل أهرام مصر ، جذب اهتمامى الهرم الأول ، والجد الأكبر المحير والرائع ، ذو المظهر غير العادى فى سقارة ، مبنى

ذو درجات ، وبسبب شكله الخاص هذا لقَّبُوه "بالهرم المدرج" ، اعتقد مارييت أولاً أنه شيد للعجل أبيس ، واحتوى على نوع ما من السرابيوم فى الدولة القديمة ، ودافع عن فرضه هذا بقوة، وحجته وجود أبهاء كثيرة وحجرات معقدة بها مومياوات لقطط ، وعدل عن رأيه بعد ذلك بعدة سنوات ، وقرر أن هذا الهرم من عمل الملك ونفر من الأسرة الأولى من تاريخ مانيتون ، وربما كان الملك الذى يلقبه المصريون باسم دجر ، وكان ينقص الهرم بعض العناصر ليصل للاكتمال .

كان قد زار الهرم وتعرف عليه الجنرال البروسى فون مينوتولى بصحبة المهندس الإيطالى سيجاتو فى رحلة عام ١٨٢١ ، وكانا أول من دخل الهرم ، ورسم سيجاتو الممرات ثم نشرها ، ومهندس آخر هو فالريانى الذى أعاد الرسم بالألوان لواحدة من الحجرات المزدانة بالفيانس الأزرق الذى عثر عليه أثناء استكشافه ، ووصف من جهة أخرى أشياء كثيرة من الهرم ، وبخاصة بقايا مومياوات تركها اللصوص فى ركن من البهو . كرس فون مينوتولى عدة أسطر لهذا الكشف ، حيث سجل : "جمجمة مذهبة وصندلاً مذهبًا" بلا شك هذا ما تبقى من مومياء أمير دفن هنا . فى هذا الزمن لم يكن أحد يستطيع أن يفك الطلاسم الهيروغليفية المنقوشة على جدران الحجرات السفلية ، لأن شامبليون لم يعثر على مفتاح هذه اللغة إلا عام ١٨٢٢ . وكل ما جمعه فون مينوتولى وجد طريقه إلى بروسيا على متن مركب ، ولسوء الحظ غرقت هذه المركب قبل وصولها بما عليها .

بعد ذلك بأكثر من قرن بقليل ، وعند زيارتى للأجزاء الداخلية من الهرم ، قررت رغم المخاطر المحيطة كلها الدخول إلى حجرة الدفن . ويسد مدخلها قطعة جرانيت ضخمة تزن أربعة أطنان ، واللصوص الذين لم يستطيعوا إزالتها زحزحوها قليلاً لكسر جزء صغير ، ولما كنت نحيفًا جدًا فقد استطعت الدخول عبر هذا الجزء الصغير ، ووصلت حتى داخل حجرة الدفن على بعد مترين وسبعين سنتيمترًا ، وبالعكس كان الخروج مستحيلاً ، ولو لم يكن معى اثنان من الرجال الأشداء اللذان جذبانى بقوة لبقيت فى الداخل . ورغم وجود الكشاف معى فإننى لم أستطع رؤية الشىء الكثير وارتفع صوت نبضات قلبى لا من الخوف ولكن من الانفعال لما أرى هنا ، وأثناء تنظيف الأرض من التراب وغيره ، وقعت يدى على شىء غريب ، وبفحصه فى ضوء الكشاف وجدته رجل مومياء فى حالة حفظ تامة . وكان مدهشًا وغريبًا هذا الاكتشاف فى هذا المكان الذى زاره من قبل ولعدة مرات باتيسكومب جن والذى لملم من هنا العظام البشرية المتناثرة ، وبعثت بهذا الجزء من المومياء للدكتور درى ، أستاذ التشريح بجامعة القاهرة .

ملاحظاته على الأسلوب المستخدم ، وهو أنه قديم جدا قادنا للاعتقاد بأننا أمام أقدم قطعة تحنيط فيما يبدو ، فى الواقع كانت هذه الرجل اليسرى الملفوفة فى أقمشة بدقة تبرز التفاصيل كلها من تحتها وجففت الجلد وحفظت العظام ، وهذه الطريقة التى تعتمد على قطعة قماش مضمخة بالصمغ وغيره تعمل على حفظ أجزاء معروفة منذ أزمنة قديمة جدا ،

كل هذه العظام نتجت عن الجثة نفسها المؤرخة بعصر الدولة القديمة وبكل تأكيد هى جثة الملك زوسر ، ويمكننا استنتاج أن اللصوص فى محاولتهم إخراجها من مخبئها كسروها ، ثم تركوها فى أحد الأركان بعد أن عروها تماماً من الحلى والأشياء الثمينة ، ثم من المحتمل جداً أن ما تبقى هو ما وصفه فون مينوتولى وما غرق فى البحر . وفى أثناء صيف ١٨٣٩ أعطى المهندس الإنجليزى ج . أتش بيرنج الاكتشاف الذى بدأه فون مينوتولى دفعة أكثر للأمام ، وذلك بالتعاون مع الكولونيل الثرى هوارد فيز ، الذى وضع مخططًا لاستكشاف الأهرام ، وكان هذا أول الأعمال المهمة لحفائر تمت فى الأهرام فى القرن التاسع عشر . فقد اكتشف هؤلاء ممرين يتفرعان من أعلى البئر ويتجهان للخارج أحدهما شمالاً ، تصله عن طريق بئر أقل عمقًا ، والآخر جنوبيًا نصله عن طريق منزل (مهبط) قصير ، وأهم هذه الممرات ، هو هذا الجنوبى المحفور فى العصر الصاوى ، ليسمح بتفريغ البئر الكبير والذى كان يحتوى على ثلاثين مومياء ، بدون توابيت ولا أثاث جنائزى ، وعلم بيرنج من عماله أن فون يمنوتولى عندما فتح الهرم عثر على تابوت من البئر الكبير ، ولكنه كان مهشمًا ، ولسبب غير مفهوم لم ينزل بيرنج بنفسه إلى البئر حيث يوجد التابوت الجرانيتى ، لكنه تسلل إلى الحجرة المزخرفة بالفيانس الأزرق ، والذى نشر عنها رسومات جميلة مشفوعة بشرح واف لها وكيفية تثبيتها فى الأحجار ، ونقل الهيروغليفى على أحد الجدران ، وتحقق فيرث من أن هذا يتعلق بألقاب ملك قديم جدا ، ولعدم رؤيته لخرطوش فقد افترض أنه كان ملكًا غير رسمى ، أو أنه يجهل أن

الخراطيش الملكية لم تظهـر إلا فى الأسرة الرابعة فى عهد الملك سنفرو . وفى هذه النقوش كان اسم نترى خت مكرراً كثيراً ، سواء في النقوش التى تتبع المتـوفى أو فى المسـتطيل الذى يلى اسم حـورس . لقـد عـرف وتحـددت هوية الهرم المدرج ، لكن لم يسـتطع أحـد أن يحـدد الصلة بين نترى خت وزوسـر . لوحة سـهيل ثم القاعدة التى عـثر عليها فـيرث ثم نقـوش الجـرافـيت التى عـثرنا عليـها لأهـرام ملكة تحـمل لنا بما لا يدع مجالاً للشك أدلة على ذلك.

بناء هرم زوسـر ، كغـيره من الأهرام فى مصـر ، يرجـع فى تقنيتـه إلى العصـر النحاسى وهو الفترة الأخيرة من العصـر الحجرى الحديث ولم يعـرفـوا سـوى الذهـب والنحـاس واسـتـخـدموهمـا ، أمـا البـرونز فلم يعـرفـوه إلا فى أواخـر الدولة القـديمـة ، هذه الآثـار المعـجـزة أنجـزها المصـريون بأدوات أكـثـر بدائيـة من تلك التى اسـتـخـدمـها اليـونان الأُوَلْ ولكنهم أبدعوها بإتقـان عظيم ومـهـارة كـبـيرة . أى الوسـائل اسـتـخـدم إيمحوتب لإنجاز هذا العمل الضخم؟ نستنتج عندما نرى هذا الأثر أنه لا أحد قبله استخدم الحـجر . بالتـأكيد لا أحد ، نجد استـخدام الحجر فى تكسية الجدران وتبليط الأرضية وعضد الأبواب ، غلق الممرات الداخلية ، فلم يستخدموا الأحجار فيما يبدو إلا لكونها مـادة صلبـة ولقدرتها على المقاومة أو البقاء.

لدى المصريين تاريخ طويل من استخدام الأدوات والوسائل المتنوعة فى استخراج الأحجار وقطعها وصقلها بما فيها الأحجار الأكثر صلابة ، ودليل ذلك صنـاعة الأوانى الحجرية التى بلغـت قمـة النضج والمهارة

فى الفترة النقادية قبل الأسرة الأولى ، وكان ذلك سهلاً نسبيًا . ومن جهة أخرى كان تقليل أحجام الحجر الجيرى لأحجام أصغر ؛ لكى تستخدم فى بناء ما كان يبنى بالطوب اللبن ، وطبق هذا بمهارة إيمحوتب ، وتغلب على كل الصعاب التى واجهته فى الانتقال من البناء باللبن إلى البناء كلية بالحجر . من المهم أن نفهم أن آثار سقارة ما هى إلا بناء من الحجر لعمارة كانت معروفة فى العصر الثانى وعصر ما قبل الأسرات . والمجموعة الجنائزية لزوسر علامة على أوج ازدهار هذا الفن ، وهى فى الوقت نفسه نقطة انطلاق من جديد إنه فن عصر الدولة القديمة . لاحظت أثناء فحص الأساسات وبناء الهرم المدرج أنه لم يكن مخططًا له أن يكون هرمًا ذا درجات لكنه شيد على ثلاث مراحل متمايزة بوضوح ، ففى البداية ، بدأ إيمحوتب بتشييد مصطبة مربعة طول ضلعها ستون مترًا ، ثم أضيف إليها فى ناحيتها الشرقية لتغطى سلسلة من الآبار تؤدى إلى مقابر الملكة والأطفال الملكيين ، هذه المصطبة ارتفاعها يبلغ حوالى عشرة أمتار ، وربما ارتأوا أنها متواضعة ولا ترتقى لأن تكون مقرًا لفرعون ، وجعلوا منها نواة لهرم أول ذى درجات أربع ، أو كان سيتخطى فى ارتفاعه الأربعين مترًا ، لاحظ إيمحوتب أن الاتزان الذى عليه البناء يسمح له بالزيادة فزاد فيه عن ستة درجات ، والدرج هنا يصور السلم الرمزى الذى يستخدمه الملك فى الصعود للسماء ، كما تذكر نصوص الأهرام ، وصعود روح الملك المتوفى نحو أبيها رع ، وقد جعل هذا التعديل الأخير من الهرم بناء ضخمًا بلغ ارتفاعه حوالى الستين مترًا ، وساءلت نفسى عما إذا كانت المصطبة الأصلية ، والتى جاءت فى عدة

كتل حجرية جيرية من الذى احتوت عليه ، إذا ما كانت هذه مخصصة لحورس سانخت شقيق زوسر وسابقه، وعثر على طبعات أختام فى مخزن للفخار إلى الشمال من المعبد الجنائزى باسم هذا الملك .

حتى وإن أبدت بعض النظريات عكس ذلك ، فإننى على يقين من أن مقبرة زوسر هى أول نموذج لهرم مدرج، فلو كانت هناك آثار ذات درج قبل ذلك لقلنا إن إيمحوتب شيد هرمًا مدرجًا على غرارها . تذكر اكتشافات حديثة فى جنوب مصر أهرامًا مدرجة ارتفاعها حوالى خمسة وعشرين مترًا ، لكن تاريخها غير مؤكد ، هذه الأعمال لا علاقة لها بالمجموعة المتكاملة التى أبدعها إيمحوتب، الذى كان مهندسًا معماريا وكبير كهنة هليوبوليس، فكان كبير الرائين(*) والمهندس المبدع ، فقد نفذ أمنية الملك فى أن يكون قريبًا من الآلهة .

لقد مكَّنت إيمحوتب عبقريتُه من التغلب بالفعل على تقاليد راسخة جدا فى هذا العصر ، ومنح نفسه حرية الابتكار ، وكنت أول مفتون بكل الاكتشافات التى قمت بها على مر السنين ، وعندما كان فيرث هنا كنت أتحدث معه وأخبرته بافتراضاتى ، ومن هنا كانت بيننا سهرات ملؤها النقاش وتبادل الآراء ، ويبدو لى أحيانًا أن أصواتًا تبعث بعد طول رقاد قوة لا تقاوم تقودنى ، ويأخذنى سحر هذا الفن المعمارى العجيب .

(*) كبير الرائين: لقب كبير كهنة الشمس فى هليوبوليس، وهو بالمصرية القديمة Wrm 33 . (المترجم)

عمـــل جبـــار

سرعان ما عرفت أنه لكى نفهم ذلك الذى فى عمومه ما هو إلا كومة من الأطلال ، هو مكان دفن الموتى ، كان من الضرورى أن نفهم مغزاها ، ونظرتهم ورد فعلهم ثم بعد ذلك نستكمل رسم صورة ذلك الذى اندثر ، إنه أشبه بأن تجد التوازن بين الأفقى والرأسى ، كما فى الموسيقى ، بين العازف الموسيقى والنغم .

تعلمت الكثير الشهر الماضى أثناء عملى مع جيكييه عن أسلوب العمل ، ومن جهة أخرى لم أكف عن التعاون معه ، وفى الفترة التى كان فيها فى سقارة ، أى حتى عام ١٩٣٦ ، كنت أزوره فى موقعه لأقوم بالرفع المعمارى للآثار التى يكتشفها ، وهكذا استطعت عمل تخطيط متكامل للمجموعة الجنائزية لهرم ببى الثانى ، آخر كبار ملوك الأسرة السادسة ومعابده ، وأهرام الملكات ، وهرم عبا من الأسرة الثامنة . وأنجزت كذلك الرفع المعمارى للحجرات الداخلية لهرم خنجر من الأسرة الثانية عشرة ، وهرم آخر أكثر ولكنه غير مكتمل من العصر نفسه ، ولكن نظامه من حيث البناء وإحكام أجزائه رائع ، المشكلة الكبرى التى تشكلها المجموعة الجنائزية للملك زوسر هى ماذا عساه تقلد هذه المجموعة ؟ مع العلم أن

هذه المجموعة كانت أول مبان مشيدة من الحجر، فلا يوجد مثال سابق ، ولم يأت بعدها مثلها . وكان بالتالى لدىَّ عمل فريد لا أملك منه إلا بقايا . فى عام ١٩٢٧ كانت معرفتى بالعمارة المصرية القديمة معرفة مجملة وعامة ، وهذا ربما يبدو معوقًا ، لكنه على العكس كان مصدر قوتى ، فلعدم معرفتى السابقة تكونت الصورة فى مخيلتى مع مرور الوقت ، وذلك من خلال العناصر المعمارية التى اكتشفتها كل يوم .

تتابعت أعمال إزالة الرمال من حول الهرم ، وفيرث التى تسيطر عليه فكرة اكتشافات جديدة مبهرة ، وضع لذلك إمكانيات كبيرة ، شيد نظام خطوط حديدية تفرغ أطنانًا من الرمال فى عربات السكك الحديدية ، حتى إن عماله أزالوا الأنقاض فى أيام معدودة . يبدو أكثر فأكثر بعيداً عن زمن كان فيه شامبليون لا يرى إلا سهلاً ممتداً تقطع رؤيته أهرام ، وتتناثر به هضاب من الرمال يغطيها حطام الفخار القديم وأقمشة المومياوات ، والعظام المهشمة والجماجم المصرية بالصحراء من نتائج الحفائر والتنقيب ، " يبدو نادمًا على أنه نصب خيمته هنا فى هذا المكان المنعزل لأنه كان يحلم باكتشاف جبانة كبيرة مليئة بكل عجيب ، فلم يجد أمامه سوى أطلال الآثار التى تركها وراءهم لصوص المقابر ، آثار عانت على مدار آلاف السنين ، وما تبقى مدفونٌ فى باطن جبال من الرمال .

وبالتالى ، تمت الحفائر فى الموقع بشكل جزئى بواسطة ماريت وماسبيرو ، لكن هذين العالمين الكبيرين لم يتخيلا وجود آثار حول الهرم المدرج ، ففى عام ١٩٢٧ كانت قاعدته لا تزال مدفونة فى الرمال .

فى البداية ، عهد إلى فيرث بفحص المبنيين الأوليين اللذين ظهرا فى عام ١٩٢٤ ، ومهمتى كانت استخدام العناصر المعمارية بعد فحصها لإعادة البناء المعمارى للآثار التى شادها إيمحوتب ، ولأن هذه المبانى لم تكن أهرام ملكات ؛ فكان عليه أولاً معرفة وظيفة هذه المبانى ، ولأننا نجهل كل شىء عنهما فقد افترضنا أنها مقابر للآباء الملكيين الذين تظهر أسماؤهم مع حورس نثرى - خت على بقايا لوحات ، فيما بعد ونظراً لنقص الدلائل الدقيقة ، لقبوها ، "بيت الشمال" ، و "بيت الجنوب" ، وعثرنا على قطع عديدة من أعمدتها الأربعة المحطمة والملقاة على الأرض ، ثم واجهت العمل الشاق .

لقد علمنى جيكييه أصول علم الآثار المصرية ، لكن أمام الأطلال تملكتنى الشكوك ، ما وظيفتها ؟ وسرعان ما تنبهت إلى أن أهم سلاح أحمله معى فى مواجهة الزمن هو الصبر ، وهذا أمر رئيسى ومهم لكى أستطيع مواجهة العمل الذى سيستغرق حياتى كلها . وأخذت أفحص الناحيتين : المعمارية والفنية ، ولما كنت إنساناً عملياً ومدققاً فى التفاصيل ، فقد تقدمت فى العمل بنظام تخطيط على الأرض واضح نسبياً ، لكن الأجزاء العليا من المبانى تهدمت واستخدمت فى عمليات التحجير فى العصور الوسطى ، وكان علىّ دراسة كل الكسر الحجرية المتناثرة على الأرض ، فهذه الأحجار فقط تحمل لى الكثير فيما يتعلق بالبناء ، ومكان كل حجر فيه ، وبدأت فى تجميع كل العناصر المعمارية المبعثرة على الأرض لتحليلها بتفصيلاتها كلها ، وأخذت مقاساتها وأعطيتها

أرقامًا بالترتيب ، وعملت لها تصنيفًا حتى يأتى اليوم الذى أضع كل حجر منها فى مكانه ، وكان عملاً طويلاً ، طويلاً جدًا .

الكتل المقوسة الشكل ، والتى كانت تزين الواجهات مباشرة فوق تيجان الأعمدة ساعدتنى على استعادة عناصرها الموجودة على الأرض ، وبعد عدة أسابيع من البحث والتردد توصلت لأن أضع لكل عمود جذعه الأسطوانى ، وتوصلت مع نهاية موسم الحفائر الأول بالنسبة لى ، والأمر هنا لا يخلو من بعض الشعور بالفخر ، وعندما انتهيت من عمل إعادة تشييد الواجهة كاملة على الورق ، لم يكن محل نقاش أن الوقت لم يحن بعد لعمل إعادة بناء حقيقية ، ومع استمرار الحفائر لم أنس هذه الجملة الواضحة التى قالها جاك ذو مورجان : السعادة عند العثور على شىء لا تكمن فقط فى امتلاكه ، ولكن تأمله والتفكير فيه يشكل جزءًا من الإحساس بالسعادة" .

على أيام فيرث ، كانت الحفائر تتم فى مناخ عمل متواصل وحماسى ، ولم يعد الحال هكذا منذ وقت طويل لقلة الإمكانيات المادية ، مئات العمال بالموقع يعملون تحت قيادة الريس والعديد من مساعدى الريس. فى مصر يوجد العديد من أسر رؤساء العمل ، يربيهم آباؤهم على مدار أجيال ، يصبح هؤلاء مهرة فى هذه المهنة ، وحتى فى فترة الحرب كان لدينا رؤساء عمال ممتازون ، لكن لم نجد لهم خلفًا فى مستواهم ، فى الكرنك كان علماء الآثار لديهم الحظ لوجود حرفيين مهرة ؛ لأنهم كانوا يتقاضون أجورًا جيدة ، أما اليوم فى سقارة فالعمال المهرة مجرد موظفين يأتون للموقع ، عندما يكون الأمر على هواهم .

فى العشرينيات ، العمال المتخصصون الذين تدربوا على أيدى عالم المصريات الإنجليزى بترى ، كانوا يأتون من الصعيد ، وكان يعهد إليهم بالمبتدئين القادمين من القرى المجاورة ، يعمل أطفال كثيرون بمواقع العمل ، وهم أكثر مهارة ممن يكبرونهم ، وأقل تهاونًا لأنهم يأخذون العمل كأنه لعب ، يغنون ، ويجرون ويتسلون محدثين جوًا من المرح فى الموقع . حاليًا يذهب الأطفال للمدرسة ، عمل معى اثنان من "الكوفت" الذين يستعملون بمهارة "التورية" ، وهى أداة تستعمل لاستخراج الآثار من تحت الرمال ، ويعرفون أحكام الإمساك بالآثار المدفونة فى الأرض بحرص وحذر ؛ ويصعدون بها الواحدة وراء الأخرى . عملية إعادة البناء وتخطيطات المبانى على الأرض كانت واضحة ، لأنها بقيت محفوظة على بعد متر أو مترين فى الرمال ، ثم بدأت أواجه هذا العمل الضخم المربك فى الوقت نفسه لدرجة أننى أصبحت خاضعًا له ، أصبحت الدنيا كلها ما هى إلا هذا الحقل من الأطلال التى تلاحق أيامى وليالىَّ . وعندما يتبلور شكل أو تخطيط معمارى واضح ، أدخل فى عالم من البهجة التامة ، أستيقظ كل صباح فى الفجر وأعمل بلا كلل وحتى أثناء النهار تحت أشعة الشمس الحارقة ، لقد نسيت حتى العزلة ، هذه العزلة الخاصة فى الصحراء ، هذه التى تصبح فى يوم أو فى الآخر لا تطاق ، أما أنا فقد تحملتها . إننى حقًا أحب الصحراء .

بالتوصل لآثار الأشكال المعمارية وإعادة حساب النسب فى هذه المبانى بأسلوب لا يزال غير معروف فى مصر ، اكتشفت شيئًا فشيئًا تجارب طريقة لنقل العمارة الطينية من العمارة الحجرية ، أو تلك الخشبية

وكذلك أعواد البوص ، فهى تمنح للبناء بالحجر محلية كتلك التى نعرفها عن بداية العمارة اليونانية فى المعابد الدورية . هكذا توضح نسب الأعمدة التى تقلد فى الحجر حوامل من الخشب أو جذوع النخل أو التقوسات الجميلة لأسقف تمثل تلك المقاصير الصغيرة التى كانت تبنى باستخدام البوص وتحتوى على تماثيل المعبودات .

أبواب هذا "المقر الأبدى" كلها أبواب رمزية شكلاً فقط ، تنحت فى الحجر ، بعضها ينحت على أنه مفتوح والآخر على أنه مغلق ، ويومًا ما فهمت أن هذه المجموعة لا تؤدى سوى دور رمزى ، لأنها ما شيدت إلا من أجل روح الفرعون ، وفهمت كذلك لماذا لم تحتو هذه الفتحات سوى أبواب وهمية ، فهذه تعمل وبشكل مثالى بناء على أوامر سحرية من الكا الملكية .

فى نهاية بعد الظهر ، يترك العمال الموقع ، وأنذاك أعود لمنزلى على قدمى ، على بعد حوالى كيلو متر من هنا ، أحببت كثيرًا المشى ، خاصة فى هذا الفضاء الموحش ، ينتظرنى محمد بالشاى المعد والموضوع على منضدة خشبية ، أجلس فى مكتبى حتى وقت العشاء ، وأقوم بتدوين الملاحظات ورسوم العمل لهذا اليوم ، وكنت أجدنى مشتاقًا لتلك الأوقات التى أجدنى فيها أمام أشجار النخيل ، وعندما يخفت الضوء تصبح السماء ذات لون أصفر شاحب ، أجلس فوق الهضاب فى الليالى المقمرة أتأمل السماء الصافية وزرقتها ، ذلك البحر الضخم الذى تشكله الصحراء حيث تنبثق هنا حياة دافئة ، أحس وكأن أرواح الآلهة المختفية تعود لكى تظلل هذا الكون .

رابطة في الصحراء

على الرغم من قسوة الوجود في الصحراء ، فإن هذا لا ينى يجذبني إليها ، وفي مارس تهب رياح الخماسين بغبارها وحراراتها التي تبعث على الخمول والتوم ، كما يقول ماربيت - وهذه الرياح تهب كأنها ضربات سياط وتستمر ربما لمدة خمسين يوماً ، تحتجب السماء فجأة ، وتختفي الشمس في الأفق كذلك ، وتتغير الأرض تحت دوامات الرمال التي تحيل الصحراء لمحيط من التراب والغبار .

اكتشفت معنى الصحراء ، عندما يشتد الحر يصبح الأمر لا هوادة فيه ، حرارة الشمس الحارقة تجفف المناخ ، وتثير الرمال وتشقق الأرض وتفتت الأحجار ، عوامل التعرية العنيفة هذه كانت أعدى أعداء آثار زوسر ، والعامل الرئيسي في تدمير كتل ليست من الآلباستر ولا من الحجر الرملي ولا من الجرانيت ، ولكنها من الحجر الجيري الجيد والهش جداً . في الصيف تجفف الشمس الأحجار وفي الشتاء هجوم البرد المفاجئ ليلاً ، في جو من الضباب المحمل بالرطوبة صباحاً يجعل الأحجار تتشقق ، وهو مصير مدمر ، ولا توجد وسيلة للاحتماء منه أو مواجهته .

أصبحت جبانة سقارة بفضل لاكو منطقة نفوذ للإنجليز حيث يعيش الكثير منهم فيها وخاصة العجوز كويبل ، إسكتلندى ذو لحية بيضاء ، ويعبر عن نفسه بأسلوب فرنسى بديع ويتحدث الإنجليزية بشكل رائع ، إنه هو الذى عثر فى عام ١٨٩٨ على "صلاية نعرم" الشهيرة ، وهى واحدة من روائع الفن المصرى – هذه الصلاية مصنوعة من الشست ، وتحكى انتصار الصعيد على الدلتا وتوحيد مصر لأول مرة فى التاريخ . عين جاستون ماسبيرو كويبل فى عام ١٩٠٥ كبير مفتشى سقارة ، وكان ماسبيرو آنذاك مدير مصلحة الآثار خلفًا لناربيت ، وغادر الموقع منذ اندلاع الحرب فى عام ١٩١٤ ، وهو عالم آثار جيد ، وقد نشر العديد من الكتب عن أعماله واكتشافاته ، وخاصة اكتشافه لدير الأنبا إرميا ، الذى أبدى دقة واهتمامًا بدراسة الحضارة والفن القبطى . هذا الكشف تم بمحض الصدفة ، فأثناء موسم شتاء ١٩٠٦ اضطر كويبل ولأسباب فنية أن ينقل عماله إلى الموقع الذى يحيط بالطريق المؤدى لمدخل الجبانة ، وعند إزالة الرديم ظهرت – ويا للدهشة – دفنات فردية تحتوى فى جدارها الشرقى على كوة مستديرة مرسوم بها المسيح والعذراء والملاك . ونقوش قبطية تحوى أدلة على أننا فى دير قبطى هو دير الأنبا إرميا المقام أواخر القرن الخامس والمدمر نحو عام ٩٦٠ على يد العرب ، ثم بمواصلة العمل ، أُبرز الأثر للوجود ، فناء ذو بلاط فى أرضيته ، صغير وجميل مثمن الأضلاع ، المستشفى ، قاعة الطعام ، ومقصورة مربعة الشكل ، ثم على مسافة قليلة جنوبًا بقايا

الكنيسة الرئيسية ، وفيما بعد تم الكشف عن ثلاث كنائس أخرى مدفونة فى الرمال . وذهبت المكتشفات إلى المتحف القبطى بالقاهرة القديمة ثم غطت الرمال الدير مرة أخرى .

انطلق كوبيل فى عام ١٩١٠ فى اكتشاف جبانة العصر العتيق بكل نشاط ، وبلا ملل ، لا يقطع عمله إلى سهرات بعضها فى منزله الكبير فى جنوب سقارة ، حيث كان على كل ضيف أن يحضر هذه الأمسيات بزى خاص ، وأحذية لامعة نظيفة . وتقع هذه الجبانة غرب قرية "أبو صير" ، حيث اكتشف حوالى خمسمائة مقبرة ومصطبة من الطوب النيئ ترجع لعصر الأسرتين الثانية والثالثة ، وكذلك اكتشف مقبرة كبيرة ترجع لعصر الملك آجر من الأسرة الأولى ، وهذه بلا شك اكتشافات مهمة ، لأنها ترجع لعصر قديم جداً ومعرفتنا به قليلة ، وكوبيل كذلك هو الذى عثر - بفضل أحد عماله الذى بدأ عمله صبيًا مع ماريت - على موقع المصطبة الكبرى للمدعو حسى رع ، الشخصية الكبيرة فى الأسرة الثالثة ، والذى عاش فى عصر الملك زوسر . هكذا تبدو سقارة منجماً لا ينضب تمدنا دوماً بالجديد من المكتشفات .

نظراً إلى أن فيرث الذى عمل مع رايزنر فى مواقع لا توجد بها نصوص إلا فى النادر جدا ، فإن الهيروغليفى لم يكن مشكلة ولا قضية مثارة لأى منهما ، لكنهما وعندما بدآ فى التعامل مع نصوص هرم الملك تتى ، مؤسس الأسرة السادسة ، فقد استدعيا باتيسكومب جن ، المتخصص اللغوى الإنجليزى الأصل ، وكذلك كوبيل الذى جاء خصيصاً

من إنجلترا ، بدا لى جن دومًا رجلاً غريبًا ، ومتقلب المزاج ، لكنه كان واحداً من قلائل علماء اللغة المشهورين على أيامه . استقر مع زوجه الشابة فى سقارة فى بيت صغير يقع على مقربة من بيت فيرث . فى البداية علاقتهما كانت متينة يسودها الاحترام المتبادل ، ولقد نشر الاثنان معًا الجزء الأول عن الحفائر بهرم تتى وجزءًا آخر كان فى الإعداد، وبفضله أحرز فيرث تقدماً فى معرفته باللغة المصرية القديمة .

ولسوء الحظ ولسبب لا يستطيع أحد فهمه ، فإن زوجه لم تعد تطيق هذه الجيرة ، وكانت ذات طبيعة انطوائية سرعان ما اعتراها الاكتئاب عندما علمت بأمر حملها، وسلوكها أصبح هستيريًا وغريبًا ، ولم يعد أحد يجرؤ على زيارتهم.

وذات يوم استطاعت أن تضغط على زوجها ليترك المكان بحجة أنه يكون مضطراً للمرور من أمام بيت فيرث فى كل مرة يذهب فيها لموقع الحفائر ، ووصل الأمر بها إلى الشكوى بأنهم يراقبونها فى ذهابها وإيابها ، لدرجة أنها فقدت إحساسها بالحرية ، وفى محاولة منه لتهدئتها قام فيرث بإسكانهما فى المنزل القديم الخاص بمارييت ، وهو بمعزل تمامًا على الطرف الغربى من الموقع فى قلب الصحراء ، والأعمال المشتركة بين الأثريين تجبرهما على الزيارة المنتظمة . وذات يوم تراءت لفيرث فكرة منحوسة، وهى اصطحاب كلبيه "بنى وجين" فى زيارة لعائلة جن ، وكان فى استقباله الكلب الصغير الخاص بمدام جين وكان عدوانيًا جداً، وأخذ الكلابُ فى النباح والعراك ، خرجت على أثره مدام جن

تصرخ محاولة الفصل بينهما لاسترداد كلبها الصغير ، لكن أحد كلبى فيرث عضها فى يدها وكانت دراما ، فقد كانت حبلى ، وطلب جن من فيرث شهادة تثبت أن كلبيه خاليان من مرض الكَلِب ، وعبثًا حاول فيرث طمأنته لكن جن أصر على طلبه ، وكما هو الحال عندما اعتقد فيرث أنه على حق أصر هو الآخر على موقفه ، فهو يرى أن كلبيه لو كانا مصابين بداء الكلب لظهر ذلك واضحًا عليهما ، فهذا المرض يتطور بسرعة عند الكلاب . ويدأ حوار الصم الذى انتهى بانقطاع الصلة بين الرجلين نهائيًا ، وكنا كلنا فى الموقع لا ندرى ماذا نفعل إلا فيرث الذى كان جريئًا واستمر يتنزه مع كلبيه بنى وجين ، ولفرط غيظه طلب جن مغادرة سقارة ، ونقله بيير لاكو إلى المتحف المصرى على أمل أن يداوى الزمن الجراح . وهناك وجد جن فى ريجنالد إنجلبخ - كبير مرممى الآثار - حليفًا ، وكان هذا الرجل ذا شخصية قوية ، صلبًا ، يكره فيرث ، وبعد عدة أشهر قضاها بالقاهرة غادر جن نهائيا لأمريكا . والدراما هنا تتمثل فى أنه ترك جزءًا مهما من الحفائر لا يستطيع فيرث وحده أن يستكملها ، وهكذا فإن الجزء الثانى من هرم تتى لم ير النور أبدًا . جعلت هذه الحادثة لاكو يغضب ، وما زاد من غضبه رؤيته لعمل مهم كهذا يفسد بهذه الطريقة الحمقاء ، وابتداء من تلك اللحظة طلب متخصصين فى الحفائر ، وفى الوقت نفسه لهم دراية كاملة بالنشر .

لم تكن مدام جن هى الوحيدة التى لم تتحمل المعيشة فى سقارة ، حيث لا يتحمل الصحراء بقساوتها وبشدتها إلا من عنده الجلد على مواجهتها ، فعندما تكون الشخصية مضطربة أو ضعيفة تفقد القدرة

على مغالبة العزلة والوحدة . ذات صباح حزمت مدام فيرث حقائبها ، وعادت إلى لندن مع ابنتها ديانا ، تاركتين فيرث يواجه مصيره ، ووجدنا أنفسنا ، كويبل وفيرث وأنا كأننا صبيان كبار منهمكون فى عملهم الروتينى اليومى ، وكل واحد يهوى عمله هذا بالموقع ، ومن وقت لآخر كان يقترح فيرث جولة بعد الانتهاء من العمل آخر النهار للقاهرة لرؤية الأحياء ، فندس فى العربة الفورد القديمة التى تؤجرها مصلحة الآثار ونذهب ثلاثتنا لنأخذ كأسًا فى أحد الأندية المختارة فى المدينة العصرية . ذات مساء ونحن على المائدة فى نادى الطارف ، تعرفنا على الطبيب الذى كان يأتى هنا للمرة الأولى وكعادة فيرث المستعد للمزاح فى أى وقت ، بادره قائلاً : نحن متشابهان، فأنت ترى الناس قبل الموت ونحن نراهم بعده" ، وضحكنا إلا هذا الطبيب الذى ذهب وتركنا دون أن يحيى فيرث .

من الأشياء المسلية بالموقع كانت الزيارات ، ذات صباح وصل لاكو مع الملك فؤاد ، وكنا على علم مسبق بأمر هذه الزيارة وارتدينا ملابسنا الأنيقة ، وتبعنا الملك وحاشيته فى زيارة يقودنا فيها مرشد مدير مصلحة الآثار ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها هذا الرجل الذى نجح فى تحرير مصر من الحكم العثمانى ، أثناء الملكية سواء عهد فؤاد أو فاروق نعمت الآثار باهتمام الحكومة . لم يتردد هذا الملك فى زيارة المواقع الأثرية والحفائر ودعم فريق العمل وتأييد مدير مصلحة الآثار ، وفيما تلا ذلك لم أر إلا الرئيس جمال عبدالناصر ، الذى جاء لافتتاح مقبرة اكتشفها أثرى مصرى ، وفيما عدا ذلك لم يهتم أى رئيس

بآثار بلده ، وكأن الحكومات كان لديها ما هو أهم من الآثار للعناية به وهذا شيء مؤسف . لإنقاذ الآثار منذ عدة سنوات دعيت لحفل بالقاهرة وتنقلت من صالون إلى صالون حتى قابلت في حجرة خالية وجهًا لوجه الرئيس مبارك الذى كان يجهل بطبيعة الحال من أكون ، وتقدمت لتحيته ولم أقل أكثر من : "هل تعلمون سيادتكم أنى منذ ما يزيد عن ستين عامًا وأنا أعيش في سقارة" . فتفحصنى قائلاً "حسنًا ! لقد عرفت مصر قبلى ! " ، بعد مضى عدة أسابيع على زيارة الملك فؤاد أعلنوا عن قدوم كبير المرممين للآثار المصرية بمتحف اللوفر شارل بورو ، وكان رجلاً صعب المقابلة ، طويلاً ، أنيقًا ، ويرتدى ببيونة وغطاء رأس كولونيال ، ويرد على مخاطبيه باقتضاب بإرجاع رأسه للخلف باستعلاء ، واستقبله فيرث بحرارة وحماس فهذه طبيعة شخصيته ، وظن أن وجود فرنسى في سقارة سوف يسعده فأسرع يقدم مهندسه ، وبالتالى اصطحبتهم طيلة الزيارة ، وفى لحظة الوداع أفاض كبير مرممى اللوفر في الثناء والشكر واستدار نحوى وقال بلهجة احتفالية جدًا : "أود أن أهنئك أيها السيد للأسلوب الجيد في الحديث بالفرنسية دونما أى لحن" ، بعض الدهشة اعترتنى وأجبته "إننى فرنسى وهذه هى اللغة الوحيدة التى أتحدثها !" واعتذر أنه لم يستطع أن يحفظ اسمى ، فقد جعلنى أكرره قبل أن يسألنى إذا ما كنت ابن فيليب لوير زميله في جمعية عشاق الآثار في فرنسا ، وبعد إجابتى المؤكدة لهذا ، خاطب فيرث وأضاف بود : "حسنٌ أن تشارك هنا ، ربما في بداية مسيرة عالم مصريات ناجح" ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يتخيل المدة التى سوف أعيشها هنا . آمل في تعلم الإنجليزية

لمعايشتى للإنجليزية، ففى الإعدادية لم أدرس إلا الألمانية ، ولسوء الحظ فإن كوبيل وجن يجيدان الفرنسية ، وبالتالى وجدا ، مثل فيرث ، أنه من الطبيعى أن يتعاملا معى بالفرنسية ، وبالقراءة استطعت أن أتفهم الإنجليزية خاصة فى مجال الآثار ، وذات يوم أشار فيرث إلى خطأ ساذج وقعت فيه على تخطيط قمت به فى إطار تقرير حفائر سوف يظهر فى حولية هيئة الآثار، حيث جعلت السهم فى اتجاه مشيراً إليه بالحرفين N.M (الشمال المغناطيسى) بدلاً من (الشمال المغناطيسى Magnitic North) أضاف فيرث أن هذا الخطأ لاحظه الأمين العام للمصلحة، عالم المصريات الكبير والشهير هنرى جوتييه وهو المسئول عن النشر العلمى عمل ملاحظة حول هذا الخطأ ، وبلهجة عنجهية قال إنه الفرنسى الذى وجد نفسه مضطراً لتصويب الأخطاء الإنجليزية لزميله ، وكتب لى فيرث "ملاحظة : عندما ترى الأمين العام اسأله إذا ما كنا نقول بالفرنسية عالم خنزير أم خنزير عالم ؟!" .

لدى صديقتى حتشبسوت

دعانى هنرى شفرييه لزيارة الكرنك عندما انتهيت من أول موسم حفائر فى عام ١٩٢٧ ، فلقد قام باكتشاف سوف يقوده لأعمال تقترب من تلك التى بدأت فى سقارة : إعادة تشييد الآثار من خلال القطع الأثرية الأصلية التى عثر عليها ، ففى هذا الوقت كانت هذه الخطوة جديدة تمامًا ، يصل الأثريون إلى الموقع وفى رأسهم فكرة واحدة : الحفر ، ومن ثم كثرت الآثار المكتشفة ، أما الصيانة والحفظ والحماية فهى الكلمات السائدة لدى آثاريى اليوم . قدمت لى دعوة شفرييه الفرصة للقيام بأول رحلة صباح اليوم التالى على رصيف الأقصر ، جو المحطة لا يختلف عن جو محطة البدرشين ، فرغم أننا كنا فى ساعة مبكرة من الصباح ، فإن الناس يتدافعون فى كل اتجاه ، وكان شفرييه لطيفًا ؛ إذ بعث لى عربة خيل عبرت بى المدينة التى لم تكن آنذاك سوى عزبة كبيرة تمتد على شاطئ نهر النيل ، والبيوت البيضاء العربية التى تتخلل أشجار النخيل بدت لى ساحرة ، المعبد الكبير بغابته الكثيفة من الأعمدة الأوزيرية والذى نظفه ماسبيرو القرن الماضى ، يبدو مازال حقلاً من الأطلال ، وبجواره مباشرة يقع فندق وينتر بالاس بواجهته الجصية

التى تشوهً جمال الطبيعة ، وعلى الضفة الأخرى رأيت سلسلة الجبال الليبية ولاحظت من بعيد تمثالي ممنون الشهيرين .

يفصل معبدى الكرنك والأقصر ثلاثة كيلو مترات ، وعندما وصلت إلى المدينة القديمة وطيبة ذات المائة صرح ، وقفت مبهوراً أمام هذا القصر العملاق ، الأطلال تمتد فى كل مكان ، إحساس لا يوصف ، الكرنك الذى شيد فيما بين الأسرة ١٢ والعصر الرومانى ، يقدم مجهودات ثلاثين قرناً . شفرييه وسابقوه لم يخشوا من آلاف الأطنان ولم يرهبوا آلاف السنين عندما أقدموا على العمل هنا فى هذا الأثر ، ومن قبلهم مارييت استسلم ولم يقدم سوى تخطيط ، وكل شىء يبدو من عمل مخلوقات أخرى ، وليس من صنع بشر . شيفرييه وهو مهندس معمارى مثلى ، استقبلنى بحفاوة ، فهو يفيض حماسة وحيوية . وبدأت زيارتنا للكرنك بالصالة الضخمة ، صالة تحوى ١٣٤ أسطوناً ، داخل هذه المساحة التى تبلغ ضعف مساحة نوتردام دو بارى . أصبت بالدوار ، وأوضح لى شفرييه أنه ينوى تقوية قواعد هذه الأعمدة التى أضعفتها الزلازل ، والتى ترتفع لأكثر من عشرين متراً مغطاة بالهيروغليفية ، وبعد عدة سنوات انطلق فى هذا العمل المضنى .

وبعد عدة أشهر من العمل اكتُشفت بداخل إحدى السقائف الضخمة العشرة ، التى نسميها صروحاً ، آثار أكثر قدماً ، وبعد فحصها استُخلص أنها ترجع لعصر الدولة الوسطى ومكرسة للملك سنوسرت الأول ، وكان لدى الفراعنة عادة هدم آثار سابقيهم ، بهدف القضاء على

شخصية من شيدها ، ثم يستخدمون هذه الآثار والأحجار فى تشييد آثار خاصة بهم ، وليسوا وحدهم الذين يتصرفون هكذا ، فنحن نعرف على سبيل المثال أن مطالع كاركاسون تحتوى على عناصر من العصر الرومانى ، وكانت قطع من مقصورة سنوسرت الأول مستقرة فى داخل حشو صرح أمنحوتب الثالث ، فرعون من الدولة الحديثة منذ ثلاثة آلاف عام ، وهذا اكتشاف نادر وتحقق شفرييه من أن الآثر كامل ويحوى زخارف ونقوشًا تحمل معلومات مهمة عن الفن والديانة ، وبدأ لاكو يتعامل مع النصوص ثم باشر شفرييه بصبر بالغ إعادة بناء هذه المقصورة الضخمة ، ونظرًا لاستحالة التعرف على مكانها الأصلى فقد اختار مكانًا خاليًا بجوار سور معبد آمون الكبير ، فلم يتبق من الدويلة الوسطى سوى أطلال قليلة جدًا فى معابد الكرنك ، وأسموا هذه المقصورة باسم "المقصورة البيضاء" بسبب لون الحجر ناصع البياض . والنقوش أتاحت لنا أن نعرف مدى إتقان معماره وبنائه ، وكذلك للأسف، مدى حجم الخسارة التى خسرناها فى ما تبقى من آثار ترجع لهذا العصر .

ولم تتوقف مكتشفات شفرييه هنا ، ففى عام ١٨٩٨ عثر على كتل من الجرانيت الرمادى والكوارتز الأحمر وعرفوها على أنها كتل أعيد استخدامها فى مبانى الكرنك ، واكتشف شفرييه أحجارًا أخرى مماثلة ، وفى عام ١٩٣٠ تجمعت أحجار تمكن من إعادة تشييد نظرية لأثر أو مبنى ، وفى عام ١٩٤٠ صنف لاكو ٣٠٥ كتل حجرية وانتظرت الـ ١٥٠ كتلة أخرى غير الموجودة ، وانتهت بأن أعاد بناءها فى عام ١٩٩٩

المهندس المعمارى المسئول عن البعثة الفرنسية المصرية بالكرنك فرنسوا لارشى ، هذا الأثر عرف باسم "المقصورة الحمراء لحتشبسوت" ، وهى المبنى الرئيسى لمتحف فى الهواء الطلق على أرض الكرنك ، وحول المقصورة توجد مجموعة آثار أعيد تشييدها ، باستخدام كتل حجرية كانت مستخدمة فى حشو الصروح .

تعتبر حتشبسوت ملكة ذات شخصية أسطورية فى التاريخ المصرى ، فهى المرأة الوحيدة التى اعتلت عرش مصر بكل الشارات والألقاب الخاصة بفرعون، وأحدثت ثورة حقيقية على ضفاف النيل ، ولنا أن نتخيل الذهول الذى اعترى الشعب والعجب الذى ملأ رؤوس الكتبة الذين كان عليهم أن يكتبوا ألقابها فى صيغة المؤنث ، وهو الأمر الذى لم يألفوه ولم يعهدوه من قبل ، وكذلك النقوش اتسمت بالأنوثة الناعمة ، فهى أولاً بوصفها زوجة لتحوتمس الثانى أكدت اشتراكها فى الحكم عند وفاة زوجها عام ١٢٩٨ أو ١٤٨٣ ، ثم هى بوصفها ملكة أرادت أن تقهر كهنوت آمون ومن ثم ارتدت زى الرجال واللحية الملكية، وأمسكت بالمذبة وارتدت التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى ، واتخذت الألقاب الملكية الخمسة ، ويبدو أنها لعبت دوراً إيجابيًا تجاه بلدها فقد أطلقت برنامج تشييد طموح ، وفتحت الحدود للتجارة ، وابتكرت للمرة الأولى نظاماً للتبادل التجارى السلمى بين البلدان .

واحدة من الرحلات الشهيرة حملتها الشهيرة لبلاد الأسرار ، بلاد بونت ، وجلبت منها بضائع نادرة : خشب الأبنوس والمرمر والعاج

والبخور ، ونقشت قصتها على جدران معبدها ، وبموتها أسرع خلفاؤها الذين كانوا ينتظرون بحنق وغيظ من هذا العهد الذى أربك التقاليد ، لكى يكشطوا أسماءها ، استخلص شامبليون بعد دراسة دؤوبة لخرائطها المكشوطة أن هذا الأثر ينتمى لملكة فى هذا العصر، كان المعبد فى حالة يرثى لها ، فقط عدة مداميك من الجدران هى التى فى مكانها هنا وهناك . فى عام ١٨٥٨ وجد ماربيت صعوبة فى فهم التنظيم الأصلى للأثر "إنه حقا - يقول هو - يقدم فى بنائه وفى تخطيطه خروجًا على المعتاد ، الأمر الذى يربكنا مع كل خطوة نخطوها، ونتساءل عند دراسته إذا ما كنا فى داخل مبنى من أصل مصرى" .

فى الحقيقة ، لا يشبه معبدَ حتشبسوت أىُّ معبدٍ آخر ، أتذكر حالته فى ذاك العصر وعندما كان لايزال أطلالاً ، ولسوء الحظ عانت مصر من أثاريين سيئين ، فلقد قرر البولنديون ذات يوم أن يعيدوا تشييده كلية ، وهو اليوم جدران بيضاء ولم يكن كذلك فى الأصل ، فقد كان منقوشًا وملونًا ثم فقد الكثير من جاذبيته وبهائه .

أصبح هذا الموقع مشهورًا بالحادثة الأسيفة التى سوف تبقى وصمة فى تاريخه ، وهى المذبحة التى حدثت فى عام ١٩٩٧ عندما قُتِل ستون سائحًا على يد مجموعة إرهابية .

السـرابيوم

كونى محبًّا للعزلة بطبيعتى ساعدنى على التكيف مع هذا الوجود "غير المتمدن" ، فلقد أصبحت الصحراء بالنسبة لى ضرورة ، أقضى أيامى كلها بالخارج فى الهواء الطلق النقى والجاف، والذى يعطينى دومًا طاقة عظيمة ، الصحراء تصون ، تيودور مونود خير دليل على ذلك ، فلقد ولدنا فى العام نفسه مع فارق شهر ، كان عندى الحظ أن يكون لدىَّ طيلة عدة أعوام خيول فيرث ، فكنت أجوب الصحراء مقتحمًا الرمال البكر والهضاب الصغيرة ولا أسمع إلا أصوات الخيل ، كان بداخلى إحساس بأننى أدخل إلى الفراغ الأبدى ، فلا أحد فى الأفق ، ولا شىء سوى محيط عملاق من الوحدة والصمت ، ولقد وقعت فى غرام الصحراء وأضوائها ، وخاصة فى الصباح الباكر عندما يكون الضوء ورديًا زاهيًا ، وعندما تكتسى به السماء تباعًا ، وحدث لى ، كما حدث لماربيت من قبلى ، أن تسلقت قمة الهرم المدرج مساءً وبقيت هناك فترة طويلة ألاحظ ما وراء المشهد ، والألوان التى تتبدل من الأحمر المتوهج إلى اللون الداكن ، ثم الصحراء تتحول من الرمادى إلى أن تختفى فى الليل ، ويعترينى إحساس وكأننى فى نشوة ، وكأن أحدًا يأخذك ويقترب بك من الإله .

وفى المساء عندما انتهى من رسوماتى المعمارية للآثار أذهب لزيارة فيرث ، وأمام كأس نجلس نتجاذب أطراف الحديث وهو بشخصيته الساحرة يقص علىّ أشياء وحكايات أفدت منها الكثير فيما يخص مصر والناس ، ولقد أتممت لتوى خمسًا وعشرين عامًا والحياة أمامى تفتح ذراعيها ، ففى سقارة أحس بأننى حر طليق تمامًا .

يحلو للبعض أن يقارن بين مصيرى ومصير أوجست مارييت . حقًا هناك تشابه بين مسارينا ، فلم يكن هناك شىء يجعل مارييت يسافر لمصر ، ولكنها كانت مسابقة عابرة جعلته يهتم بمصر ، شاب مهتم بالتاريخ بدأ عمله مدرسًا بسيطًا فى مدرسة ثانوية فى بولونى مير ، عندما تلقت أسرته بشكل لم يكن منتظرًا أرشيف ابن عم لهم توفى لتوه ، ابن العم هذا ، الذى يجهل الجميع وجوده حتى هذه اللحظة لم يكن سوى نستور لوهوت ، أحد رفاق شامبليون أثناء رحلته إلى مصر فى عام ١٨٢٨ ، وما تركه من وثائق بها كارنيهات الطريق ورسومات رائعة لرحلته الطويلة بمصر . فى هذا اليوم تغير مصير مارييت ، فقد غاص فى النصوص ، وعندما رفع رأسه كانت مصر قد سرت فى عروقه ، وبعد سبع سنوات من الدراسة المتعمقة المتواصلة حصل من اللوفر على بعثته الأولى إلى مصر ، فلقد طلبوا منه أن يشترى مخطوطات قبطية وسورية لإثراء مجموعات المتحف ، وسافر لمدة ستة أشهر لكنه لم يعد إلا بعد أربعة أعوام بلا مخطوطات ، ولكن بكنز ثمين ، سرابيوم منف .

وماريبت شخص جذاب ، ولسوء الحظ ما يزال مجهولاً ، ولقد كتب مختصراً عن حياته لأنه ترك بصمة كبيرة فى سقارة . وعند وصولى إلى سقارة بعد رحيله بخمسين عامًا قابلت أشخاصًا لازالوا يتذكرونه ويعرفونه وخاصة عمال ، كلهم يتذكرون إنسانًا كريمًا متحمسًا طموحًا ، فمن المؤكد أنه كان ذا شخصية غير عادية لكى يقرر فى عام ١٨٥٠ أن يستقر فى صحراء سقارة ؛ لكى يبحث فيها عن مقبرة يعتقد الجميع أنها اختفت منذ زمن طويل . لكن كان ماريبت يمتلك فطنة وتخمينًا جيداً، فى وسط الرمال ، لا يوجد إلا ما كتبه سترابون مؤرخ بالقرن الثالث من عصرنا هذا يقول : "يوجد معبد سيرابيس فى مكان مغطى تمامًا بالرمال وعندما تنحت الرياح بعض الرمال نرى تماثيل أبو الهول مدفونة بعضها حتى منتصفه والأخرى حتى الرأس ..." طريق أبى الهول .. هذا ما كان يبحث عنه ووصل إليه ، وفى نهاية هذا الطريق تنفتح المقبرة الضخمة والفخمة ، وبفضل ماريبت بدأت الحفائر الجدية فى سقارة . أشعل اكتشاف السرابيوم فضول الآثاريين تجاه هذا الموقع الذى كان ينظر إليه حتى هذه اللحظة على أنه موقع لا أهمية له . قبل ذلك بحوالى عشرين عامًا ، رحل شامبليون وفى رأسه فكرة أن "هذه صحراء موحشة ولا شىء بها يستحق الدراسة" ماريبت قال : "سقارة جبانة أكثر قدمًا وأكثر حداثة من جبانة الأهرام ؛ لأن العصور كلها منذ الأسرات الأولى وحتى عصر الأباطرة الرومان ممثلة بها " وكان محقًّا تمامًا ، خلال أعمال التنظيف لطريق أبو الهول الكبير الذى يقود للسرابيوم ، عثر ماريبت على تماثيل يونانية – فى منتصف الطريق بين تماثيل أبو الهول –

الأول لبندار ؛ مما جعل رجل الآثار متردداً ، فالتمثال ذو أسلوب ردىء ، ومنحوت من كتلة من حجر جيرى معرضٍ للتفتت ، هكذا كتب عنه فى تقرير الحفائر ، المادة مصرية مجلوبة من المقطم ، تمثال بندار من ثم لم يحمل من اليونان لكى يزخرف به معبد سرابيس ، ووجوده هنا يبقى لغزاً " ونظراً لسرعة عمله فى سقارة فلم يعثر على نماذج أخرى مشابهة ، والتى تبقى معروضة تحت أشعة شمس سقارة ، ومجمع الفلاسفة هذا كما يسمونه" اختفى مرة أخرى تحت الرمال . اهتم بأن يرسم له "رسماً كروكيًا" مفصلاً، عثر عليه يوماً والدى فى ملف بالمكتبة الوطنية ، وأرسله لى فى سقارة ، وتحدثت مع شارل بيكار المتخصص فى الدراسات الهللينستية المشهور ومدير معهد الفن والآثار بالسوربون ، عن هذه الرسومات ، وكان متفقًا معى فى وجوب إعادة دراسة هذه التماثيل معًا ، والتى لم ينشرها أحد من قبل بشكل علمى ، وحصلت من مصلحة الآثار على تصريح بتنظيف هذا المجمع ، وبعثت تباعًا بنتائج عملى إلى شارل بيكار ، وهذا جعلنا نزيح الستار عن الغموض الذى أحاط بوجودهم هنا .

وتوصلنا لاستنتاج أن هذه التماثيل الخمسة عشر ترجع لعصر بطليموس الأول ، حوالى عام ٣٠٦ ق.م ، ووجودهم فى الموقع يرجع للمذهب التوفيقى بين الديانة الإغريقية والمصرية القديمة ، والذى رعاه هذا الملك ، وبالنسبة للشعراء والفلاسفة وعلى رأسهم هوميروس ويقودهم بندار ، فيبدو أن الأمر ذو صلة باحتفاليات الإله ديونيوس ، التى تتم أثناء الاحتفال بأعياد أوزيريس ، حيث تمر مواكب جنازة آبيس ، وقد أكمل عملنا الحلقة المفقودة فى عمل ماربيت ، وبذلت كل ما فى وسعى

لحمايته والحفاظ على هذه التماثيل ، وقمت بتشييد كنيف دائرى لحمايتهم ، وتوضيح مكانهم ، ولسوء الحظ لم يعد يهتم بهم أحد ، ولأنهم بلا حراسة فقد أصبحوا هدفًا لعبث أطفال القرى المجاورة ، وعلى الرغم من طلبى المتكرر فإنهم لم يعطونى شيئًا أستطيع به حماية هذه التماثيل ، وكان علىّ أن أتركهم وهم الآن فى حالة يرثى لها ، وربما يأتى اليوم الذى يختفون فيه تمامًا دونما أن يشعر بهم أحد .

منزله أصبح أثريًّا ، وهو مشيد عام ١٨٥١ بجوار موقع العمل فى السرابيوم ، ويقى بالنسبة لنا نحن الآثاريين الفرنسيين ، مكانًا أسطوريًّا ، وسكن به جن بعض الوقت ثم الآنسة إبرون ، وهى سيدة فى الخمسينيات من عمرها ، أستاذة فى الرسم ، واقترح عليها بيير مونتيه أن تقوم برسومات المقابر ، ويجب القول إنه ينقصنا رسامون مهرة . هذه الآنسة العجوز الصلبة سافرت لسقارة ، واستقرت فى منزل ماربيت ، ومن يوم لآخر وجدت نفسها وسط الصحراء ، لا تعرف أحدًا ولا تعرف كلمة واحدة باللغة العربية ، وبالتالى انغمست فى العمل لعدة سنوات فى المقابر ، وأنجزت عملاً كبيرًا ، ودومًا كانت تجد مضايقات من السياح ، ولو أنها كانت فى أعلى جدار ستجيب بغضب زائرًا يسألها ماذا تفعل ، ومنذ متى تعيش هنا ولماذا ... وعندما كان السؤال المزعج هكذا فى الصحراء توقفت فجأة عن العمل وقذفت بنفسها من علٍ فوق أحدهم قائلة : "أود أن أعرف من يشرفنى بالحديث؟

– أوه ، اعذرينى سيدتى . أجابها مبتسمًا : لم أقدم نفسى ، ألفونس الثالث عشر ملك إسبانيا" . وبعد رحيل الآنسة إبرون حوَّل

المصريون المنزل إلى استراحة ، حتى جـاء اليوم الذى تجـرأ فيه أبله ، لا يعرف من هو مـارييت ، وأقدم على هدم هذا المنزل بحـجة أنه لا يسع السـيـاح الذين يتدفقون على المكان ، وأقـام مكانه خـيـمـة ، ثم شيدت مـصلحة الآثار فى مواجـهة السـرابيوم مبنـى خرسانيًا ليكون مطعمًا . ولأن الأرض لم تكن مـعدة للبناء بشكل جيد فقد غاص المبنى فى الرمل ولم يعد مسـتـخدمًا . وعلى مدار سنوات كان علينا أن نتـعـايش مع هذا المبنى الشـائه فى وسط الصـحـراء ، وبدأوا فـقط قـريبًا فـى هـدمـه منذ فترة قريبة .

اليوم ، أصبح الموقع الذى جعل منه مارييت واحدًا من أهم المكتشفات الأثرية مكانًا حزينًا ، فقد أُغلق السـرابيوم ، وأصبحت خيـمـة السـيـاح مهجورة ، ومـجمـع الفلاسفة قذرًا ومـهدمًا .

المقبرة الجنوبية

الذى سوف أسرده هنا ، مر عليه الآن سبعون عامًا ومع ذلك أتذكره بدقة متناهية ، لقد استدعانى بيير لاكو ، للقاهرة أخبرنى كم هو راض عن عملى ، الأمر الذى أثر فىّ أيما تأثير ، واقترح تجديد التعاقد معى لمدة ثمانية أشهر وقبلت بلا أدنى تردد . ابتداءً لم يكن لدىّ أى رغبة للعودة حيًا إلى فرنسا ، وبخاصة أننى أدرك كمّ العمل الذى ينتظرنى ، هذا التعاقد الثانى هو بداية سلسلة من الالتزامات التى لن تنتهى ولكنها دومًا تتجدد . وهكذا وخلال عدة عقود ، وعندما كنت أسافر لباريس فترة الصيف ، كنت أعيش حتى الخريف غير متأكد من عودتى ، منتظرًا تفضل الإدارة المصرية بوضع إمضائها أسفل ورقة صغيرة ، لكنها بالنسبة لى أهم من وجودى المرتبط بسقارة ، لكن هذه الإدارة المصرية مع ذلك لم تنس أبدًا ، وحتى اليوم تدفع لى شهريًا مائتين من الجنيهات المصرية بوصفى موظفًا على المعاش بمصلحة الآثار ! لو أننى فى شهر مايو عام ١٩٢٧ كنت قد انتهيت من الحفائر ، لكان من الواجب علىّ أن أكتب ما جمعته من ملاحظات وكروكى منذ شهر يناير ، ولم يكن لدىّ أدنى رغبة فى مغادرة منزلى ، ومع مرور الوقت أحس بأننى أفضل ما يكون ،

ومحمد يحرسنى ويقوم بكل شىء ويعرف نوقى فى الطعام ، وأستطيع أن أتحمل الحر إلى نهاية شهر مايو ، ثم عندما يضايقنى الطقس أذهب للقاهرة ، فى شقة أبناء عمومتى التى يغادرونها لقضاء الصيف فى فرنسا ، وأبقى وحدى مع الخدم الذين يقومون على خدمتى ، وبعد الوجود البدائى فى سقارة ، المعيشة الفاخرة هنا فى شقة القاهرة أربكتنى نوعًا ما . يونيو الجارى آخذ المركب إلى مارسيليا لرؤية أقاربى ، وعندما أصل فرنسا يبدو لى أننى تركت مناخًا حالمًا ؛ لأنغمس فى واقع هجرته منذ عدة أشهر .

فى خريف ١٩٢٧ ، وبعد قضاء أربعة اشهر مع عائلتى ، عدت لسقارة لأبدأ موسم الحفائر الثانى وأستأنف أبحاثى التى كنت قد تركتها هنا فى أرض الموقع ، وعملى هنا بوصفى مهندسًا معماريًّا أكثر منه عالم مصريات ، ولاكو المهتم دومًا بعملى لفت انتباهى قائلاً " لا تحاول أن تكون عالم لغات ضعيف، ولكن حاول أن تكون مهندسًا متمكنًا وبهذا تؤدى لنا أكبر الخدمات" ، وهكذا وبمتابعتى لفيرث فى العديد من المواقع المختلفة ، تابعت بنشاط أعمالى فى المجموع الجنائزية لزوسر ، وواصلت بشكل منتظم تنظيف هذه المجموعة التى تبلغ فى مساحتها خمسة عشر هيكتارًا ، ويحيط بها سور يمتد بموازاة الوادى بطول ٥٤٤ مترًا ، وقمت بعمليات قياس لطبقات الأرض هنا للوقوف على الأبواب الوهمية التى نحتت كلها مغلقة، وتوصلت لعددها وهو أربع عشرة بوابة ، أربع فى كل جانب من الجانبين الكبيرين ، وثلاث على كل جانب من الجانبين الصغيرين ، ولم يتبق من هذا السور الذى كان يبلغ خمسة

عشر هيكتاراً ، سوى المدخل الحقيقى الوحيد . والمبانى التى كانت موجودة لكى تحدد السور قبل تشييده تآكلت وأزيلت على أيام زوسر ، وأعيد استخدامها فى تكسية الجدران ، وعثر على العديد من القطع من هذه المبانى وهى تكفى لعمل نص كامل ، وهذا ما أود عمله وعرضه فى متحف سقارة فى المستقبل ، والذى سوف يفتتح ذات يوم ، وعندى يقين أن هذا السور كان تقليداً فى الحجر لسور آخر من الطوب النيئ المطلى باللون الأبيض ، والذى كان يحيط بمدينة منف . ولكن سور زوسر مبنى من الحجر الجيرى الأبيض من طرة ، وفى هذا العصر هذا البناء يمثل طفرة كبيرة ، حقيقة أراد إيمحوتب أن يستريح زوسر فى مقبرته وسط عاصمته .

يأتى لاكو غالباً لزيارتنا فى سقارة ، وكان مهتماً بما يكتشفه فيرث وأنا ، وفى الحقيقة كان عملاً رائعاً أن تستخرج وتبرز للوجود مجموعة آثار متكاملة لم يكن يعتقد أحد حتى يومنا هذا أنها موجودة . ولقد فحص معى الأحجار ، وحاول أن يفهم ماذا عساه تمثله هذه الأنقاض ، وكنا آنذاك أبعد ما نكون عن تصور ما الشكل الذى ستكون عليه هذه المجموعة يوماً ما ، والتى سيعاد تركيبها قطعة قطعة حتى هذه اللحظة ، كأن موقع العمل ساحة معركة ، توجد أكداس من الرمال وقطع من الأحجار فى كل مكان من حول الهرم . لقد انتهى فيرث لتوه من إتمام الكشف عن الدهليز ، واتجه إلى الجانب الجنوبى من السور . أثناء أعمال التنظيف الضخمة يتبدى على بعد عدة أمتار وبارتفاع أربعة أمتار ،

بقايا جدار فى شكل سور ، ولكى ننجز بشكل أسرع فقد جمع عماله من حول الجزء الذى ظهر .

وعلى مقربة من هنا ؛ ومن داخل المجموعة عثر العمال على بقايا حيات كوبرا منحوتة نحتًا بارزًا ، وبعد دراستها بعناية توصلت إلى أنها جزء من أفريز ، ولكن كان علىّ أن أنتظر عدة سنوات لكى أتمكن من إعادتها إلى مكانها ، أولاً كان يجب إعادة بناء الجدار الذى على قمته يستقر هذا الأفريز ، وكنت فخوراً عندما جاء اليوم الذى وجدت فيه حيات الكوبرا التسعة ؛ التى تمثل مصر السفلى بوصفها حاميات ، وتسمى وادحت وأوايوس أيضًا وتتجه شرقًا . العمال منهمكون فى العمل ، وفى الموقع كان فيرث فى قمة الإثارة ، ففى هذا اليوم سوف يشبع فضوله فلقد توصل رجاله إلى جدار ، وفجأة وبين الأطلال عثر على آثار طريق حفره اللصوص فى بناء مستطيل مشيد من كتل كبيرة من الحجر الجيرى ويقع خلف جدار السور . وتوصل العمال من خلال هذا الثقب الكبير إلى درج سلم كان لا يزال مغلقًا ، أول سؤال تبادر إلى ذهن فيرث هو : هل نحن بصدد مقبرة ؟ وعلى مبعدة خمسين مترًا تجاه الشرق وجد العمال ثقبًا آخر ، هذه المرة تمكنا من رؤية بئر عميق ضخم ، والذى فيه حفر اللصوص طريقًا بأن نظفوا الدرج الذى يؤدى إلى نفق ، وعلى مدخله المغلق بالرديم يوجد ممر يمينًا يفتح فى منتصفه على دهليز طوله ثلاثون مترًا ، ولم أترك فيرث ثانية واحدة ، ودخلت الدهليز وكانت المفاجأة أن نكتشف أوانى كبيرة من الطوب المحروق وبجوارها حواملها الخشبية

التى كانت تنقل عليها ، وعثرت كذلك على حوامل عرش تحمل أوراقًا ذهبية ، وواضح أنها نهبت فيما سلف ، فلم تكن تحتوى على أشياء ثمينة ، ولم نطق صبراً حتى نستريح فأخذنا نواصل العمل .

إخلاء النفق سيأخذ وقتًا ليس بالقصير ، وعندما يخلى تمامًا سيتيح الفرصة للوصول للبئر المتفرع من الفتحة الأخرى ، فى بعض الأماكن تظهر فى الجدران أوتاد خشبية كانت مستخدمة لربط الحبال ، ولتسهيل إدخال الكتل الحجرية الجرانيتية ، ولم نكن فى هذه المرحلة قد تغلبنا على العقبات كلها ، فكانت هناك عقبة لم تكن فى الحسبان والتى أربكت تمامًا عملنا : اكتشافاتنا هيجت آلافًا من البراغيث التى تخللت كل شىء حتى داخل أحذيتنا ، والتخلص منها لم يكن بالأمر السهل على الإطلاق ، بالقرب من البئر اكتشفنا حجرة من الحجر الجيرى مليئة تمامًا بالحصى والأنقاض ، ثم هناك عدة درجات توصل إلى نفق آخر وكنت مشغولاً بتقوية الجدران التى كانت فى حالة سيئة ، وكان علىّ عمل قباب من الطوب وعتب ؛ لأن الصخر كان فى حالة من السوء كبيرة جداً فهو متشقق تمامًا ، وهذا ما أخر تقدم العمال فى أعمالهم .

فقط أثناء موسم حفائر ١٩٢٨ استطعنا التوصل للمقبرة الجنوبية الشهيرة ، وبعد عدة أسابيع من العمل الشاق توصل العمل لحجرة صغيرة من الجرانيت نهب منذ وقت طويل كل ما فيها ، وهى ضيقة جدا لدرجة أنها لا تسع جسم الإنسان العادى ، ولم نفهم ماذا كان بداخلها ،

ربما الأوانى الكانوبية المخصصة للملك ، ذرفت عيوننا نحن الاثنين فيرث وأنا ؛ فقد كنا أول من دخل هذا المكان ، وماذا عسى أن نصل إليه بعد ذلك ، وفى هذا المكان كنا نتصبب عرقًا فالحر كأنه نار هنا . واستطعنا أن نصل إلى البئر عبر هواء ثقيل ومحبوس من أربعة آلاف عام ، ثم درج سلم عريض يوصل إلى باب مسدود . ماذا عساه يكون خلف هذا الباب ؟ وصلت الإثارة بنا منتهاها - استدعى فيرث بعض عماله ليثقب هذا الباب المسدود فى جو خانق ، فالهواء قليل جداً ، بدأ العمال فى الدق على الجدران ، شرف أن يكون أول من يدخل إلى قلب المقبرة إحساس ملأ قلب فيرث ، فحاول أن يدخل زاحفًا على أربع لكنه كان ضخمًا فلم يستطع أن يكمل .

أتذكر أننى انفجرت فى الضحك وأنا أرى فيرث ؛ ونصفه بالداخل والنصف الآخر بالخارج ، بينما يحاول العمال أن يدفعوه من الخلف ، لكن لم تفلح المحاولة وبقى محشوراً ولم يستطع أن يدخل أو يخرج ويتراجع ، وكان علينا أن نجذبه من أقدامه لنخرجه من هنا . وقال لى هامسًا مبتسمًا لكنها ابتسامة لا تخلو من غضب وسخرية "لوير أنت أكثر رشاقة ، لماذا لا تدخل أنت أولاً ؟" ولقد كنا مضطربين ، ودخلت من خلال الفتحة ومعى شمعة فى يدى ، ووصلت بعد مترين إلى حجرة أمامية ، حيث لا أحد منذ أربعة آلاف عام دخل هنا ونهضت ببطء رافعًا الشمعة لاستكشاف المكان من حولى . عبرت وقلبى يدق بشدة صالة أولى ، قبل الوصول إلى ممر ضيق ، ودخلت فى حجرة بيضاوية مجهزة بشكل جيد ،

وفجأة كتبت إلى فيرث ، يوجد باب منقوش بألقاب ملكية مثلما هو الحال بداخل الهرم المدرج !" وفى داخل صالة بيضاوية - متعامدة على الصالة السابقة لها - ستة مستويات ، مزخرفة فى نهـايتها بشكل عمود الجد (عمود ينتهى بأربعة عقد متتابعة وذات صلة بالإله أوزيريس)، فقد معظم الفيانس الأزرق الذى كان يغطيه ويلقى على الأرض بعضًا منه ، وممر آخر يفتح على حجرة ثانية بيضاوية ، ورأيت ثلاث لوحات لأبواب وهمية منقوشة بهيروغليفية رقيقة ، أخذت أصرخ وقد اعترتنى سعادة غامرة "إنه رائع ، توجد لوحات ، ثلاث لوحات! .

إننى قادم إننى قادم ! مكث فيرث يصرخ بدوره ، بينما يحاول العمال أن يزيدوا من اتساع الفتحة ، وبانتظاره ، مددت شمعتى نحو جزء مظلم ، لا تدخل فى مقره ، ومعنا لمبة كهربائية ، فالشمعة تسمح لنا بمعرفة كمية الأكسوجين الموجودة ، فعندما تنطفئ نعلم أن علينا أن نخرج ولم أر أثرًا يقدم ، كان لدى ماسبيرو هذه الفرصة عند عبوره أعتاب مقبرة مغلقة منذ عدة آلاف من السنين ، أربكه وجود علامات أقدام على الرمال . أخيرًا وصل فيرث ، جاحظ العين مزهوًا ، وأخذ يتأمل اللوحات ، لقد كانت رائعة ، إحداها تمثل الملك زوسر يجرى جرية الـ "حب سد" . لقد اكتشفنا لتونا دفنة رمزية لفرعون أو مقبرة الكا للملك ، فهو المشابه لقبر المومياء الموجود فى الهرم ، نقلنا هذا الاكتشاف الرائع إلى كشف آخر بعد ذلك بعام ، ولكن هذه المرة أسفل الهرم . أخذ فيرث يفحص الفيانس الذى عثر عليه فى المقبرة الجنوبية ، ويقارنه مع فيانس آخر عثر

عليه من قبل فى رديم الممر الهابط أسفل الهرم ، وتشابههما الكبير جعله يفترض وجود زخارف من عمود الجد أسفل الهرم فى الممرات السفلية ، وبدا ذلك منطقيا ، حيث توجد حجرات جنائزية خارج الهرم فيكون وجود تلك الحجرات داخل الهرم أولى ، هكذا اعتقد. ريتشارد لبسيوس الذى دخل الممرات الداخلية القرن الماضى ، لم يذهب فيها إلى العمق ، فلم ير إلا جزءًا من الحجرات الجنائزية ثم دهليزًا خاليًا من النقوش ، لكنه لم يحفر هناك ، ولم يكن فيرث من جانبه قلقًا بهذا الخصوص ، وقرر هذه المرة أن يباشر العمل هنا بقوة بعمل التنظيف المتتابع للمكان ، واستكشاف أصغر حجرة بدقة . وكوفئ على مجهوداته عندما عثر فى حجرتين على فيانس أزرق ، واحتوت حجرة على ثلاث لوحات للملك مشابهة لتلك التى عثر عليها فى المقبرة الجنوبية ، أقل جودة ، وبالأخرى ثلاثة مستويات من الزخارف من عمود الـ "جد" ، وبعد عدة سنوات وبموافقة لاكو نزعنا الفيانس لإعادة نظمه ووضعه بالمتحف المصرى ، فقط لدى متحف برلين نموذج من هذا الفيانس الأزرق ، وهو الفيانس الذى جمعه لبسيوس من الهرم فى عام ١٨٤٣ ، ووجد من الأفضل أن نعرضه بالمتحف من أن نرممه فى داخل الهرم ، حيث لن يسمح لأحد أبدًا بالدخول نظرًا لخطورة المكان .

الخلاصة التى فرضت نفسها علينا هو أن إيمحوتب شيد من أجل زوسر مقبرتين ، مقلدًا القصر الملكى فى منف ،المقبرة الموجودة بالهرم غير مكتملة والسؤال الملح : لماذا مقبرتان فى المجموعة الهرمية نفسها ؟

وكان هذا السؤال موضع سهرات للنقاش سويًا ، فيرث وأنا نستعرض الأسباب كلها التى دفعت بإيمحوتب إلى أن يقوم بهذا . ونظرًا للعثور على بعض أجزاء من مومياء زوسر فى حجرة أسفل الهرم فمن المرجح أنه دفن هنا ، ومن ثم وجدنا أنفسنا مدفوعين لقبول الفرضية القائلة بأن المقبرة الجنوبية كانت لدفن الأوانى الكانوبية والتى تحفظ بها أحشاء الميت ، ولكن لماذا تحفظ على بعد مائتين من الأمتار من الجسد ، خلال عصر الأسرتين الأولى والثانية ، التى تسمى بالأسرات الثينية ، كان التقليد السائد أن يكون للملك مقبرتان ، واحدة فى سقارة فى مواجهة عاصمتهم فى منف والأخرى مجرد مقبرة رمزية فى جبانة الأجداد فى أم الجعاب بالقرب من أبيدوس . المقبرة الجنوبية لزوسر ، لعلها تخليد للمقبرة الرمزية التى كانت تشيد فيما سبق فى جبانة الجنوب ، ولكن لا توجد أى وثيقة فى الوقت الحالى تؤكد هذا الفرض .

وكانت هذه فرصة ، أن أشارك فى إحراز مثل هذه الاكتشافات غداة وصولى تقريبًا ، وهو الأمر الذى لا يحظى به الكثير من الآثاريين ، لكن هذه الخبرة لم تكن وحدها هى التى دفعتنى للبقاء فى سقارة ، إننى بقيت ليس انتظارًا لمكتشفات كتلك التى أحرزها كارتر عندما اكتشف مقبرة مليئة بالكنوز ، ولكن لسبب أبسط من ذلك وهو استكمال الحفائر . هذا مؤكد ، لكنها حفائر ذات طبيعة مختلفة ، ففى هذه المجموعة الجنائزية الرائعة ، والتى هى تقريبًا مهدمة ، يوجد بحث آخر مهم كذلك : وهو اكتشاف معمار إيمحوتب ، والعثور على أثر تضعه فى مكانه .

هذا أمر مـهم ولكن المحيـر أن تضع العنصـر المـائة فى عـمـود ، وأجد سعادة عندما أتأكد من وضع حجر فى مكانه من البناء أو أتوصل للشكل الفنى الذى كان عليه . لا يتصور أحدكم كم أكون سعيداً عندما أستطيع إعادة مبنى شيده هذا العبقرى كما كان ، وما شـيده إيمحوتب ذو مغزى أبعد من المرئى ، حيث يتعداه إلى ما وراء ذلك ، إلى العـالم اللا مرئى ، إلى عالم روحى لا تستطيع الكلمـات أن تعبر عنه .

الفيانس الأزرق

تعرفت ميمى على سقارة قبل زواجنا حيث جاءت لزيارتها يومًا فى صحبة والدها الذى كان يقوم بزيارات منتظمة لكى يتفقد ما يجرى من أعمال كانت بالنسبة لها جديدة لم تعهدها ، حيث وقعت فى حب الصحراء بأبعادها الشاسعة وهدوئها . وعندما سكنت فى منزلنا الصغير اعتادت أن تنهض مع شروق الشمس كل صباح ، وعندما نتذكر هذه الفترة الآن نكتشف أننا نحتفظ بذكريات رائعة ، فلقد كانت بالنسبة لكلينا أوقاتًا من السعادة الخالصة . وحتى يكون لميمى حجرتها الخاصة أخذت فى تشييد حجرة كبيرة بامتداد المنزل ، والتى ستكون الأتيليه الخاص بها، وأحضرت إليها البيانو الخاص بها من القاهرة ، نقلته عربة نقل قديمة حتى سقارة ، ثم صعدوا به إلى المنزل على ظهر جمل وكانت هذه مهمة جديدة على الأهالى فى القرية الذين هرعوا ليشاهدوا الجمل بحمولته الغريبة ، فلم ير أحد من أهالى سقارة بيانو قبل ذلك ! ولما كانت ميمى تحب الكتب مثلى ونهمة فى القراءة ، فإنها ورغم ما اعتراها من إصابة بالعمى استمرت تستمع للكتب ، ورويدًا رويدًا أصبحت مهتمة بالتاريخ ومحبة للحضارة المصرية القديمة ، وبخاصة كل

ما يتعلق بالدولة القديمة ، وكنت سعيداً بذلك لأنها سوف تتفهم ما أعمل ، وأحيانًا ما يحدث أن تأتى لموقع العمل وأكون فخوراً وأنا أريها المكتشفات الجديدة ، جزءًا من واجهة ، كسرة من عمود أكون قد وضعتها فى مكانها أو سوف أفعل ، وهكذا أصبح معى شخص آخر أشاركه حماسى .

ولأنها تحت الرسم فقد أحببت أن تشترك فى الأبحاث عن طريق قيامها بعمل الرسومات اللازمة بالموقع ، ولكن لم توجد آنذاك أية سيدة تعمل فى موقع حفائر ، لأنه عمل يحتاج تكوينًا جسمانيًا قويًا ، فهو مضنى بالنسبة لسيدة ، كما أننى لم أحب أن أرى ميمى وسط هذه الأحوال القاسية ، فى هذه الأيام ترى سيدات من أمثال كاترين برجر أو إيزابل بيير فرضن وجودهن ومعرفتهن وموهبتهن ، أما فى عام ١٩٢٩ فلم يكن الأمر كذلك .

ذات يوم ، استدعى فيرث زوجته مثل ميمى لتنزل فى المقبرة الجنوبية لكى يسعدا برؤية الزخارف والفيانس الأزرق الذى اكتشفناه لتونا ، وكان فخوراً بذلك وأخذ يشرح كيفية إعداد هذه الزخارف خارج المقبرة أولاً ، ثم يكسونها بالفيانس الصغير الموصول مع بعضه البعض بواسطة خيوط أو حبال صغيرة ، ولسوء الحظ فإن أغلبها انفرط ووقع على الأرض ، وأتذكر نظرة ميمى ، فلقد كانت مفتونة ، وفى المساء قالت لى ، ونحن نتناول طعام العشاء إنه لخسارة ألا يوجد من لديه القدرة على إعادتها لمكانها، وكان مجال الحديث متواصلاً ربما استمر عدة أيام ،

واتفقت معها فيما قالت وتحدثنا مع فيرث فى ذلك ، وكان بدوره يوافقنا الرأى ، وأبدى أسفه لعدم تمكنه من مباشرة ذلك فى الوقت الراهن ، فكانت هناك أولويات أخرى فى الموقع، ولم يكن لدىَّ ولا لديه الوقت لعمل إعادة نظم لهذا الفيانس الأزرق ، واقترحت ميمى التى كانت تنتظر هذه الإجابة أن تقوم هى بهذا العمل الدقيق ، وأضافت أن مدام فيرث ستكون سعيدة بأن تلتحق بها فى هذا العمل ، وأمام حماسها قبل فيرث بالأمر ، وفى اليوم التالى كانت السيدتان منهمكتين فى العمل .

ولم يكن النزول إلى المقبرة الجنوبية كما هو اليوم عن طريق الدرج الكبير المقطوع فى الحجر ، ولكن كان عبر أكوام الرمال وكسر الأحجار حتى الوصول إلى الفتحة التى من خلالها نصل إلى الممرات الواقعة تحت الأرض ، ثم ندخل فى حجرات ضيقة وننزل أكثر حيث الجو الخانق ، وهكذا وبعد تغلبهما على هذه العقبات وجدتا نفسيهما محشورتين داخل المقبرة يتبعهما بعض العمال الذين بعث بهم فيرث ليكونوا فى خدمتهما . أولاً قامتا بجمع كل الفيانس الواقع على الأرض للخروج من المقبرة ، وفى الضوء حاولا تنقيته وتنظيفه من التراب الذى علق به وغطاه تقريبًا تمامًا . وللرغبة فى رؤية لونه الأصلى كان عليهما أن تغسلاه فكان أن حملناه على ظهر حمارة حتى منزل فيرث ، ووضعتاه فى أحواض مملوءة بالمياه وبعد إتمام هذه المهمة ، عادت ميمى لتستريح بالمنزل .

وفى المساء جاءت تبحث عنى عند فيرث حيث اعتدت أن أمر به فى طريق عودتى للمنزل ؛ لأتناول معه كأسًا ، وهى عادة نحافظ عليها .

ودخل الليل وعند اقترابها من المنزل سمعت ميمى ما يشبه أصوات عصافير ، ودقت الباب وعندما ظهر فيرث بادرته مازحة "أعندكم عصافير الآن ؟ ماذا تفعل ، أتغنى فى هذه الساعة ؟ وانفجر فيرث فى الضحك ، وأدخلها وقادها إلى الحجرة التى تنبعث منها هذه الأصوات ، واكتشفت أنه الفيانس الأزرق كان جافًا تمامًا ، فهو مطمور تحت الأرض آلافًا من السنين ثم هو الآن مغمورٌ فى الماء ؛ فأخذ يحدث هذا الصفير المدهش جدا .

وفى اليوم التالى ، وبعد إتمام عملية تنظيف الفيانس ، باشرت السيدتان المهمة الأصعب حيث هبطتا على عمق ثلاثين مترًا لتباشرا وضعه فى أماكنه من الجدران فى هذه الحجرات الضيقة التى يقل فيها الهواء كثيرًا ، وهو عمل يتطلب دقة وصبرًا . وكانت ميمى سعيدة أن تشارك فى أعمال لم تؤهل لها ، لدرجة أنها نسيت أنها حامل فى عدة أشهر ، وشاء الحظ العاثر أن تنتهى التجربة بفقدان ابننا الأول . الإجهاض فى وسط الصحراء مصدر ازعاج ، فعندما تحس ميمى بألم أكون فى موقع العمل ، ويأتون يبحثون عنى على وجه السرعة ، الكل مذعور وأنا أولهم ، ولاستدعاء طبيب من الجالية الفرنسية يجب علىّ الإسراع إلى فيرث الذى كان الوحيد الذى يمتلك تليفونًا ، كما أنه لم تكن هناك سيارة لنقل المريضة ، لكن الأكثر غرابة فى هذا البلد الذى ليس لديه وسائل نقل كافية أنه فى عدة ساعات كان الخبر فى القاهرة ، ووصل لمسامع مدام ديجاردان ، زوجة مدير شركة الغاز ، وبعثت من

فورها سيارة بقائد إلى سقارة لنقل ميمى للمدينة ، وفيرث ورغم الهلع العام كان الوحيد المتماسك ، وأمر عماله بإعداد سرير مناسب على الكنبة الخلفية فى السيارة ؛ لكى تكون الرحلة أكثر راحة ، ففى ذاك العصر كان هناك تعاضد بين أبناء الجالية الفرنسية فى حالة وجود مشكلة .

ومكثت ميمى بعض الوقت فى قصر المنيرة لكى تعتنى بها والدتها ، وعند عودتها لسقارة غمرتها زيارات الأصدقاء الذين جاءوها مهنئين بسلامة العودة ، وتم شفاؤها من هذا الحادث الدرامى ، ولعلى لم يعد لدىَّ الرغبة فى أن تعمل زوجتى بالموقع .

أبو الهـــول

بعد تعيينه مديراً لمنطقة آثار الجيزة فى عام ١٩٨٨ كان زاهى حواس يعطى هذه المنطقة ما تستحقه من اهتمام ، وكان فى خطته إزالة أسلاك التلغراف والطرق الأسفلتية والتجار الجائلين ؛ لإظهار ما للموقع من عظمة . ومع أنه على مدار اثنتى عشرة سنة ، أحرز العديد من الاكتشافات فإنه لم يستطع إزالة القبح الذى يحيط بأشهر ثلاثة آثار على مستوى العالم ، فلم يعد الموقع نهبًا فقط للتجار من كل لون ، ولكن زحفت عليه المدينة لتخنقه ، فالعمائر الخرسانية أكثر قبحًا من غيرها . هذه الروائع التى غالبت الدهر أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة عام ، هى اليوم فريسة لأخطار الحضارة ، والحضارة حقًا ليست جميلة ، فالقاهرة المدينة تقضى على الهضاب الفاصلة بين المدينة وأبو الهول ، هذا بالإضافة لسحائب التلوث السوداء ، التى تترسب على الأحجار ، ولحسن الحظ منذ عدة سنوات وبضغط من اليونسكو أبعدوا الطريق الدائرى عن منطقة أهرام الجيزة ، ولكن فقط لعدة كيلو مترات فى اتجاه سقارة ، الدراما الحقيقية فى مصر هى استفحال الفساد ، حتى رئيس الجمهورية لا يملك وسائل للحد من تكاثره ، هؤلاء يعرفون كيف يشترون سكوت

مفتشى الآثار الفقراء ، لكى يُتركوا ليبنوا على مواقع أثرية عمائرهم الأسمنتية بسرعة وقبل أن يتحرك أحد ، هكذا فهم الأمر وخبره المتخصص فى المصريات صلاح النجار ، وكان لتوه قد اكتشف موقعًا وبقايا الميناء القديم للملك خوفو الذى كان يصل النيل بالأهرام ، والذى كان يستخدم فى نقل الأحجار والبضائع ، وهذا الكشف الذى كنا ننتظره منذ سنوات كان من الأهمية فيما يختص بمدى فهمنا لنمط الحياة فى الدولة القديمة ، وقاتل صلاح قتالاً شرسًا للحفاظ على الموقع ولكن بلا جدوى ، فقدم استقالته للمجلس الأعلى للآثار وهو التسمية الجديدة لمصلحة ، الآثار وترك مصر نهائيًا ليعيش الآن فى باريس .

فى عام ١٩٢٦ عندما زرت الجيزة كانت رأس أبى الهول مختفية تحت سقالات خشبية ، فمنذ عدة سنوات وتحت قيادة بيير لاكو تقوم مصلحة الآثار بتنظيف التمثال وما حوله على مدار قرون ، ظل هذا الحيوان العجيب سرًا غامضًا تمامًا ، وابتداء من عصر الدولة الحديثة كانت رأسه فقط هى التى تبرز من الرمال وتسبب دهشة للرحالة ، ولم يغامر أحد بعمل مضن حول هذا التمثال المغمور فى الرمال ، حتى علماء الحملة على مصر فى ١٧٩٩ لم يجرءوا على الإقدام على مثل هذا العمل ، ففيفان دينون استغرق وقتًا طويلاً لكى يصف ما يراه ، آخذًا فى اعتباره حجم العمل ، ويتعجب " إن هذا يستغرق العمر " .

ولقد دهشت عندما رأيت التمثال للمرة الأولى ، حتى وإن غطت السقالات الخشبية جزءًا فإن ابتسامته كانت واضحة ، وكان الإيطالى

جيوفانى كافيجليا الذى كانت لديه الشجاعة ليباشر فى عام ١٨١٧ عملية إزالة الرمال من حول التمثال ، ووصل حتى بلاط المقصورة ، واكتشف ما لم يره أحد منذ العصور القديمة وهو لوحة الفرعون تحتمس الرابع من الأسرة الثامنة عشرة والتى تشكل جزءاً من مقصورة بين أقدام أبى الهول ، ولكن وأثناء رحلة شامبليون عام ١٨٢٨ اختفى التمثال مرة أخرى تحت الرمال ، وبناء على طلب رئيس المرممين بقسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر أمانويل دوروجيه جاء ماربيت فى عام ١٨٥٣ محاولاً تنظيف التمثال ، وقد جمع لهذا الغرض عدة عشرات من الرجال . لا شىء فى بناء التمثال يسمح بالقول بأنه كان يوماً ما مقبرة ، كان ماربيت مثل ماسبيرو يرى أن أبا الهول أقدم وسابق لعهد خوفو ، ولكننا نعلم الآن أنه جزء من المجموعة الجنائزية للملك خفرع الذى يوجد هرمه على مقربة منه ، ووجهه يمثل وجه هذا الفرعون من الأسرة الرابعة . بعض الفجوات هى التى أدت إلى الخطأ فى التاريخ الذى وقع فيه هذان العالمان ، هذه الفجوات تغلبنا عليها فقط بعمل حفائر متعمقة عام ١٩٨٠ .

حدثت دراما فى عام ١٩٨٨ عندما تهدل جزء من الكتف الأيسر من التمثال ، كتلة تزن مائتين من الكيلو جرامات سببت جدلاً لا ينتهى لدى المتخصصين ، منذ عام ١٩٨٢ قرر المصريون أن يقوموا بأعمال الترميم الخاصة بأبى الهول ، وارتكبوا أخطاء كثيرة على رأسها استخدامهم لنوع من الأسمنت صلب جداً يسبب تفتت الأحجار ، ولا أحد يجهل أن أبا الهول ضعيف ، منذ ملايين السنين يعتقد

الناس كلهم أن أبا الهول يخبئ كنزًا بداخله . وأخذ كلٌّ يحفر على طريقته محاولاً الوصول لهذا الكنز ؛ فيَحْدُث بذلك تلف فى التمثال ، الذى أصبح كأنه مصفاة لكثرة ما به من ثقوب وتلف ، وهناك سبب آخر لإضعاف التمثال وهو أنه منحوت من صخر الهضبة التى تعانى منذ زمن طويل جدًا من تسرب المياه الجوفية . سقط الكتف العام السابق واكتشفوا تجمعات من المياه بين أقدام أبى الهول ، وتفهم المصريون أخيرًا خطورة الموقف وقبلوا بأن يشارك علماء من الدنيا كلها لعلاج أقدم مريض فى تاريخ البشرية ، حيث يجب إنقاذ التمثال بأى ثمن . وأسرع كل عالم يقدم ما لديه من حل لتحسين حالة الأثر وتقويته ، اقترب البعض من حد السخرية مثل فكرة جمعية "جتى" بالولايات المتحدة : وهو أن نحيطه داخل صوبة من البلاستك بصفة مستمرة ، وأخيرًا أخذت أعمال ضخمة طريقها للنور واستبعد الأسمنت وحل محله مونة أكثر ليونة وأقل سمكًا ، وأعاد الفنانون الخطوط الخارجية للتمثال كما كانت بعد أن اختفت ملامحها بفعل أعمال الترميم غير العلمية التى سبقت . ينعم اليوم أبو الهول ببعض مظاهر الروعة ؛ وإن بقى هشًا وظل يعانى من نحت الرياح والرمال والرطوبة والتلوث ، ولم تباشر أى خطوة فيما يخص النقطة المركزية للحفاظ على آثار الموقع وجماله وهى إعادة تنظيم كلية لهضبة الجيزة .

وفى بداية الثلاثينيات عندما كنا نأتى للتنزه أنا وزوجى حول الأهرام ، كنا نمر بمينا هاوس لنتناول الشاى ، وكان الفندق الأكثر فخامة فى مصر فى ذلك العصر ، ويقع فى مواجهة الأهرام الثلاثة ،

وبالداخل كانت هناك مجموعة من الآثار جاءت نتيجة لإزالة بعض أحياء القاهرة القديمة - وفى متنزهه ووسط الخضرة الجميلة ، كان أول حمام سباحة فى مصر ، والذى كان مصدر جذب للطبقة البرجوازية القاهرية ، والذين كان لهم فقط الحق فى الدخول إلى هذا المكان المثالى . ومن شرفته كنا نطل على الموقع ، وكنا فى قلب الصحراء والسكون ، وكأن أبا الهول ينهض حارسًا على عالم خفى ، كان التمثال بوضعه فى مواجهة صحراء غامضًا وفاتنًا بالنسبة لنا ، ولطالما سعدت بتدرج الألوان فى المشهد من أمامنا ، منذ وقت طويل لم أعد لمينا هاوس ، ولقد ابتلعت الفندق كما ابتلعت الموقع بأسره تلك الخرسانة المسلحة .

الأربعون ألف إناء

كان عام ١٩٣١ عامًا مميزًا بالنسبة لنا ، فقد غمرتنا السعادة عندما رأينا بين أيدنا طفلنا الأول ، ولقد أسميناه بيير ، وقد عشنا دراما رحيل سيسيل فيرث ، هذا الموت المبكر جعل الألم والحزن يعتصرني ، حُمِل على أثر احتقان في الرئة على متن مركب فى الصيف إلى إنجلترا ، ولقد ترك رحيله فراغًا لم تملأه السنون ، وبقيت لسنوات طوال متأثرًا برحيل هذا الصديق العزيز جدًا والنادر جدًا كذلك ، وبدونه لم تعد الحياة في سقارة كما كانت ، فلقد كانت لديه الموهبة التى بها يستطيع أن يبعث النشاط فى من معه ، ففى صحبته كل شىء ممكن ، ووجوده يبعث على الاستبشار ، اجتماعى ويمازح الزوار ، وهو يقص عليهم قصة اكتشاف تمثال زوسر ، ذات يوم وكنت فى صحبته وحكى لإحدى السائحات أن هرم زوسر شيد فيما يفترض عام ٢٧٠٠ [ق.م] ، وفجأة سألته السيدة إذا ما كان ذلك قبل ميلاد المسيح ، فقال "نعم سيدتى إنه قديم جدا لدرجة أننا لم نعد نعرف بشكل جيد" .

أتذكرسعادته عندما علم بأن ميمى حامل من جديد ، وأراد أن يشرف معنا على أعمال توسعة المنزل ، حيث كان يلزمنا حجرة أخرى ،

والعمال هنا يعملون طبقًا للتخطيط على الأرض ، وعندما رأى طائر اللقلاق يحلق من فوقنا استدار نحوى قائلاً : "عليكم أن تشيدوا حجرة للطفل الثاني ، وكان محقًا فلقد وصل دانييل بسرعة كبيرة بعد أخيه بيير .

آخر اكتشاف كبير شاركت فيه مع فيرث كان فى الشتاء الماضى ، عندما كنا ننظف ما حول هرم سركاف ، مؤسس الأسرة الخامسة ، فلقد عثر على رأس من الجرانيت ضخمة هى جزء من تمثال عملاق للملك نفسه ، وكان اكتشافًا مهمًا لأنه حتى هذه اللحظة كان تمثال أبى الهول بالجيزة هو المثال الوحيد للتماثيل الضخمة من الدولة القديمة ، وكان فيرث يجعلنى أشارك فى أعماله حتى وإن كانت خارج دائرة زوسر . وبوفاته وجدت نفسى الأثرى الوحيد فى شمال سقارة ، وأتممت لتوى عامى التاسع والعشرين ولكنى لم أرهب حجم العمل الضخم الذى ينتظرنى، بعد خمس سنوات فى مصر أصبح العمل فى الموقع باعث وجودى ، وشعرت أننى فى مكانى المناسب ، كما كان شعورى بعد زواجى من ميمى ، وبعد طفلنا الأول وجدت الاستقرار التام .

ومع ذلك فقد أربك رحيل فيرث الحياة فى الموقع ، وواصلت الأعمال ، وكرست جزءًا من شتاء عام ١٩٣١ لاستكمال الرفع المعمارى للسور الكبير للملك زوسر ، ومن جانبه ألح لاكو فى أن يأتى كويبل المتقاعد والموجود فى إنجلترا لينشر الملاحظات التى تركها فيرث عن المجموعة الجنائزية للهرم المدرج . والخلاف الذى ثار بين فيرث وجن أزعجه ، ومن ثم جاء متشدداً فيما يتعلق بعملية النشر ، حيث اعتقد وهو محق أن

العثور على آثار لا يجعل العلم يتقدم إن لم ينشر بشكل علمى ، وتمنى أن أسجل كتابةً بمساعدته كل ما جمعناه من ملاحظات حول الهرم ، حاولت إقناعه فى أحد اللقاءات أن لدينا وثائق كثيرة فيما يتعلق بالعمارة الخارجية للهرم لكن الدهاليز الداخلية فى معظمها لم تكتشف بعد وأننى أرى أمامنا عملاً كبيرًا ينتظرنا ، وقد كنا نهبط إلى الداخل ، ونحاول أن نفهم مغزى ووظيفة هذه الدهاليز الغامضة ، وعثرت على إحدى عشر بئرًا أعدها إيمحوتب لدفنات أفراد العائلة المالكة ، لكننا لم نستطع أن ندخل هذه الآبار لأنها لم تنظف بعد.

عندما دخلنا حجرة اللوحات لاحظنا وجود فتحة كبيرة فى الأرضية ، ربما حفرت فى العصر الصاوى من القرن السادس قبل الميلاد ، والذين وصلوا إلى الدهاليز التى تقبع على عمق ثلاثة وثلاثين مترًا تحت مستوى قاعدة الهرم ، وكنت أود استكمال العمل لمعرفة الهدف من هذه الدهاليز الغامضة . وبعد موافقته على استئناف الاستكشاف أعطانى لاكو فريق عمل صغير مكون من خمسة عشر فردًا ، فلم يكن يرى أهمية كبرى لأعمال التنظيف ، وبدأنا كوييل وأنا وبعد تنظيف حجرة اللوحات ، ثم تقدمنا داخل دهليز يقودنا على مسافة قصيرة إلى دهليز يتجه شرق غرب ، حيث اكتشفنا تابوتين من الألباستر ، وقد حطم اللصوص غطاء كل منهما ، يحوى واحد منهما تابوت خشبى فى حالة سيئة ، لدرجة أننا لم نتمكن من معرفة طريقة عمله فى الحالة . وعندما حاولنا إخلاء التابوت لجمع القطع الخشبية عثرنا على عظام طفل صغير يبلغ من

العمر حوالى ثمانية أعوام ، والأكثر دهشة هو أن المصريين كانت لديهم معرفة متقدمة بطريقة صناعة الخشب وتعشيقه معًا ، والسؤال الآن الذى يطرح نفسه هو لماذا وجود تابوتين فى الدهليز نفسه ؟ بعد بعض التردد توصلت إلى التقريب بينهما وبين وجود مقبرتين لزوسر ، ولأنهم فى الأسرة الثالثة يضعون الأوانى الكانوبية فى تابوت حقيقى ، ويمكن افتراض أنهم وضعوا فى المقبرة الأولى الجثة ، وفى المقبرة الثانية الأوانى الكانوبية ، وما اكتشفناه حديثًا جعلنا نتأكد أن الهرم المدرج لم يكن مقر دفن الملك وحده ، ولكنه كذلك لأفراد العائلة ، ولم تكن هذه هى الحال مع ما تلا من أهرام ، فقد صارت مقبرة خاصة بالملك وحده .

نتقدم ببطء بالنسبة لكويبل عملية الهبوط والخروج لمسافات تصل لثلاثين مترًا فى العمل كانت شاقة بالنسبة لعمره ، وفى كل يوم لا نأتى بجديد ، ومما أثار إعجابى صلابته وشجاعته ، ويخمن وأتفق معه أن مقبرة زوسر لم تبح بأسرارها كلها ، ذات يوم وفى الصالة التى كنا نعمل فيها حيث اكتشفنا التابوتين من الألباستر ، وفجأة عندما رفعنا رأسنا رأينا أوانى حجرية تبرز من الجدار وبدأنا بسرعة نجذبها ، وكانت كثيرة ولم نصدق أعيننا ، واعتقدنا بوجود دهليز آخر بالخلف ، ولكن الصخر كان فى حالة سيئة جدًا لدرجة حالت دون عمل اختبار ، واخترنا جزءًا أكثر صلابة ، وحفرنا ثقبًا أفضى إلى دهليز ملىء بالأوانى من الألباستر وأحجار أخرى صلبة . واحتفظت برؤية وذكرى خاصة بهذا الحدث ، فجأة أخرجت آثارًا وأدوات كانت مدفونة هنا منذ خمسة آلاف عام ،

كأنها الحمم تتجه نحو الفتحة ، ونحن مذهولون ولا ندرى ماذا نفعل لإيقاف هذا التدفق، وكان مذهلاً رؤية هذا الكم الهائل من الأوانى، ولكنها لسوء الحظ مهشمة فى أغلبها ، نحن أمام سلسلة من المخازن المصونة والمخصصة لملكات أو أميرات، وهذا جعلنا نتخيل ما كان عليه حال الدهاليز العلوية المخصصة لأدوات الملك وأثاثه والذى من المؤكد كان أكثر ثراء وفخامة ولكنه نهب منذ وقت طويل .

إزالة الركام وتنظيف المبنى السفلى يمثل عملاً شاقًا مستمرًا لعدة شهور ، والمشكلة هى ألا نخلط الكسر مع بعضها، على أمل أن نستطيع أن نعيدها ونرممها فيما بعد، فهى عندما وضعت كانت سليمة وكاملة ، وكان علينا أولاً أن نجمع الكسر كلها التى تنتمى للآنية نفسها معًا على ورقة ، وقرر لاكو أن نصنع صناديق من الخشب خاصة لاحتواء القطع بشكل منتظم ، عشرات من الصناديق تملأ يوميًا ، ومن ثم كان يجب تشييد مخزن ليستوعب ألفًا وثلاثمائة صندوق ، ومخزن آخر بسعة مضاعفة انتظارًا للموسم التالى ، وإجمالى الصناديق بلغ ستة آلاف ، وكل صندوق أخذ رقمًا وتاريخ استخراج القطع التى يحتويها .

قاد العمل الأستاذ محمود على إبراهيم رئيس عمل، ذو خبرة ويتمتع بحيوية نادرة ، وهو يعرف كيف يوجه عماله فى هذا العمل الشاق والخطر ، وأصبح الجو أسفل الهرم خانقًا وداهم العمال إجهاد مخيف ، وبالتالى أوقف محمود العمل وأمر العمال بالخروج من الهرم حتى يتجدد الهواء بداخله . وبدأت العمل فى ستة دهاليز أخرى مشابهة ،

الأول منها فقط هو الذى يحتوى على أوان . أربعة مواسم من ١٩٣٣ وحتى ١٩٣٦ استغرقتها عملية التنظيف وإزالة الركام . وكم حزنت لعدم وجود فيرث معنا ، وهو الذى طالما تساءل حول هدم الدهاليز . هذا العدد الهائل من الأوانى من الأحجار كلها من الشست والألباستر والبرشيا الأحمر من أسيوط ومن جرانيت أسوان ، كلها صنعت للاستخدام فى العالم الآخر ، ولكن هذا بالنسبة لنا صعب التصور ، حوالى أربعة آلاف آنية سليمة وألف رممناها ، وما تبقى ربما كسر ، حوالى أربعين ألف إناء . هذا الكم الهائل من الأوانى الملكية الخاصة بالملك زوسر ذات صنعة دقيقة ، تنم عن تقدم ومهارة فى هذا العصر البعيد ، وخاصة أنها من أحجار صلبة .

وبدأ بيير لاكو فى الدراسة اللغوية ، وخلال عدة سنوات أخذ ينسخ الهيروغليفى المنقوش على الأوانى ، ويحاول أن يفسر بصبر لا ينفد آلاف النصوص القصيرة جداً التى توضح اسم المالك ، الملك أو شخصية كبيرة ، وأحياناً اسم الأثر الذى من أجله كرست الآنية ، ووجد فى النقوش أسماء كل الملوك فى الأسرتين الأولى والثانية . ونصوص أخرى مكتوبة بالحبر توضح اسم الصانع أو الذى أهداها وعلامات الأتيليه ، وأحياناً فى أى المناسبات كانت هذه الهبة ، ومجموع هذا العمل نشر فى ثلاثة أجزاء ممهورة باسم لاكو وأنا . وذات يوم مشرق ووسط كِسَر الأوانى والفخار عثرت على أختام من الصلصال باسم حورس ، وست خع ، سخموى آخر ملك من الأسرة الثانية ، وحورس نترى خت ، وهو زوسر ، وهذه الأختام كانت تختم بها أكياس من القماش عند نقل الأوانى لأول

مرة للخزانة الملكية ، والتى استخدمت لثانى عملية نقل حملت فقط اسم حورس نثرى (خت) وهذا يدل على أن الدهاليز استخدمت ثم أغلقت بواسطة زوسر نفسه ، هذه الأختام كما اتضح فيما بعد ، ذات صلة بأحداث ترجع لأواخر عصر الأسرة الثانية ، فقد حدث انقسام فى الملكية ، برايب سن ملك مغتصب للعرش من الملك الحاكم الشرعى وقتله واستولى على مقبرته فى سقارة ومزاره الرمزى فى أبيدوس ، ولكن باعتلاء حورس خع سخم للعرش ، أوقف هذا وقضى على برايب سن بعد أن احتمى فى هيراكونبوليس فى جنوب مصر ، وأعاد توحيد مصر وغير اسمه إلى خعْ سخِمْ وِى الذى يعنى "الذى وفق بين الإلهين" ، وبعد نصره استقبل فى سقارة وأبيدوس الأوانى من المقابر الملكية التى اغتصبها برايب سن ، ثم وضعها فى أكياس من القماش ووضعت فى الخزانة الملكية . وخليفته كان زوسر ، ووضع فى هرمه الذى اعتقد أنه مصون هذه الآلاف من الأوانى ، وهو أسلوب بالنسبة له رمزى ، فربما يستطيع بذلك أن يعيد الأوانى لسابقيه .

بعد هذه الاكتشافات لم يتبق أمامنا كوييل وأنا إلا البدء فى كتابة تقرير الحفائر ، كتاب (الهرم المدرج) الذى عملنا فيه بالتالى ربما كان أفضل لو أن فيرث شارك فيه ، وللأسف فى هذا العصر الذى بدأنا نكتب فيه هذا العمل ، بدأ كوييل يفقد الذاكرة وولم نعثر على ما كتبه فيرث .

الزيـــارات

على أيام فيرث كانت تسليتنا تتـأتى من الزائرين ، فلم نكن نقلق من زيارات الشخصيات المهمة والتى معها نسعد فى مباشرة أعمالنا . فى بداية الثلاثينيات استقبلت المـارشـال فرانشى إسبرى ، قائد جيوش الحلفاء القديم فى عام ١٩١٨ الذى كان لا يزال نشيطًا جدا ، وكان مهتما بالأرقام جدا : ما ارتفاع هذا الهرم ؟ ما طول هذا السور ؟ هكذا كان يسأل دومًا . وأتذكر تعجبه عندما ذكرت له عمر الهرم المدرج وهرم ونيس ، وأعطيته التاريخين بالتتابع ٢٧٣٠ و ٢٤٠٠ ق.م تقريبًا ، " كيف ونيس ٢٤٠٠ [ق.م] فقط" ؟! .

وكنا نشاهد قوافل السائحين تمر هنا ، شخصيات إنجليزية كثيرة على ظهور حمير حقيرة ، ونساء بقبعات صيفية ، فقد كانت سياحة مختلفة أنيقة وأكثر ثقافة منها اليوم ، وكان السياح لديهم إحساس تام بالمواقع التى يستكشفونها بعد الحرب ، بدأنا نرى ما أسموه أفواج السائحين ، ومنذ عدة عقود أصبحت المواقع تراهم يفدون كأنهم قطعان فى أتوبيسات مكيفة ، وبعضهم نصف عار أو فى زى يثير السخرية ، وهذا مؤسف ، قبل هذا التدفق ، سقارة كانت بمثابة الحجرة الأمامية

لنادى سبورتنج أو اجتماعات شبرد ، واكتشافات مقبرة توت عنخ أمون كانت بالنسبة لغالبية الزوار حدثًا مثيرًا ، وكانت غالبية هؤلاء يأتون ليستمتعوا برحلة على متن النهر الأسطورى أو يأخذوا قطار البحار ليزوروا الأرياف ويمروا بالمواقع ، ومخاطرة أن يصيب البعض منهم ضربة شمس .

جورج دوهامل ، من بين آخرين ، ولم يشأ أن يخبر بزيارته ورغم الجو السيئ وتحت عاصفة رملية ، فقد كان يمتلك قلبًا قويا وقمت بدور المرشد وتلقيت امتنانًا حارا من الكاتب الفرنسى الذى استطاع أن يقول لى رغم الرمال التى تملأ فمه "إن هذه التجربة أثرته كثيرًا" . وكانت ميمى سعيدة جدا بالحياة فى قلب الصحراء بمنأى عن المجتمع القاهرى ، وسرعان ما وجدت نفسها مضطرة لأن تصحبنى فى هذا النشاط معظم الوقت ، وقامت بدور المضيفة أثناء الاستقبالات التى كانت واجبة ، أثناء بعض الزيارات كان يتوجب علينا أن نستقبل بشكل احتفالى شخصيات كبيرة من العالم كله ، والذين كنا نعلم عن وصولهم قبل ذلك بعدة أيام ، إذن فهو الاستعداد للمعركة فى سقارة . منزل المدير يشغله رجال فندق سميراميس لإعداد الغذاء الذى يقدم تحت أعين العمال الجاهزة لرؤية عربات نقل محملة بالأوانى والأطباق والطعام تتوافد على الموقع ، ويقوم على ذلك جيش من الخدم . أشهر زيارة كانت تلك التى قامت بها الملكة مارى ملكة رومانيا ، فهى سيدة نشيطة وطريفة وذات شخصية رومانسية ، فلقد كانت رغم مكياجها الغريب ذات شخصية بسيطة ،

فهى ابنة الملكة فيكتوريا والقيصر ألكسندر الثانى ، وتزوجت من الملك فرديناند ملك رومانيا ، وكانت ذات مشاعر جياشة تعلقت تمامًا بالشعب الرومانى ، إنها ملكة من عالم الأساطير ، احتفلت فى فرنسا منذ عام ١٩١٩ بمناسبة وقوف بلادها فى جانب الحلفاء عام ١٩١٤ ضد ألمانيا ، ثم تحملت وحدها عبء المملكة الرومانية ، منذ وفاة الملك فرديناند فى ١٩٢٧ أزاحها ابنها كارول الثانى من على العرش ولم يدخر وقتًا فأسرع فى تحويل المملكة إلى ديكتاتورية ، وكانت مجزرة رهيبة ، ومع ذلك لم تفقد طبعها الفريد بوصفها ملكة وشخصية طريفة . ومنذ وصولها للقاهرة والرعب يملأ طاقم الخدمة المكلف بحمايتها ، فهى لا تستقر فى مكان وتغير برنامج زيارتها دومًا ، وكثيرًا ما يفقد طاقم الحرس الملكى أثرها ، وترفض تمامًا أن تكون زيارتها على متن سيارات القصر الروزرويس الحمراء الخاصة بالملك فؤاد ، وكان يمتلك منها عدة سيارات من النوع نفسه واللون نفسه ، وأعاروها سيارة مكشوفة خاصة بالملك . وجاءت ذات صباح مشرق إلى سقارة فى هذه السيارة مصطحبة اثنتين من بناتها ، وفقدت فى الطريق البوليس المصرى ، ولم يتبق معها إلا حرس شخصى ، وكنا فيرث وأنا مسئولين عن استقبالها ولم ننده‍ش عندما رأيناها قادمة وهى تقود السيارة المكشوفة ، ففى تصورنا أن ملكة يجب أن يقود لها أحدٌ السيارة، ثم أسرعنا نساعدها فى النزول من السيارة ، وكانت سيدة عظيمة وجميلة وترتدى ثيابًا بيضاء ، وفستانها موديل الثلاثينيات يستدير بفعل الرياح ، وشعرها مصفف ووضعت شبكة للشعر بيضاء ، تتدلى من حول العنق وتصل حتى الحزام صنوف اللآلئ الكبيرة ،

وكانت فى صحبتها سيلا لاهفارى زوجة الوزير المفوض الرومانى ، والتى كانت من سيدات الشرف فى بوخارست والتى ساعدتها أثناء الحرب الكبرى باهتمامها بالجرحى الذين كانوا يفدون بكثرة إلى البلاد ، وميمى تتذكر سيلا على أنها سيدة ذات لغة مرحة جداً ومثقفة ، وأنها كانت محظوظة أن تكون هذه السيدة صديقة لها خلال عدة سنوات . الملكة أليزابيث ملكة بلجيكا والتى استقبلناها بعد ذلك بعدة أشهر ، كانت ذات شخصية مختلفة تماماً ، كانت أقل لطفاً وأكثر صرامة ، ذات قامة قصيرة ، قليلة الابتسامة ، وكانت تحب أن توضح منزلتها بالحفاظ على مسافات بينها وبين الناس المحيطين ، وقامت هذه الملكة بعمل دراسات متعمقة فى علم المصريات ، وقامت بعدة رحلات لمصر التى تحبها - ولغرامها بسقارة جاءت فى صحبة عالم المصريات البلجيكى الشهير جون كابار ؛ التى كانت تعطيه الكثير من الأموال لإثراء مكتبة المصريات بالمتاحف الملكية ، وكانت الأولى التى تزور مقبرة توت عنخ أمون وفتنت بالاكتشاف الكبير ، وكانت مقتنعة تماماً وأكثر من أى شىء بأهمية هذا العلم الجديد ، ووضعت الإمكانيات كلها لكى يكون لبلدها دور فى البحث فى علم المصريات ، وفضلت أن تنشئ فى بروكسل جمعية الملكة اليزابيث والذى جعل منها كابار فى عدة سنوات أجمل معهد فى العالم ، وخلال زيارتها لآثار سقارة لم تتردد الملكة أمام أى عقبة مثل الآخرين ، رفعت ثيابها لتدخل على أربع إلى المقابر ، وتضايق كابار أن يرى الملكة فى هذا الوضع وأراد أن يمهد الطريق ، واندهشنا فيرث وأنا لرؤية هذا الرجل

يمشى على أربع ، وتزحف لحيته البيضاء على الأرض أثناء دخوله فى الدهليز الضيق ، منظر غريب جعل فيرث يقول متعجبًا "إن السيد كابار نظف الطريق لملكته بلحيته !" .

ذات يوم جرى زكى وهـو المسئول عن التليفون لدى فيرث باحثًا عن ميمى حاملاً ورقـة كتب عليهـا بفرنسية ركيكة : "السيد دريون (الذى خلف لتوه لاكو فى إدارة مصلحة الآثار) طلب منى أن أقول لكم إن ملك فرنسا سوف يأتى مع الجنرال ألكسندر . وتعجبت ميمى قائلة : ماذا تقص علىَّ هنا يا زكى ! عن أى ملك لفرنسا تتحدث؟ ومندهشًا بدوره أجاب زكى وهو يبحلق فى وجهها "أنت فرنسية يا مدام ولا تعرفين أنه يوجد ملك فى فرنسا؟ وأخيرًا اتصلت ميمى تليفونيًا بالسيد دجارديبيه ، المستشار الأول للمفوضية الفرنسية الذى قهقه ضاحكًا عندما سمع الحكاية ، فى الحقيقة لم يكن الأمر متعلقًا بملك فرنسا ولكن ملك كمبوديا الذى سيأتى فى صحبة الجنرال ألكسندر ! زكى الذى لم يسمع من قبل عن كمبوديا ، ولكن قال له أحدهم إن الملك يتحدث الفرنسية فاستنتج أنه ملك فرنسا . وكانت الزيارة الأكثر غرابة بالنسبة لى زوجة الجنرال ألكسندر التى جاءت مع الحاشية ، والتى أبدت انطواء طيلة الزيارة خوفًا من رؤية الملك سيهانوك الذى لا يرتدى قبعة ، وكان ضحية ضربة شمس ، ولم تكف عن قولها له وهى تصرخ "يجب على جلالتك أن ترتدى قبعة" ، وفجأة جرت خلفه وأجبرته على ارتداء قبعة من القش على رأسه ، ودون أن يلتفت للخلف لينظر ماذا يجرى ، خلع سيهانوك القبعة وفى حركة غاضبة ألقى بها على الأرض ! .

زيارة الملك فيكتور إيمانويل ملك إيطاليا وزوجه كانت زيارة طريفة جدا كذلك ، وكانا زوجين فريدين جعلانى أبتسم دومًا ، الملكة هلين مونت نجرين ضخمة والملك بجوارها قصير للغاية ، ويمشى معوج الساقين ناظرًا للأرض مهتمًا بقطع الأوانى المبعثرة على الأرض فى أنحاء الموقع وبالآثار نفسها . وعندما أحس بشىء تحت قدميه أزاح الرمال بقدميه وانحنى والتقطها وفحصها لوقت طويل غافلاً عن بقية الحاشية ثم قذف بها فى حقيبة الملكة ، وكانت هذه الحقيبة كأنها قفة حملتها معها لهذا الغرض ، وفى نهاية الزيارة سارت الملكة فى المؤخرة تمامًا وهى تجر بصعوبة الحقيبة التى أصبحت ثقيلة تمامًا . ومرة أخرى أعلنوا عن وصول أندريه جيد إلى القاهرة وطلب منى حماى أن أكرس له يومًا لزيارة آثار زوسر ، وللوهلة الأولى فإن مصر "المعصوبة فى لفائفها" لم تثر حماس الكاتب المشهور ، وعند وصوله للقاهرة ، شعر باللامبالاة التامة ، "ولا توجد صلة ممكنة بينى وهذا الشعب ولا علاقة ولا سمة مشتركة ، ومن شبرد حيث نزل كتب فى مذكراته : "تعرفت على كل الخدم الزنوج بالفندق ، وكذلك أولئك من زمن الفراعنة ، وهم أقل قبحًا عما بدا لى من الوهلة الأولى ، فهم يحملون ملامح لم تتغير عبر قرون متطاولة" ، عدم الجاذبية عند المصريين تصيبه بالهم ، وكان على هذه الحالة المزاجية عند استقباله من المفوضية الفرنسية حيث كنا مدعوين ، وكان حماى ينتظرنا ليقدم لنا الكاتب والذى كان نحيفًا جدا وسمجًا جدا ، "السيد جيد" هكذا قال حماى بشكل أرستقراطى يميزه ، ولى الشرف أن أقدم لك ابنتى

وزوجـهـا جـون فـيليب لوير الذى سـيكون سـعـيـد الحظ أن يكون فى صحبتكم فى موقع الحفائر فى سقارة" ، سألته ميمى متى سيكون فى زيارتنا حتى نستعد لاستقباله ، فنظر لها باحتقار وأجابها بجفاء "هل تعتقدين سيدتى أننى لدىَّ الوقت لكى أضيعهُ ، عندى أشياء أخرى لكى أقـوم بهـا أهم من الذهـاب للنزهـة بين الأطـلال تأكدى من ذلك ، ! "ولم يكد ينهى جملته حتى كانت ميمى التى لم ينقصها أبداً الرد تقول "حسناً ، هذا أفضل ! هذا سينقذنا من أحد المزعجين !" .

إعادة التركيب

أنا فخور جدا بأعمال الترميم التى أنجزتها بدهليز الأعمدة ، وعندما وجدت نفسى وجهًا لوجه مع دهليز يحيط به من جانبيه قواعد أعمدة وعددها أربعون ، لم أكن أعرف ماذا أفعل ، وأثناء الحفائر التى جرت قبل وصولى للموقع لم يكن أحد يعبأ بإعادة العناصر المعمارية لأماكنها ، وكل شىء كان مختلطًا مما زاد من صعوبة مهمتى ، شىء يدير الرأس . ولكن سرعان ما ركزت مجهوداتى على الصالة المستعرضة فى نهاية الدهليز ، والتى احتوت على ثمانية أعمدة جمعت فى مكان واحد فى زاوية ، وبمساعدة عمالى المخلصين حفظتهم وسجلتهم وصنفتهم ، وكنا نضعهم تباعًا فى الفناء الكبير للهرم فى دهليز المدخل ، كان العمل معقدًا : الأعمدة مهشمة تمامًا والجذع مكون من ثلاث كتل وليس كتلة واحدة ، وأحيانًا مكون من أربع أو خمس كذلك ، ومن ثم من السهل تصور صعوبة العمل الذى نحن بصدده ، تفكك وتحلل وتصنف كل كسرة وقطعة ، وتحاول أن تنسب كل قطعة لعمودها من بين الأربعين عمودًا ومجموع ما توصلت لتحديده يفوق فى عدده السبعمائة قطعة ووجدت مكانها الأصلى ، وأحيانًا ما أخاطب إيمحوتب ، ولسوء الحظ لا يظهر

لى أبداً ولكن عندما أجد مكان قطعة كنت أقول لنفسى : "هذه هدية من إيمحوتب" .

عملية إعادة البناء نفسها استغرقت سنوات ، ولتسهيل مهمتى وضعت تكنيكًا بسيطًا : بالتتابع أعمل رسمًا لكل قطعة من قطع الأعمدة ، هذه الرسومات بقيت معى دومًا أثناء الحفائر ، فعندما أعثر على قطعة أضع لها رسمًا بأبعادها ثم أضعها فى مكانها من العمود للتأكد إذا ما كانت فى مكانها الصحيح ، فلو كانت فى مكانها أتمم عملية تثبيتها ، وإلا أواصل البحث ، وهكذا بدأت عملية إعادة بناء الدهليز ، وجمعت رقمًا هائلاً وهو ألفان من القطع والعناصر المعمارية التى بقى معظمها ولم أستخدمه ، وأضع فى ذهنى أن أعرض منها الأفضل والأجمل فى متحف إيمحوتب . كنت محظوظًا إذ أمتلك نظرًا ثاقبًا ودقيقًا مما يساعدنى فى هذا المشروع الهائل ، ولدىَّ نظر قوى دومًا فأستطيع أن أتحرى عن قطعة من الفخار فى الرمال . وكم أكون سعيدًا عندما أتوصل إلى اكتشاف كل أجزاء عمود ! واحدة من الصعوبات هى تحديد ارتفاع العمود ، فإذا لم نستطع أن نحدد ارتفاع أثر فإن عملية إعادة البناء تصبح مستحيلة، ونفترض هنا أن إيمحوتب نفسه غير رأيه أثناء العمل ، فقد بدأ بتشييد الثمانية أعمدة فى الصالة المستعرضة ، وبما أننى لدىَّ كل القطع الخاصة بها ، فقد استطعت إعادة نصبها بشكل سريع نوعًا ما وعرفت ارتفاعها وكانت هذه النتيجة الأولى مهمة وتأكدت من أن الأعمدة الأربعة الأولى ذات تسعة عشر ضلعًا، مثل الأربعة التى نصبتها

للتو ، أما الأخرى فذات سبعة عشر ضلعًا ؛ فقد خفض إيمحوتب ضلعين حيث بسط العمل على رجاله وبلا نقاش فقد نصب الستة والثلاثين عمودًا المتبقية من سبعة عشر ضلعًا ، وكانت هذه نتيجة مهمة أخرى فى العمل فى هذا الدهليز ، وقد كان وصولى لإعادة بناء دهليز إيمحوتب - بالنسبة لى - بمثابة اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون ! إنها لحظة سعادة لا توصف ، وهناك شىء غريب رغم أى شىء فى هذا العمل ، وهو أن إيمحوتب شيد على كل جانب حوائط تسند الأعمدة لتقويتها ولتتحمل عوادى الزمن ، لكن فى النهاية استعملها الحجارون فى العصر الحديث وانتزعوا أحجارها مما تسبب فى تهدمها .

وبدراسة كل قطعة من هذه المجموعة ، استطعت التعرف على شكلها ونسبها فى المبنى وكانت ذات أسلوب غير معهود فى مصر ، فقد قلد إيمحوتب فى الحجر عناصر معمارية من الطوب اللبن والخشب ، أو حتى من البوص وهكذا فسرت هذه النسب الخاصة من الأعمدة ، والتى تبرز كأنها أوتاد وحوامل من الخشب المحزز أو أعواد من جريد النخيل .

وجمعت خصائص تكنيك بدائى ولكنه يجمع كل خصائص فن متطور ، أكثر من حل للتغلب على قلة الخبرة فى البناء بالحجر الذى يتعاملون معه للآن بعفوية ، وكأنهم يتعاملون مع أخشاب للنجارة وليس أحجارًا للنحت . وتحققت من إحراز تقدم وتبسيط فى العمل مع مرور الوقت وهم يشيدون ويبنون ، سواء فى الأدوات المستخدمة أو فى البناء ، وهو الأمر الذى يدل على عبقرية هذا المهندس المعمارى ، ويدل كذلك على

صبر عماله ومهارتهم . عبر مجموعة زوسر نشعر بثورة فى تقنية البناء . فى السبعينيات اكتشفت الأثرى الإنجليزى جيفرى ت . مارتن ، خليفة أمرى فى سقارة ، على مقربة من سور زوسر جنوبًا مقبرة حورمحب الرائعة ، جنرال من الدولة الحديثة ، وهذا الاكتشاف أكد ما كنا نعتقده منذ بعض الوقت أن الجبانة المنفية لا تأوى فقط مقابر من الدولة القديمة وأثناء الحفائر اكتشف مارتن خمسة جنوع لأعمدة فى أرضية فناء المقبرة ، وبفحصها استنتج أنها ترجع لأثر أقدم . ذات صباح ، قال لى وهو ذاهب مع عماله للموقع إنه سيعطينى بعض الأجزاء التى ربما انتزعت من الدهليز ، وبالفعل وبعد السكن لمدة ثلاثة آلاف عام فى ضيافة حور محب عادت بقايا هذه الأعمدة الخمسة لمكانها الأصلى ، واستطعت بالفعل أن أضع ثلاثة منها فى مكانها .

فى نهاية صيف عام ١٩٣١ وبناء على طلب لاكو سافرت إلى أثينا لأشارك ممثلاً لمصلحة الآثار فى مؤتمر عن إعادة تركيب الأعمدة ، وهذا يعنى وضع عناصر محققة من عمود فى مكانها ، وبدأت الأشياء تعرف فى عالم الآثار ، وفكرة إعادة بناء الآثار المتهدمة أو المجمعة أخذت رويدًا رويدًا طريقها إلى إيطاليا واليونان . وكنت سعيدًا أن أجد نفسى فى البلد الذى شهد كل سحر رحلة زواجى ، وأفدت من الوقت الذى سبق بدء المؤتمر فى الذهاب إلى الأكروبول ، وفى الصباح صعدت البروبليس ، الطريق المقدس فيما مضى ، السماء تكاد تلامس الآثار ، وهى بوابات عظيمة الحجم زرقاء تحيط بها أعمدة بيضاء دورية تذكرنى بالأعمدة

فى واجهة بيت الشمال والجنوب فى سقارة ، وأخذت أسأل نفسى عن هذه الأعمدة الدورية التى ظهرت فى مصر قبل ظهورها فى اليونان بزمن .

تواصلت فى صالة المؤتمر مع كل المهندسين المعماريين الذين يهتمون بآثار تاريخية ، مديرى مدارس الفنون الجميلة ومؤرخين مثل بول ليون أو ليوس هوتكور . برنامج اليوم يدور حول أعمال إعادة البناء الجارية فى الأكروبول ، وهذا يسير فى ذات اتجاه عملى فى سقارة . وكنت شغوفًا لمعرفة كيف يعمل زملائى وما هى المبادئ التى يطبقونها ، دار النقاش حول قضية معرفة إلى أى مدى يجب الاستمرار فى إعادة تركيب الأعمدة فى البارثينون ، وهو العمل الذى يباشره المهندس اليونانى بالانوس الذى ابتكر كلمة "أناستيلوس" .

يسمح هذا الإنجاز بإعادة عمود بنسبه الدقيقة لما كان عليه فى سالف عهده ، وهذا بالضبط ما قمت به منذ ثلاثة أعوام فى سقارة ، فى نهاية النقاش قرر المؤتمر أن يعيد بناء البارثينون بالعناصر القديمة ، لأنها أكثر ملاءمة من الألباستر الحديث ، وابتداء من هنا ، بقى أن نحدد فى أى نسبة نستخدم الجديد لإعادة بناء القديم عندما تختفى معظم العناصر القديمة ، بالنسبة لى كانت قضية بسيطة ، وفى الاتجاه الذى يساير المذهب الذى ينادى بالحفاظ على جمال الأثر . فى الكرنك وفى عام ١٩٢٧ ، أعاد الأثرى هنرى سيفرييه بناء معبد صغير بالكامل وهو معبد الملك سنوسرت الأول ، ثانى ملوك الدولة الوسطى (الأسرة ١٢) لأنه كان محظوظًا ؛ إذ عثر على كل الأحجار الخاصة بهذا المعبد ،

والتى كانت مستخدمة فى بناء الصرح الثالث بالمعبد الكبير ، لكن عندما ينقصنا معظم الأحجار يمكن أن نرتكب أخطاء ، كما هو الحال فى كنسوس وكريت أو معبد مينوس الذى أعيد بناؤه بالكامل من لا شىء ، وهذا ما نعمله إذا لم نعرف ما كان يوجد حقيقة ، أو ما نرسم له تخطيطًا كاملاً من تصورنا .

منذ عدة سنوات وأثناء ندوة فى جمعية الآثار بالكوليج دو فرانس حيث تحدثت عن أعمال إعادة البناء التى قمت بها فى مجموعة زوسر ، خاصمنى أندريه بوشان أستاذ قديم للفيزيقا والكيمياء بالليسيه الفرنسية بالقاهرة ، وهو الذى أمضى وقتًا كبيرًا يضع نظريات غامضة عن الأهرام ، وهاجمنى من ثم بخصوص الدرج الذى يوجد فى فناء الحب سد ، يوجد منه درجان : أحدهما اختفى تمامًا والآخر تبقى منه سبع درجات ، وكنت أعمل بالفعل فى هذا الدرج عندما جاء بوشان يزور الموقع ، ولم يقل شيئًا آنذاك، ولكنه فى باريس أثناء هذه الندوة فى الكوليج دى فرانس ، أخذ الحديث ووجه لى الكلام بحدة "السيد لوير ، لقد تحققت أنك أضفت درجًا لسلم فناء الحب سد الذى يتكون من سبع درجات ، وجانبك الصواب ! ألم تشعر أن سبعة هو رقم مقدس" وقاطعته بسرعة "هل تتصور أننى أضفت من عندى هكذا ثلاثة درجات ؟ لو أننى فعلت ذلك فلأنه ضرورى لنصل للمكان الذى يوصل إليه السلم .. سيد بوشان ، لو أن منزلك احترق لتوه ولم يتبق إلا سبع درجات فى السلم ، هل ستمتنع عن إعادة بناء السلم بحجة أنه رقم مقدس؟!"

منذ عودتى من أثينا وأنا أعمل، وبدأت بالعمل على الورق فى إعادة بناء نظرية للمجموعة الجنائزية للملك زوسر، والأمر العاجل بالنسبة لبيير لاكو كان هو حماية الآثار التى أحجارها الجيرية ضعيفة، ومن ثم أقمنا أعلى بقايا الدهليز سقفًا للحماية من الشمس والمطر ، ولأننا الآن نجهل الارتفاع الأصلى للأعمدة فقد شيدنا أولاً سقفًا من الخشب على ارتفاع خمسة أمتار، أو أقل قليلاً ، وفيما بعد فى عام ١٩٣٨ وعندما علمنا أن الارتفاع الأصلى للأعمدة هو ستة أمتار وستون سنتيمترًا ، جعلنا السقف على ارتفاع سبعة أمتار . وهذا السقف نشاز بين الجمال المعمارى الذى أبدعه إيمحوتب ، هذا السقف الأسمنتى المزعج كان الشىء الوحيد الذى أثار انتباه لوكور بسييه أثناء زيارته بعد الحرب، فهو لا يهتم إلا بالجانب العملى من العمارة ، وكل ما عدا ذلك لا يهم فى نظره . وهذا عكس ما تصوره إيمحوتب ، والانفعال الوحيد الذى أبداه كان عندما قام بزيارة دهليز الصاويين ، حيث أبدى خوفًا من تهدمه على من بداخله .

عام ١٩٣٦ عام درامى

أتذكر عندما كنا نحتفل باختتام موسم عام ١٩٣٥ فى قصر المنيرة مع حماى وحماتى ، ميمى التى وضعت فلورنس فى ليلة رأس السنة شاركت كذلك . واجتمعنا اجتماعًا عائليًا وعلى غير توقع منا حمل إلينا عام ١٩٣٦ عدة أنباء غير سارة . أول هذه الأحداث موت الملك فؤاد فى شهر أبريل ، على إثر أزمة سكر حادة ، واستدعت الملكة نازلى ولدها فاروق الذى كان يدرس فى لندن على وجه السرعة ، فهو وريث العرش ، ولأنها كانت تدرك أن الإنجليز يودون تنصيب محمد على توفيق الذى يسهل عليهم توجيهه ، فقد رحبت الحكومة البريطانية بسرعة إعادته إلى الوطن .

ونظرًا لوصوله متأخرًا، فإن هذا الشاب البالغ من العمر ستة عشر عامًا لم يشارك فى مراسم الدفن المهيبة التى أقيمت لوالده، ولأول مرة يكرم الشعب ملكه دون مواربة ، وجئنا للقاهرة خصيصًا للمشاركة فى هذا الحدث، ولعلى أقول إننا كنا متأثرين ، لم أقابل فؤاد إلا مرة واحدة خلال زيارته لسقارة فى صحبة لاكو ، على الرغم من تصرفه الفظ وصوته الأجش، كأن كرة وقفت فى حلقه أثناء اللعب ، فإن الرجل تمتع

بروح حساسة ومثقفة . أما المصريون فقد اكتشفوا شخصية عظيمة فى الملك المتوفى ولكن متأخراً ، كان فؤاد رجلاً جاداً وكريماً ، خاصة وأنه عرف كيف يفرض سلطته على الإنجليز . فى الواقع ، عندما قرر التاج البريطانى فى عام ١٩١٧ أن يضع على عرش المحمية الجديدة له هذا الابن الغامض لإسماعيل باشا ، لا أحد كان يتصور أنه سيكون عدوهم اللدود ، فلقد أظهر وطنية أصيلة ، فقد أيد تحت ضغط الجماهير - وهذه حقيقة - الوفد ، وهو أكبر حركة تنادى بالاستقلال وزعيمه سعد زغلول ، وبدءاً من عام ١٩١٩ وبعد ثلاثة أعوام ترك لقب سلطان وأخذ لقب ملك مصر ، وحصل بعد تخطيط على أن تكون بلده مملكة مستقلة ، وفرنسا كانت الأولى التى اعترفت بهذا الاستقلال معضدة بذلك الصداقة الفرنسية المصرية ، ولكن الحالة الجديدة التى أعطاها لبلاده لم تمنعه خلال أعوام حكمه التسعة عشر من مواجهة القلاقل ، ونازعته سلطانه فى النهاية الحركة الوطنية ، وباختفائه لم يتصور أحد أنه لم يمكث إلا ستة عشر عاماً فى الحكم ثم اختفى .

الآن ملك شاب محترم وصل لتوه الإسكندرية ذات صباح من شهر مايو ١٩٣٦ ، وكان فى انتظاره كبار شخصيات القصر الملكى بزيهم الرسمى الأسود ويحيط بالرقاب ياقات منشاه والجباه تتصبب عرقاً من تحت الطرابيش ، ولا يوجد رياح تخفف من حرارة الجو . ساد جو من عدم الارتياح فى الوسط البريطانى بوصول فاروق ، فلم يروا فيه موظفاً بريطانياً كبيراً ، من جانبهما فإن الحكومتين البريطانية والفرنسية نسيتا

ما بينهما من خلافات واتفقتا مؤقتًا على تسهيل مهمة عودة الملك الشاب ، العودة العاجلة كانت أولاً عبر فرنسا حتى مارسيليا ثم بالمركب مركب نائب الملك فى الهند التى بناء على قرار جلالة الملكة غيرت مسارها إلى بومباى ، لكى تقل الملك الجديد إلى الإسكندرية . صبى هزيل ومتوتر تحت سترته السوداء الطويلة ويعلو رأسه طربوش وطنى ، وبدا فى هذا اليوم غائبًا تمامًا عما يحدث حوله وكأنه اختفى على السجادة الحمراء الكبيرة جدًا تفترسه عيونُ الباشاوات الماكرة والأمراء الطامعين ، وسوف يظهر تعصبًا قوميًا ، الأمر الذى أضفى عليه شعبية طاغية سرعان ما ظهرت للعيان ، فقد أثار الأمل عندما نادى بتوحيد العالم الإسلامى مؤملاً أن يتابع العمل الذى بدأه جده الأكبر محمد على . ولكنه قبل أن يضع قدمه على أرض السياسة التى لا ترحم كان عليه أن ينتظر حصوله على الأغلبية ، الأمير محمد على وهو الأمير الأكبر من العائلة المالكة اختير لكى يدير مجلس الوصاية على الحكم ، وكان شخصًا غير محبوب وله خصومات سياسية كثيرة ، ولا يحب إلا أن يعيش بعيدًا عن العيون وسط كنوزه فى قصره الملىء بالأعمال الفنية الجميلة ويتحدث لغة غريبة. رجل من زمن آخر استمر يتنزه بهدوء فى عربة الخيل ويشتكى من "مرور عربات البنزين ، ومن الضوضاء التى تحدثها مواتير هذه السيارات فتثير ذعر خيوله ، وذات يوم أبدى هذه النظرة "أتنبأ لكم بأنه سيأتى اليوم الذى نفقد فيه روث الخيول اللازم لأحواض الزهور فى حدائقنا وسوف تتحول حظائر الخيول إلى جراجات" ، أما فى السياسة فهو يعرف خباياها ، وعند استقباله يومًا السير ميلز لامبسوت وعند شعوره

أنه مشكوك فيه لإقامة روابط قوية نوعًا ما بألمانيا قال "لقد استقبلونى فيما مضى بشكل مناسب وقلدنى إمبراطورهم ثلاث مرات ، وما لا أستطيع أن أغفره لهم هو أنهم جعلوا خليفة الماريشال هند نبرج مجرد أنباشى ، هذا الهتلر لا يعنى لى شيئًا فلو كان على الأقل كولونيل .

فى عام ١٩٣٦ نعرف أن أجراس التقاعد سوف تدق لبيير لاكو ، وعندنا - نحن الفرنسيين - بعض العلم فيما يختص بخليفته لكن على الجانب المصرى لديهم الرغبة فى امتلاك إدارة مصلحة الآثار ، ومن جانبه ، فإن لاكو ومنذ عام ١٩١٤ يحكم باستبداد مصلحة الآثار ، كان سعيدًا أن يغادر وادى النيل ، مصدر المشاكل بالنسبة له "لقد أجهز علىّ توت عنخ آمون" جملة لم يتوقف عن ترديدها ، حان الوقت أن أترك المكان لفرنسى آخر ، آمل" . منذ عام ١٩٢٢ ، أحال اكتشاف المقبرة الشهيرة وجود العالم الكبير إلى كابوس حقيقى ، ولكى يكتمل النحس ، فإن الملف القديم الخاص بنفرتيتى طفا على السطح لكى يسبب قلقًا ، فى خاتمة المطاف تطالب مصر برأس نفرتيتى الشهيرة من جديد التى سلبت منذ اثنين وعشرين عامًا على يد الألمان أمام أعين مدير المصلحة ، ولم ينعم لاكو بالراحة بعد عودته لباريس فقد فقد ابنه فى حادث ، أصيب على أثره بجلطة فى المخ كانت لها عواقب صحية وخيمة ، فلم يعد تقريبًا يستطيع أن يتحدث وأصبح وجوده منذ تلك اللحظة وجودًا صامتًا مليئًا بالألم والحزن . وكنت واحدًا من قلائل كان يسمح باستقبالهم مع جون سان فار جارنو - الذى توفى مع لاكو فى عام واحد ، وكنا نتنزه

طويلاً فى غابة بولونى ، وهو الرجل الذى أعترفُ له بالجميل والذى فتح لى الطريق إلى مصرٍ أخيراً ، ها هو يرحل فى صمت عن عمر يناهز التسعين عامًا فى ١٩٦٣ .

فى لحظة رحيله صادر المصريون وظيفة مدير مصلحة الآثار ، ليضعوا حداً بذلك لاحتكار الفرنسيين لهذه الوظيفة الذى استمر طويلاً ، وعللوا ذلك بالمشاكل الكثيرة التى حدثت فى عهد لاكو لكى يشوهوا صورة فرنسا ، وطلبوا من فؤاد أن تكون إدارة مصلحة الآثار التى أنشأها ماريبت وطنية ، لا يوجد أقدر من أحد أبناء النيل على فهم أسلافه والاهتمام بحماية الكنوز التى تركوها لنا" هكذا كتب سليم حسن فى الصحافة وكان هو الأكثر هجاء وحرصًا على إحراز وظيفة مدير المصلحة ، وطرحت خلافة لاكو عدة مشاكل ، فكان ريجنالد إنجلباخ المسئول عن الصيانة بمتحف القاهرة أول من تقدم للوظيفة ، وكان رجلاً ممتازًا ، لكنه لا يتمتع بشعبية لدى الإنجليز ، شخصية مميزة يتكلم الفرنسية الفصحى التى تعلمها فى الخنادق حيث كان يقاتل أثناء الحرب ، وأكثر من ذلك ، كان يحس بسعادة ماكرة فى أن يفاجئ الناس ولم يكن هذا وسط علم المصريات الذى كان لا يزال أرستقراطيًا جدًا فى ذاك العصر ، كان بيير مونتيه محط نظر لبعض الوقت ، لكنه استبعد بسبب شخصيته غير الودودة . وأخيرًا كان الحديث عن ريموند فيل رجل علم متمكن بدأ فى عام ١٩١١ فى مصر الوسطى فى موقع ظل غامضًا وآثاره غريبة ، هرم كأنه كتلة ضخمة على حدود الأرض الزراعية ، وعلى حافة الصحراء الليبية ،

لكن هذا العلاَّمة ذا اللغة المزخرفة كان إسرائيليا ، ولم يحظ بدعم علماء المصريات . هذا التمييز بدا لى متناقضًا لأن فؤاد الذى سيقول كلمة الفصل ، لم يكن لديه هذا الأمر ، فأقرب مستشاريه كان هو الحاخام ناحوم أفندى عضو مجلس الشيوخ فى مصر . وأخيرًا وبشكل مدهش تمامًا وقع الاختيار على المسئول عن صيانة الآثار المصرية باللوفر المحنك أتيين دريوتون . فؤاد الذى كان حريصًا على تطبيق التصور الذى تبناه والده الخديوى إسماعيل الذى قال : "لم تعد مصر بلدًا إفريقيًا بل هى جزء من أوروبا" قال هذا عند افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ ، ولم يعر الاعتراضات التى أبداها العلماء المصريون اهتمامًا ، وفضل عليهم مرة أخرى عالمًا فرنسيًا ، وهذا الاختيار أسعد أيما سعادة الجالية الفرنسية ، وأنبت ثورة بين المصريين ، وكبح جماح طموحات الإنجليز مرة أخرى ، رغم الاحتلال الإنجليزى فقد حافظت فرنسا على مكانتها المقدسة ، وأفضل مثال أن الناس كلهم فى مصر فى هذا العصر يتحدثون الفرنسية ، الملكة نازلى والملك فؤاد ومجموع الطبقة الراقية فى المجتمع المصرى ، الإدارات والدواوين كلها ومجلس الوزراء يكتب تقاريره بالفرنسية ، فقد حافظت لغتنا على المكانة التى تبوأتها منذ زمن طويل فى ثقافة هذا البلد ، حتى القضاء على الملكية ، لتحل العربية مكانها منذ مجىء ناصر السلطة .

بورخاردْت ونفرتيتى

ذات يوم وبينما كنت أقوم بعمل قياسات للهرم ، استقبلت زيارة لودفيج بورخاردت ، وهو أحد الأوائل من المعماريين الأثريين الذى أتى ليعمل فى مصر والأول الذى يهتم بالعمارة المصرية كما هى ، وقام بحفائر أهرام أبى صير ، حيث دفن فراعنة الأسرة الخامسة ، وتولى عملية إعادة بناء ، ولكنها للأسف توقفت عند الرسومات فقط لأنه فى عام ١٩٠٥ لم يتخيل أحد إعادة إعطاء الأثر شكله الأصلى مرة أخرى . مارييت الذى كان لا يزال هنا ، وكان ينظر إليه على أنه رائد فى هذا المجال تفهَّم أهمية القيام بأعمال إعادة بناء ، ولكنه كان متشبثًا جدًا برغبته فى إيجاد كنوز ، فنادرًا ما نجد أثريين يهتمون بالحفاظ على ما تبقى ، وكان عليه أن يهتم بإعادة تركيب الأساطين النخيلية بالمعابد الجنائزية الموجودة بالقرب من أهرام "أبو صير ، وطالب بذلك بورخاردت بدلاً من بعثرة ما تبقى فى المتاحف الأجنبية .

عالم المصريات اللامع هذا كان سببًا فى المعضلة الثانية التى سممت سيرة لاكو على رأس مصلحة الآثار ، ففى ديسمبر ١٩١٢ باشر فريق المعهد الألمانى للآثار الشرقية الذى يقوده بورخاردت بنفسه

الحفائر قبل تل العمارنة ، عاصمة الفرعون المتهرطق أخناتون ، مدينة مهجورة منذ ثلاثة وثلاثين قرنًا ، وبتنظيف مكان أتيلييه نحت عثر هرمان رانكه مساعد بورخارت على تمثال نصفى غير مكتمل لسيدة على جانب كبير من الجمال، التى لم تكن إلا نفرتيتى زوجة أخناتون ، ولعلمه بأهمية الاكتشاف ، فقد سارع بإبعاد عماله عن المكان حتى محمد رئيس عماله المفضل لم يستطع أن يلحظ شيئًا ، لأنه فى هذه اللحظة كان التمثال تقريبًا لا يزال مدفونًا فى الرمال ، ولم يشاهد منه إلا مؤخرة التاج ، وبسرعة أرسل رانكه رسالة إلى بورخاردت "فلتسرع بالقدوم ، عثرنا على تمثال نصفى ملون رائع فى المربع أ – ٤٧" .

هذا الوجه الأنثوى الرائع نحت فى الأسرة الثامنة عشر على يد "أستاذ النحاتين فى البلاط الملكى" تحتمس ، التمثال النصفى بالحجم الطبيعى من كتلة من الكوارتزيت ، بقى فى أتيليه الفنان بلا شك لأنه عثر عليه غير مكتمل ، فقط عين واحدة كانت مطعمة تحت الحاجبين الطويلين والأخرى بقيت فارغة ، والوجه متقن جدًا . تسمر الفريق الألمانى فى مكانه فى أول الأمر ، ثم نقلوه بحذر شديد وخفاء تام إلى حيث خيمة الأستاذ بورخاردت .

أثناء الحفائر عثر الأثريون فى المكان نفسه على قطع من الصلصال منقوش عليها بالخط المسمارى، وتحكى عن صلات فرعون بشعوب آسيا . وكانت نفرتيتى ابنة ملك ميتانى ، وعن طريق المبادلة بكميات كبيرة من الذهب باعها والدها للفرعون القوى فى طيبة ، وبعد رحلة طويلة من

الفرات إلى النيل ، تعرفت الأميرة الصغيرة البالغة من العمر خمسة عشر عامًا على زوجها القادم ، وتحت وقع التأثر بجمالها أسماها الشعب "بهاء البهى آتون جاءت الجميلة" ، وعرفت دومًا لدى الكتبة بهذا الاسم ، بعد ذلك بثلاثة آلاف عام كتب وهو سعيد جدًا فى يوميات حفائره ، لا يفيد بشيء وصف هذه القطعة ، يجب رؤيتها ! " فكرة الإبقاء على عمل فنى كبير كهذا فى مصر أمر غير معقول فى نظره ، وبالاتفاق مع رانكه فقد تكتموا أمر هذا الاكتشاف ، وكان عليهم أن يحصلوا على موافقات مصلحة الآثار التى تشترط بوضوح "أن الآثار المكتشفة تبقى ملكًا لمصر ، وتلك التى يمكن إخراجها هى التى يوجد لها أكثر من نموذج ، أو تلك التى لا تحمل قيمة تاريخية أو ألا تكون وثيقة فريدة" . وخطط بورخاروت لخطف الملكة وانتظر وفريقه عدة أيام ثم استدعوا لاكو إلى تل العمارنة للتفتيش الروتينى على الحفائر الجارية ، وتم انتخاب قطع أقل أهمية . ولما رأى أن الأمر لا يستدعى وجوده نظرًا لأنه لا توجد مكتشفات ضخمة ، لكنها أشياء عادية جدًا ، فقد أناب مدير المصلحة موظفًا مصريًا والذى قال بدوره بعد أن فحص الآثار المعدة لإرسالها لألمانيا فى تقريره ، أنه لا يوجد أثر ذو قيمة تاريخية أو فنية ضمن الصناديق الخمسة التى سوف تشحن ، وبالتالى وقع لاكو التقرير ، وهكذا ودون أن نفهم وُجد التمثال النصفى الشهير فى متحف برلين ، فى الخزانة التى تمول حفائر تل العمارنة . ولكى لا تتعطل أبحاثه فى الموقع قرر ترك الجميلة المصرية نائمة بعيدة عن الأعين لبعض الوقت ، معتقدًا أن الأمر مع مرور السنين سيهون فى نظر مصلحة الآثار . وأخطأ التقدير تمامًا ، فعندما

قرر أخيرًا أن يخرجها من مخبئها عام ١٩٢٢ ويعرضها فى المتحف نشر الصحفيون الأمر وكتبوا مقالات يمتدحون العمل والكشف ، ولم يتأخر الخبر فى الوصول إلى القاهرة وكانت فضيحة ، كيف خرج عمل كبير كهذا من مصر ، وطُلبت تفسيرات سريعة من لاكو . من جانبه لعب بورخاردت دور الأبرياء ، فأعلن أنه اكتشف هذا العمل وأضاف بيمين كاذب أنه لم يخبئ شيئًا : "تحدثت عنه إلى مدير المصلحة ، بيير لاكو ، وأخذت موافقته على سفر هذه القطعة ضمن قطع أخرى فى مقابل إعطاء متحف القاهرة قطعًا مشابهة من تلك التى عثرنا عليها فى حفائرنا" ويغضب شديد نفى ذلك لاكو ، ولكن بورخاردت أعلن بعدها مباشرة : "لقد نسى لاكو أننى دعوته ليأتى بنفسه ليفتش على القسم الذى سنأخذه من المكتشفات ، ولكنه أرسل بدلاً منه أحد مساعديه الذى وافق على سفر تمثال نفرتيتى" . واتخذت الحكومة المصرية قرارات لمنع الألمان من إجراء أى حفائر على أراضيها ، طالما لم يرجعوا تمثال الملكة ، ومن جانبه بذل لاكو ما فى وسعه من أجل عودة نفرتيتى ، وهو مثقل بالفعل بمشكلة توت غنخ آمون وها هو بصدد فضيحة أخرى ، ومجهوداته كلها سوف تؤتى أكلها عندما يأتى الوزير الألمانى بالقاهرة ، البارون فون شتوهرر ليعلن للملك فؤاد أن بلده قررت أن ترد لمصر التمثال النصفى للملكة ، وأبى سوء الحظ إلا أن يتسلم هتلر مقاليد السلطة فى هذا الوقت ، وهو على دراية بما يجرى بين مصر وبلدة وطلب أن يرى التمثال الشهير وبعد عدة أيام كان على فون شتوهرر أن ينقل للملك فؤاد تلغرافًا وصله لتوه من برلين ويعلمه فى نص وقح جدا "فخامة أدولف هتلر ،

الزعيم والمستشار ، بعد طلبه رؤية التمثال النصفى للملكة نفرتيتى بمتحف برلين وقع فى غرامها ، ويأسف بشدة لعدم استطاعته مفارقتها "بقيت الجميلة المصرية هناك" .

كان عالم المصريات الألمانى يبلغ من العمر أكثر من ستين عامًا عند مجيئه لسقارة ذاك العام ، وقضية نفرتيتى سوف تجد حلاً سعيدًا بالنسبة لمصر ، ولم يكن بورخاردت شخصًا غير مرغوب فيه فى المواقع الأثرية . هذا الرجل المرح بحجمه الصغير ووجه الممتلئ وشعره الأبيض الكثيف المجعد فى بساطة جذابة ، كان مهتما بالهرم المدرج منذ عدة سنوات ، واستدل على المصطبة الجنوبية تحت الجدار فى الواجهة الجنوبية ، وكان يعتقد أنها مستطيلة" ، الشكل الأكثر شيوعًا للمصطبة ، لكن آخر عمليات تنظيف قمت بها أظهرت شكلاً مربعًا ، وهذا ما جعلنى أسرع فى نقله إليه عند استقباله ، مما جعل شاربه الأبيض يهتز وهو يقول "أيها الشاب أنت لن تعلمنى الآثار ، المصطبة لا يمكن أن تكون أبدًا مربعة! " لقد وضع بورخاردت قاعدة مطلقة لشىء لم يقم عليه دليل فى الواقع ، فقد كان ماربيت هو أول من استخدم لفظ مصطبة – التى تعنى دكة فى العربية – للإشارة إلى المقابر المصرية الأولى المكتشفة بالجيزة ، هذه المبانى ذات الصبغة العائلية تتشابه مع المقاعد التى يضعها المصريون أمام بيوتهم ، وبعد ما كتبت له باحترام أننى لا أزعم أننى أعلمه الآثار اقترحت أن أعرض عليه ما اكتشفت وهكذا قلت له ، سوف ترى بنفسك يا سيدى أن هذا الأثر الذى ربما لا يكون مصطبة

هو حقيقة مربع الشكل ! وقبل الأستاذ العجوز أن يتبعنى ولاحظ بدقة هذا الجزء المختبئ من الهرم ولدهشتى فقد انتهى بأن اقتنع بأننى محق ، ولم يحس بإهانة بل على العكس بعث لى ، بالتالى بمؤلفاته كلها ! وفي واحدة منها تناول من جديد أحد المكتشفات بالهرم المدرج وهو أن لون الفيانس والكتابة وطريقة كتابة الحروف فى اسم حورس لا تسمح بالقول بأنها ترجع لبداية عصر الأسرة الثالثة ، ولكن تجعلها معاصرة لأعمال الترميم التى تمت على عصر الأسرة السادسة والعشرين ، وهو رأى لم يثبت كذلك .

١٩٤٥ و ١٩٥٩ والعـــودة

كنت رغمًا عنى شاهدًا على التاريخ المعاصر لمصر ، رأيت ما مر من أحداث وما كانت عليه الحياة خلال خمسة وسبعين عامًا، وهذه ميزة لا يتمتع بها الكثيرون . كانت هناك مرحلتان من الأحداث الكبيرة مرت بمصر، وفى كل مرة كنت أعتقد أننى لن أرى مرة أخرى هذا البلد وكنت أجد أملاً عندما تأتينى هذه الفكرة ، ليس لأننى أحب مصر فحسب ولكن لأننى لم أنته من العمل الذى استغرق كل عمرى . بالفعل فى عام ١٩٣٩ عندما غادرنا مصر لنقضى الإجازة فى فرنسا ككل عام ، كان مستبعداً بالنسبة لى أن أتخيل أن الحرب سوف تندلع فى أغسطس وسوف تتعذر عودتى من جديد والتحقت بجيش الشرق ، وكان علىّ إذا كنت موجوداً فى فرنسا أن ألتحق بمركز التعبئة فى إبينـــال ، وهكذا وجدت نفسى فى قيـــادة الجيـــش الرابـــع بالقـــرب من لونفيـــل فى قسم التمويه . ولم أكن أتصور أن ستة أعوام تباعد بينى وبين موقع الحفائر ، وكان الشتاء الأول مؤلمًا ، ولم أكن أعلم شيئًا عن أسرتى ، ولم أكن منذ عدة أعوام أقضى الشتاء فى فرنسا ، ووجدت نفسى لا أتحمل البرد القارس هذا العام ، فلم تتوقف الثلوج ، ولحسن حظى كان لدىَّ رفيق فى البؤس ،

شاب حاد الطبع وطريف ، وكان فى مشروع إخفاء مواد الحرب ، الأكثر غرابة فى هذا التاريخ أننى كنت فجأة مجبراً على عمل عكس ما كنت أقوم به فى سقارة ، فهناك فى سقارة كنت أخرج ما اختفى وغاب وهنا أخفى وأدفن ما ظهر وتبدى ! لم أستطع أن أجد عائلتى إلا بعد اندحار الجيش فى يونيه ١٩٤٠ ، بقينا فى باريس خلال فترة الاحتلال كلها وأثناء الهدنة طلبت الرحيل لمصر ، لكن الإيطاليين الذين كانوا يحاصرون البحر المتوسط عارضوا هذا الطلب ، وابن عمى هاردى وجد نفسه محصوراً هو الآخر فى فرنسا ، فقررنا أن نفتح مكتباً للمعمار فى باريس ولكن لأن الحرب استمرت فقد كنا مضطرين لغلق الباب لعدم وجود زبائن ، وأفدت من هذا الوقت فى كتابة عدة كتب عن أعمالى ، وأن أنفذ مشروعاً طالما فكرت فيه منذ زمن طويل وهو : بناء نموذج لمجموعة زوسر الجنائزية .

فى عام ١٩٤٥ ومع أول فرصة واتتنى سافرت إلى مصر تاركاً ميمى والأولاد فى باريس ، وفى القاهرة زرت حماى وحماتى اللذين غادرا المنيرة لتوهما وهو المكان الذى نتعلق به جميعاً وتركوا مثلى ذكريات كثيرة غالية هناك ، ففى عام ١٩٤٠ ترك حماى مكانه لشارل كوننتز السكرتير المسئول عن المكتبة منذ عام ١٩٣٥ ، وكان عالماً كبيراً بلا شك ، ولكن كان رجلاً فظاً وحقيراً ، ببير جوجيه الذى اختاره ليخلفه والذى لم ير الآخرين إلا من خلاله ، فلم يكد يتسلم مهام منصبه بوصفه مديراً جديداً للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية حتى طلب من عائلة جوجيه أن تغادر فى أسرع

وقت ، ولم يبد كونتز أى لطف أو ود تجاه الرجل الذى عامله دومًا بكل ود ولطف ، ونظرًا لعمرهم المتقدم كان يمكنهم البقاء فى المنيرة كما كانت تقضى التقاليد ، ولكن نظرًا لجفاء المعاملة من خليفته قرروا المغادرة وحمل حقائبهم والذهاب للسكن فى إحدى الشقق . لا شىء تغير فى سقارة ، ومواقع العمل بقيت كما تركت هنا وعدت لمنزلى بسعادة بالغة ، وبعد مرور ستة أعوام من الغم والحزن أعود لرؤية الصحراء ، الامتدادات الموحشة الصامتة أبدًا وأضواؤها المبهجة أعادت لى نشاطى ، يا له من حسن طالع أن تعود لعملك ، يتبقى الكثير لنقوم به ، وبدأت بسرعة فى إعادة البناء فى حوائط المدخل الموجود فى سور زوسر ، ألحقت بى مصلحة الآثار فى عام ١٩٣٩ قبل مغادرتى بقليل مهندسًا مصريًا شابًا . عبد السلام حسين لتشييد السقف الذى يحمى الدهليز ، ولكى يكون هذا السقف مناسبًا أردت فى أسرع ما يكون إعادة بناء السور وهو عمل ضخم تطلب ما يقرب من عشرة أعوام من عام ١٩٤٦ وحتى عام ١٩٥٦ ، أى حتى قضية قناة السويس . وفى غيابى بدأ عبدالسلام فى تشييد هذا السور بأحجاره الأصلية ، ولكنه وجد أنه جهد شاق أن يفحص كل حجر لوضعه فى مكانه الصحيح فقد بسط المسألة واستخدم أحجارًا جديدة ، ولحسن الحظ فإن المجلس المسئول عن حماية الآثار والذى كان مديره فى هذا الوقت إنجليزيًا لاحظ هذا الوضع وأوقف العمل واستدعى دريوتون سريعًا، وأكدت له أن هذا العمل لا يمت بصلة لمشروعى وكان من الأفضل أن يتوقف عبدالسلام عن العمل فى السور حول المجموعة حتى عودتى ، وصدمت من عدم فهم المصريين فى مصلحة الآثار ،

كثيرون أولئك الذين لا يفهمون لماذا لا أبسط العمل وأقوم بإعادة البناء بالطوب الجديد بدلاً من إضاعة الوقت فى البحث عن الأحجار الأصلية ، وكان علىّ أن أقاتل من جديد لأوضح أن أهم شىء فى مجموعة زوسر هو استخدام الأحجار الأصلية ، وخمنت أننا لدينا ما يكفى من أحجار أصلية لإعادة بناء المدخل ، وناقشت فى حوارات طويلة عبد السلام وهو ولد ذكى وتفهم تمامًا وجهة نظرى ، ولكنه أخيراً انشغل بتشييد منزله الخاص ولم يبال بالقضية ، ثم سافر من ثم للولايات المتحدة حيث توفى عبد السلام أثناء إجراء إحدى العمليات .

يمثل مدخل المجموعة الجنائزية العمل الأكثر صعوبة فى المجموعة الجنائزية للملك زوسر كلها ، حيث كان يجب تشييد سور بارتفاع ستة أمتار وستين سنتمتراً كالأصل واستخدمت الأحجار كلها التى وجدتها فى الرمال فى إعادة بناء الواجهة الشرقية بأحجار مستطيلة بكل دقة ، وهذا المدخل هو الذى يقود إلى أقدم صالة أعمدة شيدت بالحجر فى العالم . وعملت فى سلام لمدة عشرة أعوام ؛ ولكن فى عام ١٩٥٦ مثلت قضية قناة السويس حلقة جديدة من الدراما فى تاريخ هذا البلد ، ومن ثم لم تعد مصر هى مصر . وبدأت الحكاية فى عام ١٩٥٤ عندما وقع ناصر اتفاقًا يقضى بجلاء القوات البريطانية عن قناة السويس ، ومغادرة مصر نهائيا ، وفى عام ١٩٥٥ قرر تشييد السد العالى – هرمه – فى أسوان ، ولكن فى عام ١٩٥٦ رفضت الولايات المتحدة بالاتفاق مع الأوروبيين تمويل هذا المشروع ، وكانت الصفعة عنيفة ولم يتأخر الرد ، بعد ذلك بأسبوع ومن

الإسكندرية، وفى ٢٦ يوليو بشكل أدق، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الرابعة للثورة وقف ناصر ساخراً من الغرب ، وأعلن فجاة تأميم شركة قناة السويس ، وهكذا فإنه سوف يمول هو سده وبضربة واحدة يرسخ عقد المحبة مع شعبه من الفلاحين ، فكان أن ضربه أسطولان بحريان وثلاثة من الأساطيل الجوية من قاذفات القنابل والمظليين الإنجليز والفرنسيين بوصف ذلك رداً على هذه الضربة الجريئة من ناصر . حملة خاطئة وغير محسوبة قادها من جانب الإنجليز اللورد مونتباتن والتى ستكون بالنسبة للتحالف الأوروبى هزيمة جارحة وبالنسبة لمصر انقطاعًا فى العلاقة مع الغرب .

كنا فى شهر أكتوبر وكنت لتوى واصلاً من فرنسا وكان يوم جمعه ، وكنت أتناول الشاى فى شرفة نادى سبورتنج مع مصطفى أمير . خليفة دريوتون على رأس مصلحة الآثار المصرية عندما سمعنا أصوات الإنذار فى المدينة كلها ، ومن بعيد رأينا أعمدة الدخان تتصاعد فى السماء ولم نكن نعلم ماذا حدث وأخذ الناس يهرولون فى كل اتجاه لكى يختبئوا وجاء الخبر : هاجم فرنسيون وإنجليز مصر ليأخذوا قناة السويس على مدخل القناة ، المصريون غاضبون جداً وأنزلوا تمثال فرديناند دى ليسبس الذى كان منذ زمن منتصبًا على رصيف القناة فى المدخل . فلم يمهلوا حتى يصدوا غالبًا هذه المحاولة الفاشلة لتحرير القناة وخاصة محاولة إسقاط ناصر . من يوم لآخر صودرت كل أموال الأجانب ، فرنسيين ، وإيطاليين ، وشرقيين بلا تمييز ، ويونان ، وسوريين فالكل كان أجنبيًا فى بلد استضافتهم وأعطتهم الحياة ،

والأغلبيــة لم ترغب فى مواجهة الأحداث . مجتمع يعيش فكرة رومانسية جداً فى ذاتها ، من يوم للتالى لم يتبق إلا مشهد قاس لجثة مفقودة ، ومن يوم لآخر خربت مصر وتغير كل شىء من البنية التحتية للبلد حتى أسماء الشوارع والميادين ، وجاء علىّ وقت كنت أذهب إلى سقارة تحت الحراسة ، ولكن سرعان ما توقفت الحفائر تماماً . وكنت مجبراً على البقاء فى القاهرة ، حيث وجدت نفسى محصوراً ، أغلق حسابى فى البنك وصودرت سيارتى وتوقفت مصلحة الآثار عن صرف راتبى ، باختصار كنت هنا دونما القدرة على عمل شىء ، ولم تعد هنــاك رحلات طيران لفرنسا ، وأقرضنى أصدقاء نقوداً وأخذت أول طائرة لبروكسل .

وعشت ثلاثة أعــوام فى باريس كأننى منفى يملأنى وسواس أننى قد لا أستطيع العودة لإتمام أعمالى فى سقارة ، خلال ثلاثة الشهور الأولى تلقيت ثلاث مكافآت من وزير الثقافة ، ثم وجدت نفسى بعد ذلك بلا شىء ، وأخيراً استطعت الالتحاق بمركز الأبحاث الوطنى CNRC بوصفى أستاذ أبحاث ، وهذه وظيفة مهمة ولكننى أفتقد مصر تماماً ، فلقد أنجزت معظم العمل فى سور المدخل قبل رحيلى ويبقى أمامى إعادة بناء مقاصير فناء الحب سد . ذات يوم اقترح علىّ بيير مونتيه الذهاب إلى ليبيا لأباشر أعمال رفع أثرى فى مواقع فى سيرينيا حيث بدأت هناك حفائر ، وكانت بالنسبة لى فرصة غير متوقعة ، فسوف أغوص من جديد فى أعمال حفائر بموقع أثرى ، وهذا ما أفتقده ، وسوف أقترب من ناحية أخرى من مصر ، وكان ذلك فى نوفمبر ١٩٥٩ .

ولأنه لم يكن منتظراً تحسن العلاقات مع فرنسا فقد سلكت الطرق الرسمية للعودة لمصر لأرى مدى إمكانية التعاون مع مصلحة الآثار . فى ليبيا نفذت الرفع المعمارى لميناء صغير فى أبولونيا حيث قام بيير مونتيه ببعض عمليات التنظيف ، وكان الهدف عمل تخطيط عام للمدينة القديمة ، حيث يقوم الفريق الفرنسى بالعمل خلال الثلاثة مواسم الماضية . كان يحيط بالمدينة سور كبير رفعته معماريًا ، وانتهت الأعمال وسافرت لبنغازى ومنها لمصر على متن أول طائرة ، وفى القاهرة صدمت ، ففى عام ١٩٥٩ لم تكن المدينة تمت بصلة للمدينة القديمة التى أعرفها منذ عام ١٩٢٦ ، اليوم يوجد أربعة ملايين نسمة ، وهذا كثير ! وبدأ السكان يشعرون بالاختناق . أما إذا ما نظرنا إلى خمسة عشر مليونًا اليوم ، فماذا يكون الحال !؟ فى غضون ثلاثة أعوام ثبت ناصر سلطته ؛ الثورى البسيط أثبت بأسًا وقوة وكان اشتراكيًا متطرفًا ، ونادى بالحداثة ، وقاتل ليجعل لمصر صورة جديدة لدى العالم . والمبانى الفوضوية فى كل مكان كأنها ثورة فى البناء .

دونما كثير انتظار ذهبت لمصلحة الآثار واستقبلونى بشكل جيد ، ولم يعترض أحد على أن أعود لاستئناف عملى فى سقارة ، ولكن على وزير الثقافة أن يقرر هذا ، ثروت عكاشة ، صديق ناصر . ووصلت إليه بفضل طبيبه ، وكذلك الطبيب العام للجيش الذى جعلنى أقابله وكان صديقى واقترح علىّ اصطحابى لمكتب الوزير ، وكان أن وصلت لقصر عابدين الذى تحول منذ قيام الثورة لقصر رئاسى ، واستقبلنى ثروت عكاشة دون تأخير ، مختلف تمامًا عن ناصر ، رجل ذكى وساحر

ومثقف جدا وعاشق للفن ، أمضى ثلاثة وعشرين عامًا من عمره فى كتابة ثلاثة أجزاء عن تاريخ الفن، ولعب دورًا رئيسيًا فى إنقاذ آثار النوبة ، وكانت فرصة بالنسبة لى أن يكون رجل كهذا على رأس وزارة الثقافة ، وكنت قد حملت معى كل الرسومات وصورًا فوتوغرافية لأعمالى بالموقع لإقناعه ، وشرحت له أننى أصبحت موظفًا فرنسيا ، وأن المركز الوطنى للأبحاث CNRS لن يمانع أن أعمل فى مصر أربعة أشهر سنويًا لإنجاز إعادة البناء فى آثار زوسر ، وسمعنى للنهاية دون أن يقاطعنى وعندما انتهيت من حديثى نظر إلىّ مباشرة وقال لى "... حسنًا ، أنا موافق تمامًا !".

وبالتالى رأيت عكاشة من جديد ، وآخر مرة كانت فى عام ١٩٩٥ عندما زرته فى منزله الكبير بالمعادى ، فقد أفاد من تقاعده لكى يكرس نفسه لأعماله الأدبية ، وكنت سعيدًا لرؤية الرجل الذى ساعدنى على إنجاز أعمالى ، فقد أبدى اهتمامًا بالغًا بأعمالى طيلة فترة شغله لمنصب وزير الثقافة ، وبكرم بالغ كان يصرف على هذه الأعمال كل ما تحتاجه ، وكان عصرًا زاهرًا بالنسبة لسقارة لسوء الحظ سرعان ما انقضى وتبعه عصر طويل من البقرات العجاف ، ولم ينس عكاشة أبدًا : "لقد وجدت نفسى أمام رجل – هكذا يقول – يتحدث إلىّ بحماس عن عمله الذى بدأه فى سقارة فى عام ١٩٢٦ ، وعيناه لامعتان بالدموع ، ولديه تصميم كبير على إقناعى ، ولم أكن أعرفه ، ولم أكن أعرف أعماله كذلك ، ولكنه كانت لديه رغبة قوية فى أن يعود للعمل ، وأقنعنى وأجبته بالموافقة على العودة لاستكمال أعماله ، وأننى سأتولى باقى الأمور" .

عندمـا خـرجت من مكتبـه فى هذا اليوم الجـمـيل عـام ١٩٥٩ كنت سعيداً للغاية ، ومن العمر الذى يفكر فيه معظم الناس فى التقاعد ، عمر الثامنة والخمسين ، أبدأ المرحلة الثالثة والأطول من عمرى بوصفى أثريًا ولم يخطر ببـالى أبداً أن أتوقف ، يا لهـا من فكرة ، فـقـدت وقـتًـا ليس بالقـصـيـر ! والآن تركـيـزى كلـه ينصب على العـمل الذى علىَّ أن أتمه ، إنجاز إعادة بناء المجموعة الجنائزية للمـلك زوسـر ، أن أقوم بعمليـة التنظيف وعمل تقويات للأهرام التى بهـا نصـوص ومـتـابعـة دراستى لعمـارة تاريخ المجموعات الهرمية فى مصر ، باختصـار حياة جديدة .

إمـــــرى

حتى عام ١٩٣٥ ، لم يحل أحد محل فيرث فى سقارة . مع كوييل العجوز ، حاولنا أن نكتب عن أعمال صديقنا الراحل ، وبعد رحلة بقيت وحدى أعمل فى مجموعة زوسر ، كما كنت أعمل منذ عشر سنوات ، وكنت مندهشًا فقد كان الإنجليز ، فى تنافس شديد معنا ، مجبرين على التسليم لنا بقيادة مصلحة الآثار ، فإنهم فى المقابل حاولوا أن يضعوا قدمًا لهم فى كل موقع ، ولكنهم لم يحصلوا على امتياز لهم فى سقارة حتى الآن .

كان السير ميلز لامبسون ، آخر "معتمد سامى" بريطانى فى القاهرة ، كان لتوه قد قضى عدة سنوات فى الصين وبدا أنه عاد لأرض مقهورة ، أراد أن يجعل التاج البريطانى يسيطر أطول وقت ممكن ، وكان هو فى مواجهة فاروق وكان جافًا وذا تكوين عملاق ، حوالى المترين طولاً ، ذات يوم وصل سقارة يحيط به سكرتيره فرانك ، ويجعلان المرء يتذكر دون كيشوت وسانشو بانسا ، ولأننى لم أكن موجودًا عندما حضرا ؛ توجها ببهجة متعجرفة لرئيس الموقع طالبين رؤية الموظف الإنجليزى المسئول ، وأجابوهما أنه لم يعد هنا إنجليزى ولكن هنا الآن فرنسى واحد ، وتمنى مقابلتى سريعًا ، واقترحت عليه زيارة للموقع كما أفعل مع الشخصيات كلها

التى تزور الموقع منذ زمن طويل ، ولدهشتى فقد أنصت لامبسون لشرحى وأصبح محبًا حقًا للموقع ، الأمر الذى دفعه لأن يزوره بعد ذلك عدة مرات ومع ذلك فى هذا اليوم ومنذ عودته للقاهرة ، طلب من مصلحة الآثار . تعيين أثرى إنجليزى بسرعة فى سقارة ، وكان والتر بريان إمرى .

ولم أكن أجهل اسمه لأنه يعمل فى مصر منذ عام ١٩٢٤ مع فارق عام بيننا ، فنحن فى العمر نفسه ، وعلى عكس فيرث وأنا فقد كان مغرمًا بمصر منذ صباه وباشر دراسات فى هذا الاتجاه فى معهد الآثار فى جامعة ليفربول ، فيما بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٨ عمل فى طيبة ، واكتشف حوالى عشرين مقبرة ، وفى عام ١٩٢٨ أرسل إلى النوبة ، أرسلته مصلحة الآثار حيث اكتشف آلاف المقابر وأصبح متخصصًا فى الآثار المبنية بالطوب والطين ، وأتذكر حكاية طريفة حكاها فيرث بسخرية ، يعرف الإله أن التظلمات كثيرة ، والإدارة المصرية وقواعدها ضيقة الأفق ، فيرث سافر للنوبة من أجل غاية مثل بعثة إمرى ، وهى الإشراف على بناء خمس وعشرين خيمة عند سد أسوان تابعة لمصلحة الآثار ، وبعودتهما حسبنا فى الحقائب خيمة زائدة ، وهذا الأمر دفع المدير الإدارى للمصلحة أن يبعث إلى فيرث خطابات يطلب تفسيراً لهذا ، ولما لم يصلوا لإقناع المدير أمسك فيرث بقلمه وكتب : لعل إحداهن قد وضعت خيمة صغيرة أثناء الرحلة" .

عندما تعرفت على إمرى تأسفت بمرارة على رحيل فيرث ، من الناحية الإنسانية ، يقف الرجلان على طرفى نقيض ، إمرى بدا لى شخصًا

غريب الأطوار ، واثق من نفسه ومتكبر ولا يقبل أى نصح وكان سبباً فى غضبى فى بداية عملنا معًا لأننى يمكن أن أحتج بأننى أعرف الموقع أفضل منه ، وهو يحب أن يتصرف كأنه قائد جيش ، وكأنه ترك الحرب فجأة برتبة كولونيل ، مع أنه لم يمر بالخدمة العسكرية ، لكى ألتقى به لابد من وسائط وفى الصحراء ، يمشى كأنه فى ساحة معركة بعيداً أمام من معه ! كانت هناك صعوبة فى أن نتفق معًا وحاجز اللغة يعقد المشكلة أكثر، فهو يتحدث الفرنسية بشكل أسوأ من تحدثى بالإنجليزية . وهذا يوضح مستوى المحادثة التى قد تجرى بيننا ً وعلى العكس منه كانت زوجته سيدة لذيذة ولطيفة ، ولحسن الحظ بالنسبة لى ولميمى أنها تتحدث الفرنسية بإتقان .

خلف هذه الواجهة الجافة كان لدى إمرى مهارات كبيرة بوصفه متخصصًا، فهو رسام ماهر أولاً ، وهو حفار بطبيعته ، يسير على خطى عالم المصريات الإنجليزى الشهير فلندرز بترى ، واكتشافاته فى سقارة توجت حياته العملية بشهرة كبيرة هو جدير بها ، واعتبر رائد الآثار الإنجليزية الحديثة ، ومع الوقت اتضح لنا أننا نبحث عن الهدف نفسه : مقبرة إيمحوتب ، ومنذ تلك اللحظة عملنا بوصفنا فريقًا معًا ، وبحماس شديد كلف رفيقى حياته لسوء الحظ ، ذات صباح سقط إمرى أثناء العمل فى الموقع ، ثم توفى بعد ذلك بثلاثة أيام ودفن فى الجبانة الإنجليزية . انطلقنا منذ وصوله فى متابعة الحفائر التى باشرها فيرث من قبل فوق قرية أبو صير ، حيث توجد مقابر الأسرات الأولى والثانية والثالثة ،

ولماذا لا توجد هنا مقبرة إيمحوتب كذلك ، والذى عُبد بوصفه إلهًا للطب فى العصر المتأخر ؟ ومقابر كبار شخصيات الأسرة الثالثة؟ وهل اكتشفت مقابر كبار شخصيات الأسرة الثالثة كلها فى هذا الموقع ؟ كل الآمال موجودة ، إمرى ظل على اعتقاده أن مهندس زوسر لا يمكن إلا أن يكون مدفونًا فى سقارة ، وكنت أخمن من جانبى أنه من المهم أن نبحث معبد عبادة إيمحوتب ، حيث عباده يقومون بزيارته حتى العصر المتأخر ، وحفائره المكثفة فى شمال سقارة أسفرت عن معظم المقابر الملكية للأسرة الأولى .

هذه الاكتشافات المهمة كانت بداية جدل استمر حتى اليوم، بين المقبول دومًا أن الملوك الثلاثة الأوائل من الأسرة الأولى قد دفنوا فى أبيدوس مدينة أوزيريس المقدسة ، حيث كانت عمليات الحج السنوية لمدينة الأعياد المدهشة هذه لتلمس حياة أوزيريس وموتها ، ولكن بعد الاكتشافات المهمة التى قمنا بها أصبحنا مقتنعين - إمرى وأنا - بأن مقابر أبيدوس ما هى إلا مقابر رمزية ، أما المقابر الحقيقية فقد شيدت فى سقارة . والدليل على صحة ما ذهبنا إليه أن مقابر سقارة أكبر حجمًا ومشيدة بشكل جيد من تلك الموجودة فى أبيدوس ، وبالمنطق لماذا لا يدفن ملك يحكم من منف فى سقارة ؟! كما أن التحنيط الذى كان فى تلك الحقبة غير متقن تمامًا لكى يضمن حفظ الجسد أثناء رحلة طويلة قد تستمر أيامًا حتى تصل إلى جنوب البلاد ، وهذا لا يستبعد طبقًا للتقاليد المصرية تشييد مقابر رمزية فى أبيدوس ، وبصدد الرد على افتراضنا احتج العديد من علماء المصريات بأن هذه المقابر تنتمى لكبار رجال

البلاط وهى حجة مردودة . عندما اكتشفت مقبرة قاى عا آخر ملوك الأسرة الأولى ، اكتشفنا على الواجهة الشمالية معبداً جنائزيًا متصلاً بالمقبرة، وبه عدة صالات وجدنا بها بقايا تماثيل ، وليس من المتصور فى عصر كان الفرعون فيه إلهًا على الأرض ، أن يجرؤ موظف كبير أو وزير أن يشيد لنفسه معبداً لعبادته الجنائزية لأن هذا من رموز الملكية ، ومن ناحية أخرى ما جعلنا نتجه بقوة للاعتقاد بأن هذه مقابر ملكية أننا وجدنا أسماء هؤلاء الملوك فى كل مكان وبخاصة على طبعات أختام كثيرة مدفونة فى الرمال . نظرياتنا وجدت صدى لدى عالم المصريات الإنجليزى آى . إى . إدواردز، وهو متخصص كبير فى الأهرام ، ذكر عام ١٩٦٧ فى كتاب أهرام مصر: "على عصر الدولة الوسطى وربما قبل ذلك ، الذى يمكن أن يتحمل تكاليف مقبرة أخرى ، يشيد مقبرة رمزية فى أبيدوس لكى تبقى روحه لدى أوزيريس ، وتشارك فى الاحتفالات السنوية ، بينما الجسد يتصل بمسقط الرأس . سنوسرت الثالث ، على سبيل المثال ، شيد قبراً رمزيا فى الصخر فى أبيدوس ، وهو فرعون من كبار ملوك الدولة الوسطى ، ولكنه دفن وعثر على جسده تحت هرمه فى دهشور ، عندما نعلم ثقل التقاليد فى مصر لا نستطيع أن نتخيل أن سنوسرت لم يتتبع خطى سابقيه .

والهم الثانى الذى شغل إمرى بجانب مقبرة إيمحوتب كان العثور على مقبرة مؤسس الأسرة الأولى ، موحد مصر الكبير ، الملك مينا ، وهو الهم الذى شغل أكثر من عالم مصريات ، اكتشف بورخاردْت

فى نقادة فى إقليم أبيدوس ، مبنى كبيراً مؤرخاً بعصر الأسرة الأولى وأسـرع يدون دليلاً على عـزوه إلى مينا ، وبالأسلوب نفسه نسب إليه إمرى مقبرة هى فى نظرى مقبرة الملك عحا وهو الثـانى فى قائمة الملـوك .

حتى الآن ، لم يكتشف أحد لا مقبرة مينا ولا مقبرة إيمحوتب ، ويبدو أن الأولى مثل الثانية مدفونة فى مكان ما فى الرمال فى سقارة ، وأتساءل إذا ما كانت هذه المقبرة تقع أسفل بئر عميق ، والذى يوجد يساراً بعد دهليز المدخل ، ولقلة الإمكانيات لم أستطع أن أنزل إلى الأعماق ، فهذا مشروع منهك جداً ويتطلب أعمال تقوية كبيرة ومكلفة قبل أن نقذف أى أحد إلى هناك ونأسف لذلك ، حتى آخر عمرى ، المقبرة اللغز ، ربما ذات يوم يستطيع أثرى "وبضربة فأس سحرية كشف تلك المقبرة الغامضة .

سقوط الملكية

كنا محظوظين إذ شاركنا من بعيد فى زواج الملك فاروق والشابة فريدة عام ١٩٣٨ ، مشهد لا ينسى ، مشهد أسطورى ، موكب فخم يعبر القاهرة المتلألئة ، والزوجان الشابان متألقان جالسان فى العربة الفاخرة الخاصة بالكونت دو شامبورد ، هذه العربة ذاتها استخدمت عند دخول الكونت إلى باريس ، عندما فشلت الملكة أن تعود فى عهد ماك - ماهون . يحيط بهما الحاشية الملكية بزيهم الخاص الأزرق السماوى والذهبى والأرجوانى ، والطربوش يهتز مع وقع الخطوات . ويخترق الموكب حشوداً مزدانة ، ويُقذف بباقات الياسمين على الزوجين الملكيين ، ونسمع طلقات النار فى كل مكان تكريماً للملك وأغانى أم كلثوم العاطفية . فريدة على عكس التقاليد الإسلامية كانت متبرجة ، وهذا ما أراده فاروق ليؤكد رغبته فى توحيد الثقافات الغربية مع جمال الإسلام الخالد ، عندما أعيد التفكير فى هذا الحماس الجنونى ذاك اليوم لا أستطيع أن أمنع نفسى من رؤية هذا الشعب نفسه ثانية ، يكاد يموت حزناً بعد ذلك بعدة عقود أثناء الموكب الجنائزى الفخم عند موت عبدالناصر .

توج فاروق الأول ملكًا عام ١٩٣٧ بعد زواجه مباشرة ، وستحظى مصر بملك يتحدث العربية حقًا وسيقدم لهم ملكة من الشعب ، حتى وإن كان أى من فاروق أو فريدة جاهزًا للحكم فإن زواجهما كان على كل حال بالنسبة لمصر القصة الأخيرة والأكثر رومانسية من أى حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة ، قريبًا سوف يغلقان على أنفسهما حقبة ذابلة وربما كانا مذنبين لتركها هكذا تموت . الملكة نازلى والتى عاشت منزوية فى عهد زوجها فؤاد تمتعت بحريتها وأمسكت بين يديها بشئون ابنها ، فهى التى أعدت للزواج باختيارها زوجة المستقبل ، فريدة الجميلة جداً ، الشابة الناعمة والمطيعة ومثلها من عامة الشعب، واعتقدت نازلى أنها أمسكت بزمام السلطة، الأمر الذى لم تفعله أثناء حكم فؤاد، وكان السقوط السريع للملكية مترنحة ، وكان يجب كما فعل فؤاد وبالقوة إيجاد التوازن بين القصر والأحزاب الوطنية ، وخاصة حزب الوفد ، لكن فترة الغزل بين الملك فؤاد والنحاس باشا خليفة سعد زغلول لم تستمر طويلاً ، فسرعان ما دب الشقاق لتدبير المعارضة لمكيدة للملكة مما أوجد الفراق النهائى بين الرجلين، وكانت الضربة موجعة لهذا الملك الشاب الأمين والمتفتح، فالمتاعب بدأت بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين إنجلترا ومصر، والتى سحبت من الرعايا الإنجليز الكثير من الامتيازات، وفرضت عليهم حالة مجرد مبعوث لحكومة جلالتها المعظمة ، واعتقد المصريون أنهم أصبحوا مستقلين كلية ، ولتأكيد ذلك أسرعوا بإلغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، وكذلك المحاكم المختلطة، ونظام الامتيازات الأجنبية ميراث رسخ من عهد فرانسوا الأول، وهو ينظم حقوق الرعايا المسيحيين

فى بلاد المسلمين حسب قوانينهم هم، ولكن هذه الضمانات أصبحت حقوقًا أبعد من الإقليمية بعد إلغاء المحاكم المختلطة ، الأمر الذى سبب ألمًا كبيرًا لكل السكان الأجانب نظرًا لتمتعهم بامتياز، لأن هذه المحاكم فعالة نظرًا لقضاتها المتازين ، أما المحاكم المصرية فقد كانت فى طور التشكيل والتحديث وجعلت بينها وبين الدين الإسلامى مسافة ، وكان ذلك بالنسبة لمصر خطوة معتبرة فى سبيل الاستقلال ، لكنها لم تكن على الإطلاق كافية بالنسبة للوطنين .

بالرغم من أننا فى سقارة كنا بعيدين عما يحدث فى القاهرة ، ولكننا كنا نحس أن البلد لا تسير على ما يرام ، وبدأ وباء الكوليرا فى التفشى لكن سرعان ما قضى عليه . وعلمنا أنه فى عام ١٩٤٧ صوتت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين لتفتح الطريق بذلك لقيام الدولة العبرية ، وأسر الملك فاروق لابن عمه عادل ثابت : "فى مايو ١٩٤٨ أعلن العدوان حرب ١٩٤٨ ضد إسرائيل وهى أسوا حرب من ناحية القيادة فى التاريخ المعاصر" ، هكذا يحكى عادل ثابت فى مذكراته فاروق ملك مفترى عليه ، "فاروق كان ببساطة مخدوعًا فى الأمير عبدالله ، جد الملك حسين ، ملك الأردن، وعمومًا فالمصريون مكروهون من إخوانهم العرب، والذين لم يكن لهم مشاركة على الجبهة" ، إنه واضح ومثالى ولكن بشكل خاطئ ، هكذا كان فاروق الذى ظل مخلصًا لحلمه الكبير فى توحيد العالم الإسلامى ، والذى رأى فى ذلك تعويضًا لكل الأمم المستعبدة ، مثالية سوف تكلفه قريبًا العرش .

فى يوم من أيام يناير ١٩٥٢ عدت بهدوء للقاهرة بالسيارة مع عالم المصريات الشاب زكريا غنيم ، وكنا يوم الخميس ليلة نهاية الأسبوع فى مصر وموقع الحفائر يغلق حتى صباح السبت ، واصطحبت زكريا حتى منزله ، وأدهشنا أن نرى طريق الهرم خاليًا تمامًا ، وكنا بعيدين عن تصور الدراما التى حدثت بالمدينة ، على حدود الجيزة رأينا فجأة الدخان الأسود يتصاعد فى السماء "انظرا هذا الدخان ، هكذا صرخت ، مصانع الغاز الجديدة ملأت المدينة كلها بالدخان ، ولم يدر بذهن أحد أن يجبر المصانع أن تضع مرشحات على المداخن ، هذا شىء يثير الغيظ ، وكلما اقتربنا من القاهرة ازدادت كثافة السكان ، وبعدما أوصلت المساعد الشاب ، واصلت حتى شارع القصر العينى حيث استأجرت شقة فى وسط البلد ، كانت الشوارع خالية والمحال مغلقة ، وفقط عندما اقتربت من مسكنى علمت بما حدث . مبنى البواك BOAC وشركة الطيران البريطانية ونادى الطارف احترقوا ، فاستدرت وأنا أسير فى الاتجاه المعاكس حتى ميدان الإسماعيلية وهو اليوم ميدان التحرير الشهير ، وأمام المتحف المصرى عدد ضخم من المتظاهرين ، ورجعت من جديد فى الطريق حتى كوبرى قصر النيل محاولاً أن أعود إلى منزلى من طريق آخر . وعندما وصلت الشارع الذى أسكن به ، أربكنى مشهد التخريب ، فقد احترقت عدة مبان ، وكان الحلوانى جروبى ضحية الحريق ، ولما استشعرت الخطر أسرعت للزمالك لأختبئ لدى صديقتنا ميمى أوزوالد التى أخبرتنى أن ثورة اندلعت لتوها ، قلقون بقينا ، وآذاننا على المذياع ، وعيوننا تتفحص السماء من الشرفة ، واحتراق شبرد والكونتننتال

وسلسلة محلات شيكوريل ، وكنا نسمع انفجارات فى كل مكان بالمدينة وعلمنا فى الغد أن الخراب اختلطت به جرائم جنائية أخرى . يبدو أن وسط المدينة قد دمر تمامًا ولكن الأحياء السكنية كانت بمنأى عن ذلك ، ويفصل النيل فى الوسط ما بين عالمين ، ربما كانا ولوقت طويل يعيشان معًا .

وشرارة هذه الأحداث اندلعت فجأة لكنها كانت مختبئة منذ شهور والجو ينذر بالانفجار ، إنها حادث وقع بالإسماعيلية حيث إن القوات الإنجليزية استخدمت الدبابات والمدفعية فى هدم نقطة بوليس وبهذا ثار البوليس فى القاهرة ، وأصدر أمرًا بالإضراب فى الغد ٢٦ يناير وتفاعل الناس فى الشارع ، وفيهم الوطنيون والإخوان المسلمون مع الحدث وأيدوه بقوة مستشعرين رياح التأثر ، وكان فاروق فى هذه الأثناء مشغولاً جداً بالاحتفال بمولد ابنه الذى طال انتظاره ، لم يعر الأحداث الاهتمام الواجب ، وعندما مالت الشمس للغروب كانت المدينة حطامًا حيث تدخل الجيش ، وعندما حل المساء كانت المدينة متفحمة ، واستشعر الملك عدوان رجل الشارع من المصريين والذى حمل معنى قاتلاً للملكية وسوف يسقط بعد ذلك بستة أشهر فى ٢٦ يوليو إثر انقلاب الضباط الأحرار الذى تزعمه الكولونيل ناصر والجنرال نجيب ومنع الملك فاروق من قصره بالإسكندرية وقد عرف مصيره المحتوم ، ومُنع الجيش من التدخل لتفادى حدوث مذبحة ، هذه الثورة التى قيل إن السى أى إيه ساندتها ، والتى انتهت بقيام جمهورية مصر العربية ، لتصنع بذلك نهاية لحكم طويل لأسرة محمد على ، فاروق الذى أجبر على التنازل عن العرش

غادر مصر للأبد ، تاركًا وراءه بلده فى فوضى عارمة ، غير مستقرة ومحطمة ، آخر فرعــون من حضارة رائعة ، الآن يعانى من الكرب ، ولكن ظلاً لعواصف أخرى سوف يقضى على وجوده بشكل درامى .

كان لرحيل فارق عواقب وخيمة على مصلحة الآثار ، وعندما عدت للقاهرة فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر اكتشفت التغييرات التى حدثت خلال فترة غيابى عن الموقع ، ليس فقط أن المصلحة غيرت مديرها ولكن غيرت مجال إدارتها ليشمل التراث العربى والقبطى، ولأول مرة منذ مائة عام لم يعد رئيسها فرنسيا ولكنه أصبح مصريا ، وفى جوهر الأمور وحتى هذه اللحظة لم يغير هذا شيئًا كبيرًا . لاحظنا مع ذلك أنهم خلطوا فى القسم نفسه الفن الإسلامى والفرعونى مع ما بينهما من اختلاف بيِّن ، ولم تكن هذه سياسة حكيمة والمدير الجديد مصطفى أمير ، وهو عالم فى عصور ما قبل التاريخ وجغرافى ورئيس سابق لجامعة الإسكندرية ، كان رجلاً لبقًا جدا ، أستطيع أن أتواصل معه بشكل مريح ، ولكنه لم يكن يعرف الشىء الكثير عن علم المصريات ، ومع ذلك ملأ وظيفته تمامًا ، كان يأتى ليزور الموقع مرارًا ، وكانت لديه رغبة فى تعميق الصلات الفرنسية المصرية التى تأثرت بحركات الاستقلال فى المغرب . ومع قدوم ناصر ابن الفلاح الذى أصبح بطلاً للقوميين العرب ومفجر الثـورة فى بلاد الشمال الإفريقى منذ عام ١٩٣٣ ، لم يكف مارلو عن ترديد أن الإمبراطوريات الاستعمارية مصيرها إلى الــزوال ، ولو بحرب أوروبيــة ، ولكن من يصدق إذن ؟

حول البحر المتوسط

أحلم منذ عدة سنوات باكتشاف المواقع الأثرية فى بلاد المغرب العربى ، والأحداث التى اندلعت فى مصر منذ يناير ١٩٥٢ كانت تنذر بقلاقل وسط المستعمرات الفرنسية ، وفى ذاك العام قلت لنفسى ربما قد حان الوقت للقيام بهذه الرحلة التى تلح علىّ . وفى بداية صيف عام ١٩٥٢ قررت السفر لفرنسا فى سيارة ، آخذاً طريق البحر المتوسط ، ومن شارع قصر النيل وحتى شارع دييورد - فالمور حيث نسكن فى باريس ، مسافة لا تقل عن عشرة آلاف وخمسمائة كيلو متراً ! فى هذا العصر ، القيام برحلة فى سيارة قديمة موديل CV 4 أمر يبدو مستحيل الحدوث ، ولم تكن معظم الطرق معبدة ومحطات البنزين نادرة والفنادق غير موجودة ، وميمى التى تعيش فى باريس مع الأطفال كان عليها أن تلتقى بى فى تونس . بعد رحلة زواجنا كانت هذه أحلى رحلة قمنا بها .

غادرت القاهرة فى نهاية يونيو ، مصطحبًا معى ميمى أوزوالد ، صديقة ميمى التى تعود هى الأخرى إلى فرنسا ، رحلنا فى الصباح الباكر ووصلنا الإسكندرية فى ثلاث ساعات ؛ واسترحنا قليلاً على البلاج لننشط قبل أن نأخذ الطريق الشاق الممتد لأكثر من ألف ميل حتى جبل

سيربينيا ، وكنت أرغب فى عبور الحدود قبل قدوم الليل لأنه كان هناك سلطات إنجليزية عسكرية يمكن أن تنام فى أحد معسكراتها فى ليبيا . البلد الذى استقل منذ عام كان لا يزال متوحشًا وغير آمن فى طرقه . عند خروجنا من الإسكندرية وبعد عبور بحيرة ماريوت بملاحاتها ذات اللون البنفسجى ، رأيت أن الصحراء تحتفظ بذكريات معارك ١٩٤٢ ، وكانت كأنها موقع للمناجم والموتى ، فلو أن الطريق الممتد من الإسكندرية - السلوم - طبرق - بنغازى ثم طرابلس كان معبداً لما اضطررنا للمرور بعيداً فى الصحراء ، والرجوع عن طريق أبو صير جعلنا نرى بقايا المدينة البطلمية القديمة فى تابوزيريس التى شيدت قبل الإسكندرية بقليل ، وهى مقامة على حافة البحر شمالاً والبحيرة جنوبًا ، وتتحكم المدينة من ثم فى ميناءين وتعيد أوزيريس المدينة الكبيرة بجوارها على شاطئ المتوسط ، وبقيت الإسكندرية لانبعاثها المستمر من وسط الحطام ، أما كابوريرس فكانت تفقد مع الزمن سحرها وجمالها وقوتها ، ثم تلاشت تمامًا . ومن بعد ذلك وعلى امتداد عدة كيلو مترات كانت مياه البحر زرقاء تمامًا ، وفى مرسى مطروح عبرنا مدينة صغيرة بها حمامات بحر منعشة ثم وصلنا فى ما بعد الظهر إلى السلوم ، مدينة حدودية واقعة عند حافة منحنى صخرى كبير ، وما بين البردى وطبرق قابلنا قطعانًا من الأغنام التى تسد الطريق وسرعان ما تهرع مفسحة الطريق تحت وقع أصوات آلة التنبيه بالسيارة ، وعلى مدخل طبرق ثلاث جبانات إنجليزية وألمانية وفرنسية تحزم المدينة . والجبانة التى أثرت فىَّ كثيرًا كانت تلك الفرنسية التى بدت أكثر تواضعًا مقارنة بجبانة الألمان ذات الأسوار العالية

ولوحات البرونز العملاقة ، وفي بير حكيم كان المشهد أليمًا كذلك ، والموقع مغطى بالأسلاك الشائكة ، وتنتشر الحفر التي أحدثتها القنابل وسط الرمال ، ومكثنا الليل في معسكر للجيش في درنة .

وفي اليوم التالي استيقظت في الخامسة صباحًا ، وملأت خزان البنزين للسيارة CV 4 ، وملأت زجاجات ماء معنا ثم أخذت الطريق ، بينما ميمي أوزوالد كانت نائمة في السيارة ، وكنت أحلم برؤية سيرين عند شروق الشمس ، وكنت محظوظًا إذ رأيتها هالة تنساب منها الأشعة الرقيقة ، المدينة ذات القصر الذهبي التي قدمها أبوللون للحورية سيرين . ولم يكن لدينا الوقت حتى نتأخر ، فالطريق حتى تونس طويل حيث ستصل طائرة ميمي بعد يومين ، وبعد عدة ساعات وصلنا بنغازي ، ووجدها المدير غير جذابة ، ويحتفلون بنهاية رمضان والمساجد عالية أصواتها ، والمدينة خالية ، وعمال محطات البنزين في إجازة ، وأخيرًا وجدت إيطاليًا عجوزًا أمدني بالبنزين ، حيث ملأت عدة صفائح ، وواصلنا رحلتنا وقطعت الطريق الذي يمر بخليج سرت ، على الحدود والسهول الخضراء ما بين طرابلس وسرينيا ، حيث تغوص الصحراء من البحر على هذا الطريق الموحش المليء بالهضاب ، كان يقابلنا في المتوسط عربة نقل في اليوم ، والمشهد أخضر جاف من أشعة الشمس ، وهنا فوضى من دبابات وسيارات محطمة ومدافع بالية على الحدود ، ويحدد الفاصل بين الإقليمين الليبيين قوس كبير من الألباستر أقامه موسوليني مفتخرًا بأنه نصب نفسه زورًا سلطانًا فخريا للإسلام ، وتخلصت ليبيا من نير الاحتلال الإيطالي عام ١٩٥١ وكانت أول بلد تستقل عن الاستعمار . الليبيون

الذين يحكمهم الآن الملك الطيب الإدريسي ودودون . قبل وصولنا طرابلس زرنا ما تركه الرومان في الإقليم الطرابلسي . الأطلال الرائعة لصبراتة و "ليبتس ماجنا" ذات الأساطير الكثيرة التي تحاك حول آثارها الرائعة .

وعند وصولنا طرابلس كان الليل قد غطى المدينة ، ووجدنا فندقًا متواضعًا ونظيفًا ، وعلى مقربة من الفندق الكبير الذى أقام به كل من أندريه جيد ولاربو . وفى الصباح تجولت فى المدينة ورفيقة الرحلة ظلت تنعم بالراحة ، وطرابلس للوهلة الأولى ليست جذابة ، فيما عدا الكورنيش على المتوسط "متنزه الإنجليز والإيطاليين . والمبانى الثرية ذات واجهات من العمارة الباروكية من الألباستر الضخم الجذاب وزخارف كثيرة مبتكرة ، وقد تأثر الألباستر بالرذاذ وتفتت وجف وبهت ولم تعد تعطيه أشعة الشمس عند الشروق أى منظر بهيج . وما بين عربات الجياد والناس فى أثوابهم الفضفاضة خرجنا من طرابلس لنواصل الطريق الطويل المستقيم بين أشجار النخيل الكثيفة والسرو والزيتون واللوز ، ومع اقترابى من الحدود التونسية لم تتبق إلا مسافة حارة بطول الصحراء الغربية على الشاطئ ، وعانينا من الحر على هذا الطريق الذى لا توجد به شجرة نستظل بظلها ، وكنا نتجنب التوقف ولكن كنا مجبرين لملء مبرد السيارة بالمياه ، حيث كانت ترتفع درجة حرارة الموتور والسيارة بشكل مخيف . وعلى مدخل قرية حدودية وهى قرية بن جاردان ، كان يمد الطريق خضرة خفيفة وبعض المنازل البيضاء ذات سقوف وطيئة ، وعلى مبعدة من ساحة تلمح بيوت الفرنسيين .

وهنا وجدنا فرنسا بشكل ما ، لن نغادرها حتى المغرب ، والاستقبال مع ذلك لم يكن حارا جدا . فريق من الفتيان انقضوا علينا وطلبوا بقشيشًا بعنف ، ولما رفضنا كان نصيبنا الشتائم والسباب ، وأسرعنا وواصلنا الطريق حتى ميدينين . وكانت هذه أول مدينة ترتفع نحو الشمال ، وفى الجنوب تسبح فى صحراء محرقة . وبالبحث عن شىء نأكله أو نشربه دخلنا كافتيريا وبعد نصف ساعة أخذنا الطريق مواصلين الصعود شمالاً نحو الساحل ، حيث توجد أجمل أشجار الزيتون وقضينا الليل فى صفاقص ، المدينة التى شهدت مسرحًا لمقاومة الفرنسيين عام ١٩٤٧ وبقيت نقطة حساسة قابلة للاشتعال لأقل الأسباب ، ولا يخرج الفرنسيون بدون أسلحة عندما تكون الأجواء غير مستقرة ، وبالوصول لتونس كانت ميمى قد وصلت وسعدت بهذه الرحلة ، وجدت شمسًا ساطعة على مشهد من الجمال فريد ذكرها بمصر وسرنا بسرعة والنوافذ مفتحة ، وفى قرطاج زرنا أطلال يرشدت بن شارل بيكار وهو أثر كذلك ، و "ملكة البحار" هذه دمرها وقضى عليها الإسلام ، ولم يتبق منها إلا موقع ضخم تزوره الرياح العاتية ، امتدادات هائلة من الأحجار البيضاء تتخللها مواكب من الظلال . وسيطرت علىَّ هذه الأطلال الرومانية ، والتى بها أعثر على عمود كونتى من وقت لآخر وسط الأزرق الداكن بالأفق ، وكنت متأثرًا عندما أطأ هذه الأرض التى هى آخر مواقع العالم القديم ، والتى تقف شاهداً على مولد المسيحية .

وعبرنا الحدود الجزائرية بمحاذاة ساحل المتوسط ، وفى أحد المنحدرات انتبهت إلى أن الفرامل لا تعمل ، فأوقفت السيارة فوراً على

حافة الطريق ، ليس لدىَّ فكرة كبيرة عن الميكانيكا والحل الوحيد هو أن نجد جراجًا فى أقرب مدينة ، وكان ذلك على بعد عـدة سـاعات ، وسط عواصف عاتيـة ، وكان أن دخلنا قنسطنطين ، وكانت تكتسى بالسواد أثناء النهار ، وبعض البرق مر بالسماء أضاء المدينة وهطلت الأمطار ، ورغم النوافذ المغلقة فقد امتلأت السيارة بالمياه ، وكانت ميمى مرعوبة وتمددت على الكنبة الخلفية ولم تنطـق بكلمة ، وتركنـا السيـارة 4 CV فى جراج وذهبنا إلى أقرب فندق ، وكنا مجبرين على قضاء يومين هنا فى تونس ، قنصل فرنسا الذى استقبلنا أعطى السيارة لميكانيكى ، كان عليه أن يفحص السيارة عمومًا ثم قرر أن يفكك جزءًا منها ؛ ليتمكن من إصلاح الفرامل، ونستطيع أن نواصل السفر فى أمان ، بعد قنسطنطين التى تذكرنا "بتوليد" ، وصلنا "كابيلى" ، وهو إقليم مكون من عدة قرى مكتظة بالسكان والشرفات الحجرية ، حيث تنبت أشجار مثمرة وزيتون وسحرتنا بون (فيما يشبه المعجزة ، عنيبة اليوم) هذه المدينة الساحرة ، ومع "الخروج من عاصفة غير عادية" والعـودة من حملة ملكة سبأ ، مارلو "عاد من العدم" .

الجزائر التى تكتسى بالبياض عند شروق الشمس ، وكان نابليون الثالث مغرمًا بها . تناولنا الغداء فى مستغانم وسط هضاب خضراء ، ثم نزلنا إلى كوران الأندلس ، حيث يحمل كل حجر بصمة العبقرية الأسبانية . فى حوران ، استضافنا مهندس معمارى كنت قد استقبلته فى سفارة ، وتبدو الجالية الفرنسية أقل قلقًا هنا منها فى تونس ، أبدى الجزائريون

من عام ١٩٥٢ تمسكًا بفرنسا . وعلى الطريق وتحت الشمس الساطعة وسط جو حار توقفنا فى سيدى بلعباس ، مدينة صغيرة ، فلا قيمة ولا جاذبية ، حى عام للجالية الأجنبية ، وفى الحى الوطنى شربنا شايًا بالنعناع وأكلنا تمرًا لذيذًا يبقى مذاقه بالفم. ولم يتبق إلا رجال بالمقهى ، وعندما رأوا صاحبتى معى توقفوا عن الكلام وتفحصوها فجأة بفضول ولكن بلا عنف ، وسرعان ما عادوا للعبة الطاولة التى يمارسونها فى صمت مقدَّس ، وهم يدخنون الغليون . فاس ، المدينة المقدسة ذات المآذن الكثيرة ، ارتبكنا فى هذا الديكور الفخم فى الجبال العملاقة ، لا يبدو أن شيئًا يتحرك منذ قرون . مدينة سحر وروعة ، مساجد مغطاة بالذهب والأحجار الكريمة ، وقصور من الألباستر الأبيض والأفنية ، والكل يسبح فى جو أسطورى عميق على إيقاع المؤذنين الذين يبدون لنا كأنهم فى معبد ، وتشعر بهم فى كل مكان إيمانًا مسيطرًا على الجميع . والحركة والحياة فى الأسواق حيث الظل ، يعرض القماش والبخور والعنبر والقلائد ، واليهود بلباس رءوسهم الأسود ، والبربر من البرانس ، والعرب فى الجلابيب ، وتجولنا فى المغرب وسط شعب ودود مضياف ، والشعور بالاغتراب الذى نحسه أحيانًا نابع من أننا يملأنا شعور بأننا نمر بعالم خيالى . بدأ البلد طريق الاستقلال ، ومع ذلك لم نشعر بثقل المناخ من العدوانية ، الأمر الذى واجهناه فى تونس . والاستقلال هنا لن يمر دون حمامات دماء ، وهذا لم يمنع المغاربة من الاحتفاظ بطابع مضياف تجاه الأجانب .

ثرثرة فى قيظ الظهر ، هذا مرعب ، الحماقة والانتعاشة من كلمة "ثرثرة" نعم ، وكنا مجهدين من الحر ، ومع ذلك لا نقوم بزيارة هذه العالم المنسى هكذا جزافًا فهنا هذه الجنة من فن النحت الهللينستى ، صديقتنا ميمى تتبعتنا ثم جلست فى شرفة فى الظل وأمامها البيرة الباردة ، وعندما عدنا وقد تغير لون جلدنا ويغرقنا العرق عاملتنا بوصفنا حمقى ، وكنا فى عمر الخمسين والخمسة وأربعين ، ولكن فى نظرها كنا كهولاً ! وظلت ولوقت طويل ميمى تحت تأثير سحر مدينة مراكش . القصاصون فى كل مكان . ساعات تستغرقها أمام مستمعين ومنصتين ، يحكون بحماس وجاذبية قصصًا مشوقة ، وننشد للحكاية وإن كنا لا نفهم إطلاقًا اللغة العربية الجميلة ، ولكننا نحس تمامًا بالفتنة . طائر النونو يعبر بكثافة فوق الأسقف المسطحة قبل أن يختفى فى الأفق خلف المآذن . هذه تشبه القاهرة التى رأيناها نوعًا ما . وبعد عدة أيام وصلنا طنجة بوابة المغرب على المحيط الأطلنطى وهنا بعدنا عن إفريقيا تمامًا ولكننا لم نصل بعد أوروبا ، ولكن المتحاربين فى [الحرب العالمية الثانية] (٣٩-١٩٤٥) فى طنجة يهود وعرب ، وإنجليز وإيطاليون لم يتوقفوا عن العمل معًا بلا حوادث ، مدينة غريبة فأزقة كاسبا قذرة وضيقة ، وهى المدينة الوحيدة فى أفريقيا التى تطل على البحر المتوسط وعلى المحيط الأطلنطى ، وفى المقابل تقف جيرالتى ، مدينة بريطانية باردة وسط مدائن ذات ملامح أندلسية ، والوصول إلى هذا الموقع الصخرى كان رائعًا . إنها غرناطة ، أنيقة بحدائقها الغناء والتى توجت رحلتنا ،

وبالصعود شمالاً فى إسبانيا بدأت تهطل سيول الأمطار التى أغرقت الطريق تماماً ، مما جعلنا ننزل من السيارة ونسير على الأقدام بعد أن توقفت السيارة نهائيا ؛ تبللت البوجيهات تماماً وخرجنا نحن الثلاثة ميميه وميمى أمسكتا بالشمسية لتغطيا الموتور ، بينما أحاول عبثاً لسوء الحظ إصلاح البوجيهات . ولم يكن أمامنا إلا أن ندفع السيارة حتى تكون فى مأوى ، بعيداً عن المطر ، وعلى سقف السيارة تفككت حقائبنا المصنوعة من كرتون مصرى الصنع ، تفكك وتبلل كل ما بداخلها ، وكان لزاماً أن ننتظر حتى تنتهى العواصف لنعاود الرحلة بالسيارة فى أسرع ما يكون .

ووصلنا برشلونة فى يوم أحد جميل ، حيث كانوا يحتفلون بعيد شهير بألوانه الكثيرة ، وكنا يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، وفى اليوم التالى سمعنا نبأ سقوط الملك فاروق .

متحف إيمحوتب

أقاتل منذ عشرين عامًا مع السلطات المصرية من أجل إنشاء متحف صغير فى سقارة ، لكى نعرض فيه الآثار المختلفة التى عثر عليها فى الحفائر بالمجموعة الجنائزية للملك زوسر وكذلك النموذج الذى صممته للآثار التى شيدها إيمحوتب . وهذا المتحف ضرورى لكى يسمح لمن يأتى من السياح بأن يفهم ما هى وما كانت عليه مجموعة زوسر الجنائزية ، وكذلك الدور الذى لعبته عمليات إعادة البناء التى تمت على مدار نصف القرن الأخير .

ومنذ عشرين عامًا ويداخلى إحساس بأننى أقاتل طواحين الهواء : والمصريون لم يعترضوا فهم يقولون دومًا نعم ، ولكن لا شىء ينفذ فى أرض الواقع ، وهذا راجع بشكل جزئى إلى تساهل المصريين ، وراجع كذلك إلى أن أحدًا لا يأخذ القرار ، ومن ثم يؤجل كل شىء . وهم لا يهتمون كثيرًا بالوقت ، ولكنهم فى الوقت نفسه لا يلحظون أن وقتى محسوب . وعدونى بأن المتحف سيتم افتتاحه فى مارس عام ٢٠٠٠ بمناسبة انعقاد مؤتمر المصريات العالمى بالقاهرة ، وعندما وصلت قبل هذا التاريخ بعدة أيام لم أشاهد من المبنى إلا موقعًا ، والعمل فيه مهجور ، ولا يوجد

عامل واحد يعمل ، ولا أحد يجيب على أسئلتى . وبدأ يساورنى الشك فى أن أرى يومًا هذا المتحف . أثناء الحرب العالمية الثانية ووسط آلامى فى باريس بدأت فى تصميم نموذج للمجموعة الجنائزية للملك زوسر ، وصممت لها التخطيطات ودفعت بها لفنان لديه أتيلييه كبير ، وكان يلزم أن يكون ذا مقاسات كبيرة لتعبر عن الواقع . وبمقياس رسم بمعدل سنتيمتر لكل متر يكون طول النموذج أكثر من خمسة أمتار ، وقمت بتصميم عدة نماذج لذلك ، واحد منها يوجد فى بروكسل فى متحف الخمسينيات ، وآخر سافر إلى ألمانيا حيث تحطم لسوء الحظ ، والأخير ظل بناء على طلب شارل بيكار بمتحف الفن ، بشارع ميشليه . وفى عام ١٩٦٨ حطمه الطلبة تمامًا ، ونقل من ثم كليةً إلى مخازن المتحف ، حيث استعدته لإعادة إصلاحه ، وهو العمل الذى استغرق عدة سنوات ، وبقيت أبحث عن مكان فى فرنسا لكى أعرضه . رفض متحف اللوفر الأمر لأنه لا يريد أن يعرض نسخًا ليست أصلية ، وقمت بتقديم طلب إلى متحف تروكا ديرو ، وكانت الإجابة أنه لا يوجد هنا مكان لأثر مصرى . أخيراً قلت لنفسى إنه يجب أن تكون نهاية مطافه فى سقارة ، وشحنته لمصر حيث يوجد منذ عشرين عامًا فى الصناديق محبوسًا فى مكان بالقرب من المنزل القديم الخاص بفيرث .

ولما تصورت أن المتحف ربما يتم الانتهاء منه فى القريب العاجل فقد أتيت الشتاء الأخير خصيصًا لكى أفتح هذه الصناديق ، وكنت أخشى من تلف مئات القطع التى يتكون منها النموذج نظراً لطول المدة

التى بقيت فيها حبيسةً هنا ، واطمأننت عندما فحصتها ؛ فالنموذج سليم وينتظر أن يركب ويعرض . وصممت متحف المستقبل ذا العمارة البسيطة ، والمتناسق مع الآثار ، وقد اختاروا مكانًا لتشييد المتحف . يجب أن يكون أسفل مكان انتظار السيارات الواقع بالقرب من مدخل المجموعة الجنائزية ، وكان مكانًا مثاليًا ، فالسياح سوف يقومون حتما بزيارته قبل الذهاب للموقع نفسه . وبقيت أعمل طيلة الشتاء ، ولدى عودتى لباريس فى فبراير ١٩٩٦ كان المبنى قد أنجز تقريبًا ، وكنت معتقدًا أنه عند عودتى مرة أخرى لسقارة يمكن أن أرى المتحف واقعًا ، ولكن مكالمة تليفونية من القاهرة بددت أحلامى ، فقد أخبرونى أن وزير الثقافة الذى يمسك فى يديه منذ سنوات مصلحة الآثار ، وأثناء زيارته لسقارة أمر بهدم المتحف بحجة أنه يشوه الموقع ! وجن جنونى ؛ فقد كان علىَّ أن أبدأ من الصفر ، وقد كان .

وسط هذا الجو التعس جاءتنى الفرصة ، ففى أبريل من العام نفسه استقبلت زيارة الرئيس شيراك الذى شرح له سفير فرنسا بالقاهرة آلامى . وتدخل شيراك لصالحى مباشرة لدى الرئيس مبارك ؛ الذى أعطى أمرًا بعدها مباشرة بإيجاد حل لهذا الأمر . وفجأة أخذت الأشياء طريقها للحل . وعدونى بتشييد هذا المتحف الصغير سريعًا ولكن فى مكان مختلف . أثريون ومعماريون ومفتشون اشتركوا معًا واختاروا مكانًا ، كان هذه المرة بالقرب من المدخل الرئيسى بجوار المنحدر الصخرى ، وهو موقع مناسب فهو يجبر السياح على الهبوط من أتوبيساتهم ثم يعاودون الصعود إليها مرة أخرى لمواصلة الصعود إلى

المجموعة الجنائزية . وبدأت الأعمال . وكعادة المصريين عندما يتلاشى الضغط والمتابعة يتوقف كل شيء . وقالوا لى اليوم إن الصناديق خالية .. ربما زيارة جديدة من شيراك تحرك من جديد المسئولين المصريين ؟!

لو أمدَّ الله فى عمرى لوددت أن أعرض فى الصالات الثلاث المتوقعة كل العناصر التى لم أستطع أن أضعها فى مكانها من البناء : قطع من تيجان الأعمدة ، وحيَّات كوبرا ، وكسرات العوارض المحتفظة بألوانها الأصلية . وأود كذلك انتقاء أوانى ألباستر من تلك التى اكتشفتها فى الهرم ، والتى تقبع فى مخازن المتحف المصرى منذ سنوات ، وقد أهدى ناصر بعضًا من أجمل هذه الأوانى لزواره من المملكة العربية السعودية. ولو تخيلنا هذه الأوانى مضاءة من الداخل لعلمنا مدى إتقان الفنانين المصريين القدماء فى تشكيلها . ولأننا لم يعد بمقدورنا زيارة المقبرة الجنوبية ، فسوف يكون من المفيد أن نعرض فى أحدث الصالات نسخًا من اللوحات وصفوفًا من الفيانس الأزرق . وأود كذلك أن أضْع معهم نموذجًا للمعبد الجنائزى ولبيت الشمال وبيت الجنوب ، وهى المبانى التى لم أستطع أن أعيد بناءها فى الموقع الأصلى ؛ نظرًا لنقص الكثير من العناصر ، وكذلك أحب أن أضع فى الدهليز القاعدة التى عثر عليها فيرث عام ١٩٢٨ ، والتى تحتفظ بأقدام زوسر وهو يطأ على الأعداء ، وعلى مقدمة هذه القاعدة منقوش اسم الملك واسم مهندسه المعمارى إيمحوتب وألقابه . منذ عدة سنوات استطعت أن أفيد من رعاية الـ إى . دى . أف EDF ثم انصرفوا ! واليوم، وبما أن المتحف مكرس لأمحوتب ،

فقد تقدمت بطلب إلى السيدة زيجلر رئيسة القسم المصرى بمتحف اللوفر حتى أحصل لمتحف سقارة على نسخة من تمثال إيمحوتب الصغير ، وهذا المتحف يمتلك عدة تماثيل صغيرة نادرة له ، وأتمنى أن يتم هذا العمل ، ولكننى قلق بخصوص النموذج لأننى أتساءل متى يتم هذا العمل ... بعد رحيلى ؟!

كاهن فى مصر

عندما احتل أتين دربوتون مقعد بيير لاكو لم نجد شيئًا يجعلنا نستبشر . والرجل يتمتع بذكاء وقاد وروح عالية ، وتعلقنا به ويرهن على أنه يمتلك شخصية غير عادية . هذا العالم الذى أجل فيه علمه ، وهو جذاب بجانب شخصيته المرحة والمتلألئة والطريفة فهو ساحر ، وكان ذلك مصدراً للألم، فعندما يراه المصريون يغتمون ويضعون العراقيل فى سبيله. وبعد مشوار عطاء ناجح وصل مصر. وقد بدأ حياته العملية مبكرًا جداً ، ومن ثم فهو يملك مهارتين : الديانة وعلم المصريات ، والواحدة والأخرى وجهان لعملة واحدة فى هذا البلد الذى يمكن أن يكون - أستطيع أن أقولها - مجمعًا كهنوتيا ، وهو من إقليم لوريان أصلاً . ومنذ نعومة أظفاره يسبح فى مناخ من التقوى ، فوالده أولاً ناشر لمؤلفات دينية ، وأختاه أصبحتا من نساء الكنيسة ، ثم هو ترسم وهو صغير كاهنًا شرفيًا فى كاتدرائية نانس ، ولقد استطاع وهو كاهن أن يدخل الإدارة بفضل الخروج على إدوارد هيربوت رئيس المجلس . مبهوراً بمعارفه ، فإن جورج بنديت رئيس القسم المصرى بمتحف اللوفر جعله يبدأ محاضراً بالمتاحف الوطنية ، وعالم المصريات جوستاف ليفتر قال عنه: "هذا الولد عبقرى ، أحيانًا ما يكون متهوراً ولكنه يسبقنا بخمسين عاماً !"

بعد لاكو لم تكد تفقد مصر شخصه حتى جاءها شخص مساو له في العلم والعبقرية ويتمتع بجانب ذلك بشخصية ، ولم يخطئ فؤاد في اختياره ، لكنه اشترط أن يخلع دربوتون ثوب الكاهن ليرتدي ثوبًا مدنيًا فارتدى بدلة وطربوشًا ، وأصبح مشغوفًا بأربطة العنق الحمراء والجذابة . ووالدته العجوز تبعته ، وكانت بدينة ومرحة مثل ابنها المتدين ، واستقرت معه في الفيلا التي كان يقطنها لاكو في حديقة المتحف المصري ، وحدث تشويش لدى وصولهم نتيجة للجدل الثائر حول مصير المومياوات الملكية . بصعوده على العرش حكم الملك فؤاد أنه من غير اللائق عرض هذه الأجساد العارية في صالة المتحف ، ورأى أن يضع هذه الجثث في ضريح سعد زغلول المصمم من الجرانيت الوردي، وهذا الرجل هو بطل القوميين المصريين ، واستقروا في توابيت خشبية فخمة بناء على أوامر الملك بعيدًا عن أعين الفضوليين ، ولكن الوطنيين وبمجرد وفاة فؤاد أسرعوا لاستخراج هذه الجثث المدفونة لينقلوا مكانها جثة بطل الوفد ، وكان ذلك عام ١٩٣٦ . ولأن كل صالات المتحف كانت مكدسة بالآثار ، فقد تخلصوا منها بوضعها في فيلا المدير الخالية ، لأن لاكو غادر لتوه ، ودربوتون لم يأت بعد . ولم يكن مدهشًا للأب (دربوتون) عندما وصل بعد ذلك بعدة أسابيع أن يجد هذه الآثار متراصة الواحد بجوار الآخر في الصالون ، ملوك مصر القديمة وملكاتها . "لم يقلقني هؤلاء الجيران بأي شكل" هكذا قال لمساعديه الذين كانوا قلقين جدا ، وأسرعوا ليعدوا صالات أخرى لهذه الجثث [المومياوات] التعيسة ، وفي كل صباح كان صديقنا الصحفي جابريل داردو – مراسل فرنسا في القاهرة –

يقص علينا ما حدث في ١٩٥٦ ، قبل أن يطرده عبد الناصر ، يحكى أن الكاهن كان يقيم قداسًا أمام الفراعنة الممددين عند قدميه ، "المذبح والصليب وشمعتان فى وسط الصالة ..." أجابت الأم العجوز وهى الوحيدة المسموح لها بالوجود هنا ، وكانت مدام دربوتون تمر بين التوابيت لتذهب لتعد الإفطار لابنها الكاهن ، وتطفئ الشموع ، ويجد الفراعنة الهدوء فى أبديتهم.

دربوتون الذى أدى وصوله إلى فضول أناس كثيرين سرعان ما أعطى صورة لا تلحق به ضررًا ، مائدته أصبح لها شهرة كبيرة لدرجة أن القاهرة كلها تتزاحم عليها لكى يتذوقوا ما عملته المدام الأم الضخمة البدينة والطريفة من أصل بورجونيانى (من أقليم بورجونى) ، وكان ابنها الأول الذى يقيم المآدب الكثيرة واللذيذة ، لدرجة أنه أخذ وزنه يزداد بشكل كبير ؛ أدى إلى إصابته بداء السكر ، مما جعله يلجأ لنظام أكل قاس . كنا غالبًا ما ندعى لتناول طعام العشاء عنده ، فالسهرات عند هذا الرجل الذواقة وأمام الأبدية ظلت لحظات نادرة فى دفئها ، الأمر الذى كان يعطينا النشاط بين الفرنسيين . كانت صلة دربوتون وفاروق متميزة دومًا وحافظا عليها متينة على أعلى مستوى . وما إن استقر على العرش الملك الشاب حتى بدأ رحلة طويلة لكى يتعرف بشكل أفضل على بلده . وكانت مهمة دربوتون أن يرافقه . وكانت العلاقة بينهما على أحسن ما يرام ، فبالإضافة إلى علمه الغزير الذى حكم عليه فاروق وعرفه ، كان دربوتون يهدئ الجو من حوله وهو وضع كان يجعل الناصحين من حول الملك راضين سعداء . خلال رحلته ، توقف فى سقارة وكان لى شرف

استقباله ، وكان لا يزال رشيقًا يرتدى الزى الغربى ، ولكن على رأسه طربوش وطنى ، وكان فى صحبة الملك الحاشية وكبار رجال الدولة وشقيقتان من شقيقاته الشابات . وأحتفظُ لهذا الملك الشاب بذكرى طيبة ، كان مازال خجولاً وسريع التأثر ، ومع ذلك أبدى رغبة فى الاقتراب بأى ثمن من شعبه ، وأن يجعل من بلده أمة عربية كبيرة ، ولسوء الحظ أضرت به مثاليته ، فلم يستطع مواجهة الممارسة الصعبة للسلطة فى مصر فكان أن أسىء الحكم عليه وجرجر فى الطين على يد أعدائه . ومن بعد لم تهتم أى حكومة لا من قريب ولا من بعيد بالآثار .

وكان فاروق يثق إلى أبعد الحدود فى دربوتون ، وكان يعطيه ما يحتاج من أموال لإدارة مصلحة الآثار على أفضل ما يكون . وكانت هذه فرصة لا تتكرر ، وبفضل الإعانة المالية والطلب العاجل من فاروق أصبح عالم المصريات جورج جويون مسئولاً عن عمل نادر : وهو مباشرة نقل الجرافيتى والنقوش الموجودة كلها على أهرام مصر خلال قرون . وفى هرم خوفو نصب جويون خيمته عند قمة الهرم وخلال عام نقل سبعة عشر ألف نقش ، وربما أصبح صاحب الرقم القياسى العالمى فى تسلق الأهرام" ! وهو مهندس معمارى فى الأصل ، وعمل منذ عام ١٩٢٩ فى حفائر تانيس مع بيير مونتيه . وجاء إلى سقارة قبل حرب ١٩٣٩ مباشرة لكى يشترك مع الآنسة أبرون فى عمليات الرفع الأثرى لمصطبة تى ، ولكن بسبب خلافات حادة معها ترك الموقع ليعود ثانية إلى تانيس ، وفى عام ١٩٤٠ اكتشف مع مونتيه الكنز الشهير للملك سوسنس الأول . ومن خبرته فى العمل فى هرم خوفو وضع كتابًا شرح فيه بناء الأهرام ،

وطبقًا له فإن المصريين استخدموا طرقًا صاعدة من حول نواة مركزية لكى يضعوا الأحجار فى مكانها من البناء حتى القمة . نظرية أثبتت صحتها بعد أن أمضى اثنى عشر شهرًا فى صلة مستمر مع الأحجار المستخدمة والملقاة بجوار هرم خوفو، وهذا ما تعارض مع افتراضاتى .
عندما بدأ فاروق فى الانغماس فى حياة الليل وفى الانحلال تعرض دربوتون - الذى أصبح صديق القصر - لمشاكل معقدة رغم أنفه ، وذلك على يد المصريين من هواة الوشاية التى تنال من الشرف ، ولم يكف هؤلاء عن نصب الشباك له لتشويه سمعته . وعندما غادر مصر فى ربيع عام ١٩٥٢ كان الأب دربوتون يعرف أنه لن يعود ، فالسلطة الجديدة أخبرته أنه وببساطة شخص غير مرغوب فيه ، وكان هذا مأساويا بالنسبة له . وعيِّن بعد ذلك أستاذًا فى الكوليج دى فرانس ، وظل يدرس بها حتى سن التقاعد ، ومات بعدها بعدة أشهر فى يناير ١٩٦١ على أثر أزمة سكر .

هوليود فى وداى النيل

أحسست أن القاهرة تغيرت مع بداية الخمسينيات وتبدل الجو ، وأثناء تنزهى عبر شوارع المدينة كنت ألاحظ أن حيًا جديداً قد زرع وأن منازل عتيقة قد أزيلت ، وبدا لى أن المدينة تعانى من تشويه خطير ، وعندما أعدت الرؤية كانت القاهرة قد أصبحت ذات سمات أشبه بهوليود على النيل ، مبان متلألئة وسط أحياء حديثة جداً والتى جعلت الأحياء القديمة الوطنية تتراجع، واختفت الكثير من التقاليد مع قدوم عبدالناصر إلى السلطة ، فقد منع ارتداء الطربوش ، ومحا بضربة واحدة من الشوارع كلها طابعها الشرقى وأبطل ألقاب بك وباشا ، لكنه لم يستطع أن يجبر النساء أن يخلعن ملاياتهن التى تغطيهن ولا يرى منهن إلا بالكاد الوجه .

أحس الجميع أن السلطة الجديدة تريد وبأى ثمن أن تجعل من البلد بلداً أوروبيًا بالانفتاح على العالم الغربى . وأحس الأمريكيون بأن هذه أرض خصبة لاستلهام أفلام كبيرة ، وكانوا من أوائل من نزلوا بمصر فى هذا الجو . ولم يكن مدهشاً لى أن أرى ذات صباح على سلم منزلى فريقًا غريبًا من شخصيات ترتدى تى - شيرت (فانلات)

وفوق الرؤوس قبعات، ولأننى لم أعلم مسبقًا بأمر هذه الزيارة الصباحية فكنت أستعد للذهاب للعمل ، وبرز من بين هؤلاء رجل لم أكن أعرفه وقدم نفسه هوارد هوكس ، ويود أن يتحدث معى عن مشروع فيلم عن تشييد الهرم وأدخلته وتناولنا قدحًا من الشاى فى الشرفة . وأخبرنى هوكس أنه قرأ بمزيد من الاهتمام كتابى "مشكلة الأهرام" ، ولكنه كان فى حاجة إلى نصائحى لإنجاز فيلمه . وكان يفكر فى تقليد أسلوب البناء الذى اعتقدته وأقمت عليه الأدلة فى كتابى ، ومن ذلك استخدام المنحدر الصاعد الأمامى ، وهو الأسلوب التقنى فى نظره الأكثر منطقية ولم يتبق أمامه سوى تحديد مكان هذا المشروع .

ذكرت موقع هرم زاوية العريان ، على بعد عدة كيلو مترات جنوب الجيزة ؛ ولأنه يتعلق بهرم مدرج غير مكتمل ويتناسب مع رؤى المخرج ويرجع للأسرة الرابعة ، ولكن ما أعطاه سمته الخاص هو النسب الضخمة لمنحدره المشيد بكتل ضخمة من الحجر الجرانيت المجلوب من أسوان(*) ، على بعد حوالى ثمانمائة كيلو مترًا من هنا ، واكتشفه هنا بالصدفة الأثرى الإيطالى بارازانتى فى أوائل القرن العشرين . ذات صباح وهو يجوب الموقع على ظهر حصانه ، كان يتسلى باصطياد

(*) فى نص الكتاب الأصلى (الجيرى) وهذا فيما يبدو خطأ مطبعى ، لأن محاجر الحجر الجيرى الجيد فى طرة وليست فى أسوان ، كما أن وصف وردى أو أحمر لا ينطبق مع كلمة جيرى السابقة ، كما أن الأثر نفسه موضوع الحديث من الجرانيت . (المترجم)

من يعدو من أمامه ، اختفى الحيوان فجأة فى جحر فقفز من على الحصان ، وأخذ يحفر وبارازانتى لا يتحمل أن يحفر طويلاً فلقد فتح مقابر وادى الملوك باستخدام الديناميت ! ولدهشته الكبيرة لم يعثر على الثعلب ولكنه عثر على كتلة ضخمة من الجرانيت الوردى ، فعاد سريعًا مع حوالى مائة عالم ، وأخذ فى تنظيف المكان ، وهكذا اكتشف أن ممرها يبلغ طوله حوالى ١٠٠ متر ويؤدى على عمق حوالى عشرين مترًا إلى أرضية كبيرة من الجرانيت بها حجرة محفوظة بعناية ولكنها خالية . الموقع من ثم كان مثاليًا ، وهذا ما أسعد هوكس كثيرًا . ولم يتبق إلا تشييد الهرم ، لا يفيد القول إن هذه التجربة تهمنى كثيرًا جدًا فقد كنت آمل أن أستطيع أن أشارك فى تطبيق نظريتى ، بالحجم الطبيعى ، ومع ذلك انتابنى الذهول لفترة عندما أخبرنى نويل هوارد مساعد هوكس أن لديهم النية لاستخدام جمال . وأخذت الأمر على أنه مزاح بعد محاولة شرح أن الجمال لا علاقة لها بعملية تشييد الأهرام ولكننى انتهيت بأن قبلت هذه المفارقة التاريخية ، وقلت لنفسى إنه من بين ملايين المشاهدين الذين سيرون الفيلم لا يوجد إلا نحو اثنى عشر مشاهدًا هم الذين سيعرفون أن الجمال لم تكن معروفة فى مصر فى هذا العصر !

نويل هوارد بعث لى فيما بعد بكتابه عن هذه المغامرة المثيرة . وأحتفظ بذكريات عنها : "إنه متوسط الحجم ، يلبس ملابس كاكى فاتحة اللون ، والقميص والبنطلون اختارهم برغبته فضفاضين ، رجل يحب راحته ، وبالعكس ، وجود رابطة عنق من قماش القميص نفسه والباقى

يقلقنى بعض الشىء ، القبعة الصغيرة من القش الخفيف الرفيع من النوع الذى يلبسه الذين يصطادون بالسنارة ، ولكن أنا مطمئن له" ، وكان ولداً مهذباً جداً ، كان يأتى لزيارتى غالباً ليرتاح من الإعياء الذى يعيش فيه شهوراً طوالاً. وكان المشروع هائلاً ! عمليات الإعداد للتصوير كانت تتطلب عملاً ضخماً وقابلنا صعوبات أحياناً ما تكون مخيفة . ترونر المسئول عن الديكور ، كان عليه أن يشيد هرماً مدرجاً بالصورة نفسها الموجدة عليها فى زاوية العريان ، شيد بوابات ضخمة لمدينة خالية وكذلك سوراً ، وعمل عدة قرى فى الجوار وتخيل الفناء الداخلى وواجهة لقصر فرعونى . أما كتابة السيناريو فتصدى لها وليام فوكنر ، بعقد مع وارنر بروس . وهذا كذلك كان يأتينى طالباً النصح ، وكان قصيراً بأنف حاد أحمر فوق شارب كثيف ، ومعاقرته الويسكى لسنين جعلته مدمناً للكحول ، وجائزة نوبل فى الأدب عرضت له صورة تدعو للشفقة ، ويبدو غير مقتنع بالتاريخ الذى نطلب إليه أن يكتبه . فى الحقيقة فى هذه الفترة القلقة من حياته انتهى من تاريخه الطويل والصاخب فى مصانع الملح الهوليودية ، عند الثامنة والخمسين من عمره لا يتقبل قضية زوال إبداعه ، فقد واجه تدريجيا ولمدة طويلة عملية تدمير ، فلم يستطع أن ينجز عمله "الرمز" ، وهى قصة ظل معها عشرة أعوام لكتابتها "عندما تتكسر الريشة تتحطم الحياة" ، بعد عدة أعمال مشتركة وجميلة مع هوكس وقعا معاً "ميناء الخوف والسكون العظيم"، فوكنر متعب ، يكتب سيناريو كان عليه أن يعيد كتابته كلية .

وحتى الآن ورغم المشاكل الداخلية تسير الأمور على ما يرام مع السلطات المصرية التى يثنى عليها عمل عظيم كهذا . بدأت المشاكل الحقيقية عندما أبدت مصلحة الآثار تحفظات كبيرة تجاه مشروعات هوارد هوكس ، ومن أجل أن نستطيع "إعادة بناء" هرم زاوية العريان كان يجب إخلاء المنحدر من أطنان من الرمال التى تراكمت به منذ أعمال بارازانتى ، عمل شاق ، وقدرت المصلحة التى تظن مسبقًا أن الأمريكان يمكنهم أن يضعوا أيديهم على كنوز ثمينة أو أن يعثروا على آثار منقولة مهمة . ومن ثم كانت المفاوضات طويلة ومرهقة . وأخيراً كسب فريق نويل هوارد القضية آخذًا على عاتقه النفقات كلها التى يتطلبها العمل ثم تكلفة بناء سور يمنع الرمال من الزحف ثانية على الموقع ، وذلك كله حتى يسمح للسياح بالزيارة . فى الحقيقة كان العمل هنا فى صالح عبدالناصر الذى رأى فيه مكانًا مناسبًا ليخزن فيه ذخائر عسكرية ويحميه بالأسلاك الشائكة .

ثلاثمائة عامل معممين فى جلابيبهم ، أخذوا فى إخلاء الموقع من الرمال بالقفف التى ينقلونها على رءوسهم ، ومن الطريقة العتيقة التى يسير بها العمل والبطء الشديد ، طلب هوارد هوكس ثلاثمائة عامل إضافى . خلية نحل ، وكان مشهداً مذهلاً فى الإجمال ، حوالى عشرين ألف متر مكعب من الرمال أخليت فى زمن قياسى فى تاريخ مصر .

هناك على بعد ثمانمائة كيلو متر عسكر تزونر وفريقه فى أسوان ؛ لصناعة كتل حجرية على غرار الأحجار الحقيقية ، والتى ستستخدم فى تشييد الهرم . وعندما بدأ التصوير كان الفلاحون فى ذهول وهم يرون فى يوم مشرق على صفحة النيل ثلاثة آلاف رجل على متن خمسة وسبعين مركبًا ينقلون أطنانًا من الأحجار المقلدة . كابا ، أحد أشهر المحترفين فى وكالة ماجنم ، والذى عين مصورًا فى الأستوديو ، والفريق كله كان ينتظره ، أحزن الجميع خبر وفاته ، فقد قفز على منجم فى دين بين فو خلال هذه الشهور ، كنت أجد صعوبة فى متابعة عملى من موقعى ، كنت استدعى بلا توقف لمتابعة العمل فى موقع الهرم المقلدّ وكنا فى رمضان ؛ وكان من الصعب أن تفهم الأمريكان أن هذه الفترة من السنة هى أصعب فترة يمكن أن تباشر أعمالاً كبيرة كتلك التى يتطلبها تشييد الطريق الصاعد الأمامى، الذى يستخدم فى جر الأحجار الجيرية التى تنقل للموقع . وكنت مسئولاً مع هوكس عن الإشراف على الأعمال خلال فترة التصوير كلها ، واستعملوا جنودًا من الجيش المصرى ليحملوا الفرعون على أكتافهم . وإجمالاً ، حوالى ستة عشر ألف شخص اشتركوا فى التصوير فى فيلم "أرض الفراعنة" ، وأخيرًا منع عبد الناصر عرض الفيلم لأن الممثل الرئيسى كان يهوديا .

سقارة ... مجرد خدش

عندما أتأمل هذه المساحة الشاسعة من الصحراء التى تقبع بها الجبانة المنفية ، لا أستطيع أن أمنع نفسى من الحلم بأن تنزاح الرمال أكثر لتكشف لنا ما فى باطنها ، سقارة جبانة فريدة فى العالم فقد استمرت مستعملة لأكثر من أربعة آلاف عام ، والعمل فيها لم يتوقف منذ الملوك الأوائل وحتى العصور الوسطى . جانب من التاريخ المصرى الذى أمدنا بما حولنا من آثار ، وكذلك بما تحت أقدامنا ، والذى سنكتشفه ربما ذات يوم . فهناك أهرام عديدة مفقودة . والعديد من النقاط المفقودة فى القوائم الملكية بما يجعلنا أن نعتقد بكل المنطق أن مصر هى موقع عمل دائم ، والاكتشافات الحديثة أكبر دليل على ما أقول .

قال آلن زيفى : "لقد قالت الآلهة الكلمات الأولى" ، ويأتى زيفى ليستقر كل شتاء مع فريقه فى سقارة فى منزلى ، ومنذ عشرين عامًا وهو يعمل بنشاط كبير فى ظروف صعبة فى المنحدر الصخرى فى سقارة واكتشف مقابر الدولة الحديثة . هذا العمل الرائع كان عليه أن يمزج ما بين الناحية العلمية وسمة أخرى مهمة لكل أثرى وهى حسن التخمين . على بعد مائة متر أسفل منزلنا وفى مكان لا يثير انتباه أحد ،

فى الثلاثينيات رجال لاكو الصغار يلهون بمومياوات القطط ، كان الاكتشاف الأول لزيفى وهو مقبرة الوزير عبر - إلى ، وعلى الرغم من نهبه فإنه مازال يحتوى على بعض الأثاث الجنائزى المهم . وكان هذا المكان يعرف باسم البوباسطيين حيث دفنت القطط لوجود مقاصير للآلهة فى العصر اليونانى . وبالدخول فى كهوف بسيطة كهذه ، زيفى كان لديه حدس رائع عشرة أعوام فى هذا الموقع - حفائر بهذا الشكل بداخل دهاليز سريعة التهدل ، وفى منحدر خطر وذى رطوبة عالية ، يحقق بملعقة واحدة ما ينجزه بلدوزر ، وكل جزء صغير من الأرض يحتمل جدا احتواؤه على أثر ، ويجب أن تعرف أن أى بعثة وإن كانت كبيرة لا يمكن أن تبقى لأكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل بسبب نفاد الاعتمادات المالية . بعد مقبرة عبر - إل ، اكتشف زيفى بجوارها مباشرة مقبرة أخرى مهمة وهى مقبرة سيدة هذه المرة وهى مايا ، مرضعة الملك توت عنخ آمون ، هذه الاكتشافات الرائعة تكشف عن وجود مقابر لشخصيات كبيرة منسية وتثبت ما نعتقده من زمن طويل ! عاصمة الدولة القديمة ، منف ، استمرت تلعب خلال كل عصور التاريخ المصرى دورًا محوريًا ، اقتصاديًا وعسكريًا ودينيًا . واكتشاف آخر هذه المرة على يد كريستان زيجلر حديثًا . وهنا لعب حدس الباحث الأثرى دورًا مهمًا . عندما بدأت فى وضع كتاب عن مقصورة صغيرة لشخص يدعى أخت حتب والتى توجد فى اللوفر منذ عام ١٩٠٣ ، مدام زيجلر طرحت على نفسها السؤال من أين جاء هذا الأثر ؟ كانت تعلم أنه مقبرة من عصر الدولة القديمة ، اكتشفها مارييت فى سقارة ولكنها لم تحفر أبدًا .

فى عام ١٩٦١ بدأت بميزانية صغيرة أعطاها إياها متحف اللوفر ، قررت أن تأتى للموقع لكى ترى أى آثار تساعدها فى إعادة بناء المصطبة ولو بشكل عارض . وبناء على إشارات صلاح النجار توصلت إلى المكان الذى يمكن أن يضم بقايا المقبرة . على مقربة من الطريق الصاعد لهرم ونيس . بعد ستة مواسم حفائر لم تجد أشياء كثيرة ولكن المقبرة نفسها عظيمة وضخمة قابعة فى قلب بئر وثلاثة تماثيل منحوتة من الحجر الجيرى الملون ، واثنان منهما يمثلان أخت حتب الشهير . العمل الذى باشرته فى سقارة ألقى أضواء جديدة على ظهور العمارة الحجرية خلال هذا العصر البعيد فى الأسرة الثالثة . فيما سبق كنا نجهل كل شىء عن هذه العصور السحيقة ، والتى كانت متقدمة ولاشك ، والتى شهدت ولادة الفن العظيم ، وهو البناء بالحجر المقطوع تحت إشراف العبقرى إيمحوتب المقدس ، وعلى سبيل المثال ، الجدار الوحيد المستدير فى العمارة المصرية كلها يوجد فى سقارة .

بقيت مندهشًا من رؤية السرعة فى المرور من العمارة الرقيقة الأنيقة لإيمحوتب إلى العمارة الضخمة والمهيمنة فى الأهرام الكبيرة . اكتشفنا مع زكريا غنيم فى الخمسينيات مجموعة جنائزية أخرى ، بقيت لسوء الحظ غير مكتملة ، وربما كانت خاصة بابن زوسر وخليفته ، وهو حورس سخم - خت . وسور مبنى بالأسلوب نفسه والنسب نفسها التى شيد بها سور زوسر ولكنه مصمم بأحجار أعلى مرتين من سور زوسر . وهذا التطور سوف يستمر بنشاط ويؤدى إلى عمارة مختلفة تمامًا ،

أقل أناقة ولكن أكثر اتساقًا مع العمارة بالحجر ، وأقدر على التعبير عن ذاتها كأفضل ما يكون من المعابد من الجرانيت للملك خفرع بالجيزة ، وعادت من ثم بأشكال أكثر تناغمًا من المعابد الجنائزية فى الأسرة الخامسة فى أبو صير ؛ حيث وصل الفن فى الدولة القديمة ذروته .

نعلم كذلك أن هناك فى آثار زوسر الحجرية تقليد للخشب بأن تلون باللون الأحمر ، وبخاصة فى السقف ؛ حيث وجدنا بعض الآثار ، ولكن الباقى اختفى بفعل الرياح المحملة بالرمال . فى العصور القديمة ، فى اليونان كما فى مصر ، الآثار كلها كانت ملونة . من نافلة القول سيكون من الحماقة أن نضع لها ألوانًا اليوم ، وأحيانًا ما يخيفنى هذا الأمر ، أن يفعلها بعض المصريين الذين أحيانًا ما يحملون أفكارًا خرقاء . وكان من الممكن أن أقدم الكثير لو ساعدونى ولو أعطونى ما أطلب . هذا العمل كان طويلاً جدا وكنت بمفردى ، فلم يكن هناك أحد أبادله الرأى والمشورة فيما يتعلق بالأحجار ، وغالبًا ما أتوقف عن أعمالى بسبب الإدارة الوطنية ، وفقدت الكثير من الوقت فى الذهاب والمطالبة بأموال ولملء أوراق لا قيمة لها . والمزعج حقًا أنهم لا يوفرون أدواتًا اليوم كما كان الأمر عليه فى الزمن الماضى . وقد استخدمت أفضل الأحجار فى عمليات البناء بعد الحرب التى قام بها المصريون ، ولم يتبق لنا إلا الأحجار الأقل جودة والأكثر ضعفًا أو أخرى صعبة جدًا فى التعامل معها والأدوات لا تتجدد ، والعمال يهلكون بلا فائدة . ويؤلمنى بشكل مستمر أن أرى الزائرين يسيئون إلى الأحجار بحفر مخربشات قبيحة عليها ،

ويحاول العمال أن يخفوها بالألوان أو يخفوها بحكها ، الأمر الذى يؤثر على الآثار بلا شك أيما تأثير . فى عام ١٩٢٦ كانت الألوان زاهية ، ومنذ ذلك الحين وهى تتلاشى تدريجيًا لدرجة أنها لم يعد لها أثر عمليًا . وكان من الممكن التدخل لحمايتها منذ زمن طويل بوضعها داخل لوحات زجاجية لحفظ الألوان، فقط مصطبة هى التى استفادت من هذه التقنية ، ولكنها مغلقة ولا يستطيع السائحون زيارتها ، ولا يفتحونها إلا للموظفين ليروهم كيف تكون العناية بالآثار فى مصر ! ومثال آخر تعين فى تلك الفترة التى افتتحت المقبرة الجنوبية للزيارة ، كان الناس يحملون معهم كميات كبيرة من الفيانس الأزرق الذى كان يغطى جزءًا من الحجرة الجنائزيةً ، وكان هذا سببًا من بين أسباب أخرى دفعتنا لطب إغلاقها نهائيًا . هرم ونيس ، وهو أحد الأهرام الجميلة ، هو مثال درامى آخر ، فقد اكتشفت حجرة الدفن سليمة تمامًا بعد أربعة آلاف وخمسمائة عام من الصمت والظلام ولكن بعد عدة أعوام من السياحة المكثفة فقدت هذه الحجرة بهاءها وجمالها كله ، اختفت الألوان وانتهى بهم الأمر بإغلاقها منذ خمسة أعوام . وهناك مخاطرة أن تفتح ثانية قبل أن يجدوا وسيلة لحمايتها بما تبقى عليها من ألوان . ولو أنهم سمحوا للسائحين بزيارة الحجرة الجنائزية أسفل هرم ببى الأول كانت سوف تحدث الدراما نفسها . واحسرتاه ، ماذا عسانا نستطيع أن نفعل ؟

ذات يوم انتبهت لما انقضى من زمن ولعدد السنين التى بدأت أحملها على كتفى . والرعب الذى يملؤنى هو أن أختفى وأترك موقع زوسر بين أيد غير محترمة وغير مثقفة ، كثيرًا ما أسمع الكلام الضال الشاذ ،

ذات يوم جاءنى مفتش من مصلحة الآثار يرانى ليقول لى إننى ربما من الأفضل أن أباشر عملية تنظيف الهرم المدرج من الرمال كلها التى تقع تحت درجاته، وهو يأمل أن يرانى كل يوم وأن أمرر المكنسة الكهربائية ، الأخطر أنه لم يفهم أن هذا الرمل ذاته هو الذى يعطيه جماله وسمته الخاص جداً . وفى مرة أخرى اقترح علىَّ أن أعيد بناء المجموعة كلها . وحاولت أن أوضح له أننا لا نعيد بناء أطلال بهذا الحجم الهائل ، لأن ذلك لا يفيد فى شىء ، وسيكون عرضة للتدمير ويستغرق سنين عددا ، وقاتلت على جبهة أخرى لكى ينقلوا مكان وقوف السيارات ، حيث تأتى مئات الأتوبيسات تقف أمام مدخل المجموعة موزعة العادم على الأحجار الجيرية فى الجدران فتصيبها فى مقتل .

وعلى مدار سنين وأنا أبحث يائساً عن رجل يستطيع أن يخلفنى . فى عام ١٩٦٧ تعرفت على صلاح النجار وهو استثناء بين المهندسين المعماريين المصريين الذين جاءوا للعمل فى الموقع لأنه يهتم حقًا بالآثار . عندما قابلته كانت لديه معرفة جيدة عن معظم آثار مصر ، وقد جاء بتوصية من ثروت عكاشة ، وعرض علىَّ التخطيطات المعمارية لبعض المعابد والأهرام ، وكنت سعيداً لرؤية هذا الرجل الموهوب ، فقد كان ببساطة مغرماً بمصر القديمة، وهذا شىء نادر عند المعماريين المصريين . ساعدنى كثيراً خلال عدة مواسم ، ثم ذات يوم قرر أن يدرس الهيروغليفى . وهذه المبادرة خلقت لى العديد من المشاكل لأن علماء المصريات دوماً محدودون داخل عملهم ويرفضون أن يروا فيه متخصصاً لغويا ،

وهو المهندس المعماري ! ومن ثم سافر إلى فرنسا للإعداد لرسالة الدكتوراه ، مكث هناك عشر سنوات ، وقبل رحيله استطعنا أن نعيد بناء أعيد من مقاصير الحب سد التي تفهمت معمارها بفضل ما تبقى من جدرانها ، وقمنا معًا بالإعداد للجزء الثاني من كتاب عن الأهرام وانتهى من الدكتوراه ، وعاد صلاح إلى مصر ولكن لم يعد إلى سقارة . ومنذ ذلك الحين قدم استقالته من مصلحة الآثار وغادر مصر ليعيش في باريس حيث تزوج كاترين برجير . برحيله تبددت آمالي الأخيرة في رؤية شخص يهتم بآثار إيمحوتب . قال لي صلاح ذات يوم إنني عملت كل ما كان يجب أن يعمل أحد ولا يستطيع أن يحل محلي ولأن اسمي حفر للأبد في رمال سقارة .

مصير زكريا البائس

كان زكريا غنيم مساعداً لى خلال عدة سنوات . وكنت أعلق آمالاً على هذا الشاب الملىء بالحيوية والموهوب كذلك . زكريا يعتبر من ذلك الجيل المولود من آباء يعملون فى مجال الحفائر الأثرية ومصيره المؤلم أربكنى تماماً ، لأن القصة التى حيكت حول ذلك كانت جميلة ولكنها ظالمة . ولكن فى مصر كما فى كل مكان فإن الحساد عديمى الذمة كثيرون . عندما بدأ موسم حفائر ١٩٣٧ أحسسنا أن أشياء عديدة قد تغيرت فى عالم المصريات . بدأ المصريون يهتمون بآثارهم ودافعهم فى ذلك الكبت والحرمان الذى يعانونه إزاء هذه العلم البكر ، والذى كانت نشأته ونجاحاته على أيدى الأجانب باستمرار . وانطلق العديد منهم فى مباشرة دراسات مطولة ليحل محل الإنجليز أو الفرنسيين ، وسليم حسن الذى فشل فى أن يعين على رأس المصلحة خلفاً للسيد لاكو كان أول نائب مصرى لمدير مصلحة الآثار . نظراً لاقتناعه بفكرة أن فيرث لم يستطع أن يصل إلى شىء فى القطاع الواقع إلى الشرق من معبد ونيس ، فقد كلف زكريا غنيم بتنظيفه ، وكذلك القطاع الواقع إلى الجنوب من الهرم المدرج . واكتشفت العديد من المصاطب ، ولكن الاكتشاف الأهم الذى

جعل الفريق المصرى يشعر بالفخر هو الطريق الصاعد للملك ونيس ؛ الذى يجىء من معبد الوادى لهذا الملك ، ظل مختفيًا لقرون تحت كثبان الرمال ، ويمتد لمسافة سنتيمتر ، تحيط به بقايا جدران من الحجر الجيرى الجيد من طرة ، يزينها مناظر جميلة بالنقش الغائر ، معظم الأحجار كانت مختفية فى الرمال بطول الطريق ، ومن بين هذه المناظر مناظر على جانب كبير من الأهمية ، فهى توضح كيف كان يشيد المصريون آثارهم . أحد هذه المناظر يصور نقل أعمدة معبد جنائزية على متن سفن قادمة من محاجر أسوان ، كانت موضوعة على جانبها ومربوطة إلى بعضها ، وموضوعة على اثنين معًا على متن المراكب المسطحة . وهذه المناظر كانت سببًا فى نهاية الجدل الذى يثار دومًا حول كيفية البناء ونقل الأحجار . هذه الوثائق المهمة سمحت لنا بتفهم أنماط الحياة والكثير من الأشياء عن الحياة فى هذا العصر . لم تتوقف مكتشفات زكريا غنيم عند هذا الحد . إلى جنوب الطريق الصاعد مباشرة ، عالم المصريات المتميز هذا والموهوب بحاسة التخمين القوية والمزود بالطموح ، فما كاد نجاحه يرى النور حتى كان اكتشافه لمركب كبير بطول أربعين مترًا منحوتة فى الصخر . هذا المركب بذيله المعقوف كان يلعب دورًا رمزيًا . ولا علاقة لهذا المركب بمراكب خوفو التى اكتشفت فيما بعد والمشيدة من الخشب والتى تستخدم فى نقل الأثاث الجنائزى للملك . ومركب سقارة كانت مخصصة للرحلة السماوية التى سوف يجوبها الملك بوصفه إله الشمس .

وتميز عام ١٩٥٤ بكثرة المكتشفات ولا يمر مثل هذا الأمر بلا مشاكل . قاتل المهندسون والمفتشون بشراسة لكى ينسب لهم شرف اكتشاف مهم أيضًا كالاكتشافات الأخرى . والأمر متعلق هذه المرة بمركبين عملاقين للملك خوفو . لعبت المصادفة مرة أخرى دورها ، أثناء الأعمال الجارية لتيسير المرور حول الهرم الأكبر ، وقع المهندسون على فتحة كبيرة يحتمى فيها مركبان وتحيط بهما كتل كبيرة من الحجر الجيرى ، وترقدان هنا منذ آلاف السنين . أسرع المفتشون المسئولون عن الإشراف على الموقع لنسبة هذا الاكتشاف لهم ، محتجون بأن الحفائر هى حقل خاص بالمختصين بالمصريات واستمر الجدل شهوراً ! . ورغم الحيرة والارتباك فقد قلب كمال الملاخ الموازين رأسًا على عقب بإبرازه وثائق مهمة . وبقراءة ما حكاه عن اكتشافه وجدت المشاعر نفسها التى أحسستها عندما تسللت إلى المقبرة الجنوبية فى مجموعة زوسر "فى ظهيرة يوم ٢٦ مايو "هكذا كتب" ، فى يوم حار أدخلت وجهى فى الفتحة لرؤية الخشب ، فى البداية لم أستطع تمييز شىء نظراً لشدة الضوء فى الخارج والظلام فى الداخل ، فأغمضت عينىَّ قليلاً ثم عدت أفتحهما لعلى أستعيد بعض القدرة على الرؤية أو تمييز شىء بالداخل ، ولاحظت عبق المكان وابتسمت ، فقد كان خليطًا من عبق خمسة آلاف عام . بالنسبة لى كانت رائحة الزمن ، وكنت متأكداً أن الخشب لا يزال هنا فى مكانه . وحملت مرآتين لكى أعكس الضوء – ضوء الشمس ، إله المصريين القدماء – إلى الداخل عن طريق الفتحة الصغيرة ، واستطعت تمييز المركب ودفنه ، تعرف اليوم أن الخشب هو خشب الأرز المستورد من لبنان" .

في الحقيقة لم تكن المركب إلا ألفًا ومائتين وأربعًا وعشرين قطعة مكدسة وتعاني من الضعف الشديد ، ولتجنب أى عمل متهور عجول صنع الأثريون من كل عنصر عشرة عناصر لكى يشيدوا نموذجًا مصغرًا لمركب يجهلون حتى الآن شكلها . ثم بعد ذلك بدأوا فقط فى إعادة بناء مركب ملكية طولها اثنان وأربعون مترًا وعرضها أكثر من خمسة أمتار ، وأخرجوا عملاً رائعًا . ولكننى لم أستطع أبدًا أن أفهم كيف سمحت مصلحة الآثار بتشييد مبنى قبيح أمام هرم خوفو مباشرة لكى تضمنه المركب الشهيرة ! . فى اللحظة التى وجهت فيها صحافة العالم أجمع أنظارها إلى العمل الذى تصوره شركة وارنر فى مصر ، كان زكريا غنيم يعلن عن اكتشافه الجديد ، فقد توصل إلى حجرة الدفن فى هرم غير مكتمل كان معروفًا منذ عدة سنوات ، وتابعت باهتمام بالغ هذا الاكتشاف لأنه يقع على بعد عدة أمتار من سور زوسر . وذات يوم جاء زكريا يبحث عنى ليخبرنى أنه فى حيرة من أمر مستطيل ذى أضلاع تغطيه طبقة من الرمال . ويقولون إنه هضبة كبيرة ، ولكن فى سقارة لا نبرئ الهضاب من إخفاء أشياء بداخلها ، وبالتالى شجعته على البدء فى حفائر جدية وسرعان ما اكتشف جدارًا بدا لى أنه نسخة طبق الأصل من سور زوسر ، ومع ذلك فإن الأحجار المستخدمة كانت أكبر قليلاً ، وفكرت مباشرة أنها ربما كانت جزءًا من هرم مجهول حتى الآن . ونصحت زكريا بتنظيف الجهات الأربع لنرى إذا ما كانت زوايا أثر ما ستظهر . وأثناء إزالة الرمال أخذنا فى اعتبارنا أن هذا المبنى لم يكن أكثر أو أقل من قاعدة هرم مدرج غير مكتمل . وأسرعت بتهنئة زكريا الذى كان

سعيداً للغاية . وكان هذا أجمل يوم فى حياته القصيرة ، فكان أول مصرى يحرز شهرة فى موقع حفائر . وبناء على نصائحى استمر - وخلال عدة مواسم حفر - فى عمليات تنظيف هرمه . وفى رمال المنحدر جمع قطعًا من الذهب وفازات من الألباستر وفخار ، والمجموعة تعكس تشابهًا مع مجموعة الأسرة الثالثة . وسدادة غطاء من الصلصال مطبوع عليها اسم الملك الذى شيد هذه المجموعة ، وهو الملك حوس سخم - خت ، وهو فرعون مجهول حتى هذه اللحظة . وعندما اكتشف زكريا أخيراً فى وسط حجرة الدفن ، تابوتًا من الألباستر لم يمس ، دخل فى حالة أخرى متوقعًا أن المومياء الملكية كانت لا تزال بالداخل . من ناحيتى كنت أكثر تحفظًا ، فكانت هناك علامات على أن أكثر من لص استطاع الوصول إلى هذه الحجرة وأخذت أعيده إلى المنطق ، ولكنه رفض الاستماع لنصائحى : وعاش فى أسطورة ولم يتقبل أن يتبدد حلمه .

حتى دونما الاهتمام بفحص ما بداخل التابوت أسرع بدعوة عبدالناصر ليترأس مراسم الافتتاح ، وجاء عبدالناصر فى كوكبة من كبار الشخصيات والصحافيين ، وكنت ضمن المدعوين . وكان الكل مقتنعًا أنه سيعيش مغامرة مقبرة توت عنخ أمون نفسها . ومن جانبى بقيت محتفظًا بشكوكى الجادة فيما يتعلق بخاتمة المراسم . لن أترك عينىً زكريا ، كان الشاب متوتراً جداً ولكنه متأكد من عمله . وحبس الجميع أنفاسه ، عندما - وفى صمت الموت - فتح التابوت كان خاليًا .

رغم هذه المهانة المرعبة ، كان عالم المصريات الشاب مصحوباً بالتكريم أينما حل . وهاجت الصحافة كما فى الحالات المشابهة كلها ، والصحافيون دومًا يطمعون فى كل ما هو مثير ، ويقدمون المعلومات الأكثر غرابة . فتحدثوا عن اكتشاف هرم من الأسرة الثانية والذى يرجع لستة آلاف عام ، والذى سيكون أقدم أثر مبنى بالحجر فى العالم ! وخلطوا بين إيمحوتب المقدس وزميله أمنحوتب الذى عاش فى الأسرة الثامنة عشرة . وأعلنوا أن هذا الهرم مع أنه غير مكتمل لم يمس وأنهم سوف يعثرون على كنوز كتلك التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ أمون وكان أن حلت اللعنة بمصر وسقط ثلاثة من أثرييها .

وجهت الدعوة لزكريا غنيم للمشاركة فى عدة مؤتمرات بالولايات المتحدة، ونشر كتاب عنه فى إنجلتر، ولكن عند عودته لاحقه شبح الحسد . اتهموه بالاتجار فى الآثار والقطع الفنية . . واستدعاه البوليس وخضع لاستجوابات مطولة ، ومنع من الوجود فى مواقع الحفائر . ودار الاتهام حول اختفاء آنية كبيرة من الدولة القديمة ولكن لم يقدم أى إنسان أى دليل أو حتى قرينة لإثبات إدانته . وأحس بإهانة بالغة واعتبر هذا وصمة عار ستلاحقه أبداً ، فانسحب واختفى الشاب فى القاهرة . وكنت سوف أقوم بزيارته وأبدأ تأييدى له . وبراءته ليست محل شك عندى فقد كان زكريا رجلاً أمينًا ، وعنده ضمير حى ، وليس هو من يختلس ، وتألمت كثيراً من أجله.

فى سقارة كان فى مواقع الحفائر كلها سرقات لا يؤثر فيها إشراف المفتش الأثرى ، ولا حراسة الحراس ، ولا حتى غلق الأبواب بالأختام والأقفال .

هناك عصابات منظمة تمامًا تحوم حول الآثار ، قادرة على رشوة العمال المساكين بإعطائهم مبالغ مالية أعلى من مرتباتهم الضعيفة ، عندما لا يتمكنون من قتلهم للقيام بالسرقة . هذا ما حدث مع واحد من أفضل حراسنا والذين كنا نثق فيه تمامًا ، رجل ذو ضمير حى ، عهدنا إليه بحراسة مخازن ببى ؛ لأنها تحتوى على آثار ثمينة وضعت هنا حتى نقلها لمتحف القاهرة ، فى منتصف الليل هاجمه اللصوص وقتلوه ، ولم نجد التمثال الذى سرقوه حتى الآن .

فى حالة زكريا ، لم يرفعوا أى أثر لعنف ، ويمكن أن تكون الآنية من ثم قد وضعت فى مكان آخر . وفكرت فى متحف القاهرة حيث مئات من الأوانى المستخرجة من الدهاليز الموجودة أسفل الهرم قد وضعت فى مخازن المتحف . وأمضيت ساعات عديدة فى فحصها وفجأة وفى ركن وقعت على الآنية التى أبحث عنها . أمسكت بدليل براءة زكريا ، وكتبت له كلمة سريعة لإخباره بالنبأ السعيد . ولأول مرة ومنذ وقت طويل ، أنام نومًا عميقًا .

صباح اليوم التالى ، علمت القاهرة بنبأ وفاة زكريا غنيم ، فقد ألقى بنفسه فى النيل من يأسه ، قبل ساعات قليلة من وصول خطابى إليه ، والذى يحمل دليل براءته .

رحـــلة فـى النـــوبة

وجدت صـعوبة كـبيـرة فى إقنـاع مـيمى بأن تـلحق بى فى مـصـر ، لتشاركنى فى الرحلة التى كنا نعد لها مع جون لكلان ، فقد انخرطت فى الأعمال الخيرية ، مكرسة حياتها لهذا الغرض . وكانت كثيراً ما تكرر على مسامعى أنها لم يعد لديها دقيقة واحدة ، وكان هذا واقعاً . ولكن مفتونة بفكرة اكتشاف إقليم ستلتهمه قريباً بحيرة ناصر انتهى بها الأمر بأن قبلت أن تلحق بنا ، فهى لم تعد لزيارة مصر منذ خمسة عشر عاماً .

منذ أن قـرر عـبدالناصر تشـيـيد سدٍّ كـبـيرٍ فى أسـوان ، أصـبح المجـتـمع الدولى فى حـالة قلق شـديد نظراً للسكان الذين سـيـهـجـرون والآثار التى ستـغرق . يوم ٨ مـارس ١٩٦٠ المدير العـام لليونسكو أطلق نداء رسمياً للمساعدة العالمية لإنقاذ التراث التاريخى اعتباراً من تشغيل السد العـالى . "مـبان رائعة والتى تعد من بين أجمل المبـانى فى الأرض كلهـا مـهـددة بأن تغـمـرها الميـاه ، هذه الثـراء هو ملك للعـالم أجـمـع ... فلتـتـحـد الشـعوب لتمنـع النيل ، مصـدر الخـصـوبة والطاقة من أن يصـبح مقبرة سائلة لجزء من العجائب التى استقبلها جيل اليوم من جيل الأمس ، هكذا نادى الشـعوب المعنية فـيتوريو فيرنيز ، استـخـدم مـالرو كل هذه

الوثائق أثناء خطابه المطول الموجه لحشد وسائل الإعلام . وبدأ علماء من العالم أجمع فى التحرك . عشرات الحملات نظمت لافتتاح مواقع حفائر النوبة ، وخاصة لفهم بلد لم تبد كثير اهتمام بالعلماء والأثريين ولا الرحالة . يجب القول إن هذا الإقليم كان معزولاً ، كى لا تقول مقطوعًا عن الدنيا ، والمناخ صعب ووسائل المعيشة مستحيلة .

منذ خمسة آلاف عام والمصريون مهتمون بمناجم الذهب والعاج الذى يأتى من أفريقيا السوداء . فى الدولة الوسطى اتبعوا سياسة استعمارية عنيفة ، ووصلوا حتى الشلال الثالث فى مشروعات تجارية كبيرة ، وفراعنة الدولة الحديثة ضاعفوا تشييد الحصون والمبانى الدينية ولكن أفادوا من تصدع حكم أولئك الذين أخضعوهم منذ قرون ، استطاع النوبيون (حوالى عام ٧٣٠ ق.م) أخيرًا أن يثأروا لأنفسهم عندما نصبوا على العرش الملك بعنحى من أصل كوشى . وخلال قرن حكم النوبيون مصر العظيمة مؤسسين عاصمتهم فى نباتا ، وشيدوا فى كل مكان أهرامًا جنائزية ، نظم ماريبت حملة على هذا الإقليم حوالى عام ١٨٦٠ ، ثم فى بداية القرن العشرين عند تشييد أول سد فى أسوان كان ماسبيرو لديه الفضول للذهاب إلى هناك لعمل جولة ، وجمع من حوله عدة أثريين من جنسيات مختلفة ، حتى يسجل أكبر عدد ممكن من الآثار ، ونجد وصف هذه الآثار فى مجموعة رائعة بعنوان "المعابد الغارقة بالنوبة" ، وعمل رايزنر وفيرث معًا عدة حفائر ورفع معمارى ، واكتشفوا مقابر ذات طراز غير معروف من باقى مصر . وبعد ذلك بخمسين عامًا يتوافد علماء من الجنسيات كلها على أرض النوبة .

فى كل مكان وبطول النيل تنهض آثار معابد فخمة ، والسؤال هو مدى قدرة المجتمع الدولى على إنقاذها كلها . ولابد من الاختيار . ومن ثم كانت الأولوية لموقعين . أبوسمبل وفيلة . وفى عام ١٩٦٣ بدأت الأعمال لإنقاذ أبى سمبل ، وهو مشروع هائل استمر خمسة أعوام ، وفككت آثار فيلة ونقلت إلى جزيرة معدة لاستقبالها . وافتتاحها فى عام ١٩٨٠ ، كانت المحطة الرسمية الأخيرة فى حملة النوبة .

لكلان رأنا تملؤنا الرغبة كغيرنا من الأثريين لزيارة المكان للمعرفة. ولكن لتنظيم هذه الرحلة يلزمنا ميزانية ، وحصلنا على معونة ضئيلة من الحكومة الفرنسية وتصريح من المصريين للقيام بالحفائر ، وخريطة للموقع غير دقيقة بالمرة لدرجة أن بعثتنا بقيت تائهة فترة من الزمن . فيما يختص بالإمداد الغذائى سوف نتدبر حالنا فى المكان ، وكنا كلنا على قناعة ورضى للقيام بهذه الرحلة إلى النوبة .

عندما عادت ميمى إلى مصر ظلت لفترة طويلة مضطربة ، فقد رأت القاهرة قاهرة الحريم النصف الأول من القرن العشرين . الشرق بالنسبة لها فقد سحره رفضت الذهاب لسقارة ، وخمنت كما قالت "لا يجب العودة لأماكن الذكريات" ، وصعدنا من ثم ثلاثتنا من القاهرة بالقطار إلى أسوان ، مدينة ذات سحر أخاذ بمنازلها البيضاء الخفيضة جداً ، نوبية تقريباً . وفندق الشلال القديم العتيق المطل على النيل ، والمشهور نظراً لنزول أجاثا كريستى به ، وأصبح كذلك بالنسبة للفرنسيين عندما جعله الرئيس الفرنسى ميتران مكان استجمامه السنوى . وهنا برهن

المصريون على ذوق سيئ جداً مرة أخرى ، عندما تركوا برجًا شاهقًا يرتفع بجوار هذا المبنى الرائع ، الأمر الذى شوه انسجام المشهد .

بعد وصولنا مباشرة ، وبعد ليلة قضيناها فى القطار ، كان علينا أن نجد مركبًا مجهزًا ونظرًا للناس الذين وصلوا للنوبة فإن العثور على مركب كان أمرًا صعبًا، والمركب الوحيد الذى وجدناه كان فى حالة سيئة وأعطيناه مبلغًا كبيرًا ولكن لم يكن أمامنا خيار آخر . ثم ذهبنا للسوق لنشترى ما نحتاجه من إمدادات ، وكان علينا أن نخزن ما نحتاجه لمدة شهر ، وهذا يعنى أننا سنشترى كميات ضخمة من الطعام ، وأهم شيء كان الماء ، ومن أجل تنقية المياه اشترت ميمى من باريس مرشحًا ماركة باستير وهو شيء سهل الكسر حملته على ركبتيها فى الطائرة ، وخلال الرحلة كلها كانت كقربان مقدس ! وفى المركب جعلنا رجلاً مسئولاً عن المرشح ، لأنه لم يكن متصورًا أن يتحطم مع أول الرحلة .

وبدأنا رحلة صعودنا البطيئة للنهر حتى الشلال الأول . ومن بعيد كانت تبدو فيلة رائعة ، والتى ذكرتنا بأجمل أيام رحلة زواجنا ، ثم استكشفنا تباعًا مشاهد الخراب التام . مؤثر جداً أن ترى النوبيين أنفسهم يفككون قراهم بأنفسهم ويعيدون تركيبها من حول أسوان ، هؤلاء السكان الفقراء لا يملكون كلمة يقولونها أمام الأمر الذى فرضه ناصر بالقوة . أكثر من سبعين ألف إنسان أجبروا غالبًا بالقوة للعبور من الجانب المصرى على أسفل السد المرتقب . وفى عهد الرئيس السادات ظلت الصحافة مكممة . فقد كان ممنوعًا على الصحافيين المصريين كما هو الحال مع المراسلين الأجانب فقط ، أن يذكروا الدراما الإنسانية للنوبيين .

وقضينا الليل على الساحل ؛ بالقرب من مركب فى حالة أفضل من مركبنا ؛ مزودة بفريق للخدمة ، ورحلنا مع الفجر لنصل بعد ثلاثة أيام من الإبحار عند قاعدة جبل الشيخ داود قبيل المنازل الأولى مباشرة فى توماس ، وهو الموقع الذى من المفترض أن نعمل به . لا يوجد هنا أى أثر فرعونى ، والمكان لا يثير من النظرة الأولى أى اهتمام خاص ، اللهم إلا بعض الأطلال من الأحجار الجافة التى تتوج مكانا صخريا . ووجدنا أنفسنا أمام جدار رائع تمامًا ، منحدر صخرى مغطى بالنقوش والمخربشات الصخرية تشير إلى أن النوبة كانت مقاطعة ذات فن صحراوى رائع . وبينما لكلان وأنا نقضى أيامنا فى العمل بقيت ميمى على المركب لتتعلم طريقة بريل ، ونظرت ورأت صندوق السودان يمر مبحراً بين مصر والسودان وهى مركب رائعة أبيضاء اللون من زمن آخر . بعد صدمة القاهرة كانت سعيدة من أعماقها أن تجد فى النوبة نعومة الصحراء التى لطالما أحبتها وهكذا عشنا لمدة شهر على النيل فى مركب عابرة ولكن كانت السعادة تظللنا . ميمى التى تعشق الغناء ، كانت تقدم لنا مساء السهرة من محفوظاتها الغنائية الشعبية ، وكانت تستقبلنا على العشاء ببهجتها ومرحها مما جعل إقامتنا جميلة ومريحة .

على طريق العودة احتفظ لنا لكلان بمفاجأة ، فبدلاً من العودة مباشرة إلى أسوان ، أراد أن يرينا آخر شروق للشمس على أبو سمبل الذى كان لا يزال فى مكانه الأصلى ، وإنه لشىء مؤثر جدا أن تفكر فى مصير هذه الآثار المهيبة والتى سوف تترك نهائيا الضفاف التى شيدها

الفراعنة للخلود عليها . كيف يمكنهم أن يتصوروا مدى الحماقة التى حلت بالإنسان هنا ! على كل حال نحتفظ بذاكرة خالدة لهذه الآثار . بعد الشروق المتلألئ على معبد أبى سمبل ، والذى يكفى لنراه أجمل ما فى الدنيا .

فى عام ١٩٦٤ وعندما كانوا يثبتون فى المياه الجزء الأول من السد العالى ، اندلعت فى القاهرة مشاكل سياسية خطيرة مع فرنسا . أعداد من الشخصيات الاستشارية الفرنسية استوقفت وسجنت . وكان علينا لكلان وأنا العودة إلى توماس لنتابع رفع الجرافيت والنقوش الصخرية ، ولكن كان يجب علينا أن نؤجل حملتنا لمدة عام . وا أسفاه ميمى لن تكون معنا .

نظرة على القرن

حاولت على مدار أكثر من سبعين عامًا أن أعيد بناء حلم الأبدية الذى شاده إيمحوتب ، وفى الخاتمة لست راضيًا عن عملى ، وفى كل الأحوال فإننى متأكد أننى لم أخطئ . فى العمارة العناصر غير قابلة للتبادل ، وهذا ما يضمن حقيقية البناء ، كل عنصر فى مكانه ، فعندما يوضع حجران فى مكانهما لا يداخلنا أدنى شك فى صحة إعادة البناء . لسوء الحظ ينقصنا الكثير وسوف ينقصنا دائمًا لتظل هناك فجوات لا يمكن معالجتها فى هذا البناء المعمارى الفريد فى العالم . على سبيل المثال لا أعرف فى أى اتجاه كان عتب الممر المركزى فى دهليز الأعمدة ، وكذلك الحال فى الصالة المستعرضة وأعتقد أننى لن أعرفها أبدًا ؛ لأن الحجارين كانوا يفككون الآثار ويأخذون أفضل القطع الحجرية والمقطوعة بشكل جيد ، فهم قد حملوا الكثير فيما يبدو ، حتى وإن لم أجد إلا الحسرة من هذا العتب ، فلن يفيد هذا وحده فى كثير .

كانت تأتى الفرصة أحيانًا ، وتحدث المعجزة ، أن أجد أجزاء فى أماكنها وخاصة فى فناء سد . أساس مقصورة يرتفع حتى المترين وعشر سنتيمترات ، ومركب به ثلاث قواعد أعمدة من غير هذا الأساس

لم أكن لأعرف كم عموداً هنا فى واجهات المقاصير . ومن جهة أخرى فالذى يعطى تقدير الارتفاع فى الأثر هو الأعمدة ، فإن لم توجد هذه الأعمدة ربما كان العمل أكثر صعوبة إن لم يكن مستحيلاً . وكذلك كان الحال فيما يخص الجدار المستدير فى المعبد ، فلم يتبق منه إلا قطع من بينها الجزء العلوى ، واستخرجت كذلك من الرمال تيجان أعمدة بردية الشكل . من الواضح أننى إن لم أجد هذه العناصر الأساسية ، ربما لم أتمكن من مباشرة أعمال إعادة البناء فى مجموعة زوسر الجنائزية . أنا أعترف الآن أنه عمل لا يصدق ، ولكن أى رضا يملأ الإنسان عندما يكون وحده هو الذى كان وراء هذا العمل فى مجموعة جنائزية كاملة وفريدة فى تاريخ الإنسانية . قبل الحرب كانت الآثار عملاً يقوم به أحد الرواد وكان هذا مصيرى ، ولم يعد هذا ممكنًا الآن . فلو أن الحفائر بقيت تحريات بوليسية فى طيات الزمن لم نكن لنباشرها إلا فى إطار فريق من المتخصصين فى كل فرع من فروع المعرفة ، الأمر الذى لم يكن موجودًا فى بداية القرن .

ولو افترض أن أقوم بهذا العمل ثانية اليوم فسوف أسلك الطريق نفسه والأسلوب ذاته الذى استخدمته فى ذاك العصر ، لأنه عملى . فهل كنت أنجز أسرع وأعمل أفضل باستخدام الكمبيوتر ؟ فهو عمل دقيق للغاية ويتطلب صبراً بلا حدود . ولا أرى كذلك كيف فى هذا الموقع خاصة تحل الماكينة محل يد الإنسان ، ربما يوجد جهاز خارق يكون قادرًا على إعادة بناء موقع مجموعة زوسر ، ولكن هذا الجهاز لا أعرفه .

ولم أعمل إطلاقًا على الكمبيوتر لأنه فى هذا العصر الذى ظهرت فيه هذه الماكينة كنت قد أصبحت عجوزًا، ولم يكن متصورًا أن أكون معمرًا لأبدأ فى استخدامه من جديد . وقلت إنه من غير المجدى أن أبدأ فى الغوص فى هذه التقنيات بقلم بسيط . عندما يكون علىّ أن أكتب المقالات التى يلحون فى طلبها ، والتى تأخذ الكثير من وقتى ، أتأسف لعدم وجود كمبيوتر .

أن تضغط على زر فترج لك كل الأعمال المتعلقة بموضوع بحثك هذا شيء عملى جدا ، ولكنى مقتنع أن هذه التقنية الحديثة تمنعنا من الثراء المعرفى الذى تمنحنا إياه المكتبة ، فعندما نفتح الكتب نرى أشياء لم تكن متوقعة والتى تقود لأبحاث أخرى وتطور نتائج أخرى لم تكن تخطر لنا ببال . رجل من قرن آخر ، إننى أشعر بالارتياح مع الهيروغليفى كما هو الحال مع الإقرار الضريبى ، وهو عقاب أواجهه بقلق فى كل مرة أعود فيها لمصر . المشكلة فى مجتمعنا أن الناس يسيرون مع العصر ولكن عليهم أن يكونوا أسرع منه . ولحسن حظى ، فى عام ١٩٢٦ لم يكن مفهوم المردودية سائدًا ، فقط تأكدت بعد وجود الطائرات أن الخطاب الذى كان لا يستغرق سوى ثمانية أيام لكى يصلنى فى سقارة أصبح يستغرق أكثر من خمسة عشر يومًا ؟ فعلام هذا السعى للتقنية ، الذى نفقد فى سبيله الكثير ؟ والدراما أننا فى نهاية المطاف نفقد أنفسنا .

قوتى تنبعث من محبتى الكبيرة للمواقع الجنائزية لزوسر ، فأقول هناك تأثير متبادل بين مبدع هذه العمارة وبينى . وعندما يمازحنى

البعض يقول لى إننى إعادة تجسيد لإيمحوتب ! ما أستطيع قوله هو أنه احتجزنى هنا . روح كبيرة كروحه لا تفارق ما أبدعه . وأحس بنوع من المسئولية تجاهه ، والمدهش أن هذه الآثار التى شيدت على عجل فى عشرين عامًا تقريبًا أخذت منى أكثر من سبعين عامًا فى إعادة بنائها ، ربما بحب أكثر وعناية أكبر من تلك التى بذلها إيمحوتب نفسه عند تشييدها . إننى سعيد لإعادة منافذ الإضاءة الأصلية فى الدهليز ، نستطيع رؤية الشمس تنساب على العمارة لتبرز جمال الأعمدة .

أود لو أن إيمحوتب ظهر لى لأناقشه فى بعض النقاط الغامضة ، كنت سأسأله ما الهدف من المقبرة الجنوبية ، والتى وضعنا من حولها فيرث وأنا العديد من الافتراضات ، وليس عندى الوقت ولا الإمكانيات للنهوض بحفائر فى الجانب الغربى من السور والذى يخبئ تحته دهاليز، وما الهدف منها ؟ وآخر شىء أتأسف لعدم القيام به هو عدم نزولى فى البئر الواقع مباشرة بعد مدخل دهليز الأعمدة ، فلربما احتوى مقبرة إيمحوتب .

قالت كاترين برجير ذات يوم ، ذاكرة هذه الجبانة الضخمة : وهذا ليس خطأ تمامًا ، فعندما نقضى هنا قرابة القرن من الزمان ربما نزعم معرفة بالأماكن . فى سقارة أحس أننى فى حياة وإن لم يكن كل شىء متيسرًا ، يجذبنى هذا السلام ، سلام الصحراء ، يبعث الصمت هنا فى الإنسان سكونًا داخليا يقترب من الأبدية . تظل مصر رغم ما تعانيه بلدًا رائعًا ، وكان لى الحظ أن أعرفها عندما كانت مسحة من الشاعرية

تكسو كل شيء فيها ، الأمر الذى توقف مع مجيء عبدالناصر ، حتى بعض التفاصيل التى تعطى الشارع سحره : نرى دومًا ابتداء من أبريل ارتداء الناس للثياب البيضاء وحتى الخريف ، لكن اختفى الطربوش ، وأنا – من المفترض بالنسبة لعبد الناصر – موظف فرنسى نظرًا لنظرية الرجعية. استطعت هكذا أن أفيد من تقاعد يبدو لى مفيدًا اليوم ، ربما لأعود لسقارة . عندما بلغت الثانية والسبعين أحالنى مركز الأبحاث القومى الفرنسى CNRS هو الآخر للتقاعد ، وجعلونى مديرًا شرفيا . ومنذ ذلك الحين لم أستطع الحصول على أى إمداد مالى من أجل أعمالى . أعود من ثم على حسابى ولكننى أعتبر أن هذا واجب بعد مرور هذه السنين فى إعادة بناء هذه المجموعة ، أن أتركها فى أفضل حال ممكن ، وأشرف على ما تبقى . بفضل بعثتين فرنسيتين ، بعثة لابروس وبعثة زيفى اللتين تأتيان بالتتابع لتقوما بالحفائر أثناء الشتاء ، أستطيع أن أستقر فى بيتى وأنا مع أعمالى فى سلام . من الواضح أننى معتمد على الآخرين فى معيشتى هنا، منذ خمسة عشر عامًا سحبوا منى سيارتى ، وآتى للموقع منذ عام على قدمى ولم يعد هذا ممكنًا اليوم . وانتهى المطاف بأن استعادونى ، حيث يأتى السياح فى عائلات يزوروننى بعد الأهرام مباشرة .

أحس باضطراب كبير عندما أرى الناس اليوم . من الواضح أن القرن العشرين كان قرن تطور كبير ، انقلبت الإنسانية كذلك بتطور العلم . لقد ولدت وسط عربات تجرها الخيول ورأيت الإنسان يمشى على

القمر ! استحواذ هذه الفكرة العلمية على الإنسان أفرغه من الدين والروحانية . يا له من اختلاف مع الحضارة المصرية القديمة التى ترجع فى تفاصيلها كلها إلى الدين ، وحتى أدق التفاصيل فى الفن تستقر على قاعدة الخلود الدينية ! هناك هوة بينهم وبيننا ؛ وربما من أجل هذا لا تزال مصر فاتنة ، الاعتقاد المذهل فى عالم ما بعد الموت كان مسيطراً على الحياة والموت . ماذا لدينا الآن من حلمنا بالأبدية ؟ فى النصوص المصرية نقرأ هذه الجملة الخالدة التى تشير إلى رغبتهم القوية فى الخلود : "لا ، ليس الموت الذى تذهب إليه ، ولكنها الحياة" ولأننى مسيحى من كل قلبى وأعتقد فى الحياة بعد الموت ، فى أبدية بشكل مختلف ، ولكن بالشكل الذى أراده الخالق ، إيمانى لا يمنعنى من الخوف من الموت ، هذا الأجل بالنسبة لى بارز ؛ مما يقودنى للصلاة كثيراً . فكرة مغادرة هذا العالم وإغلاق الباب نهائيا ليس من اليسير تقبلها ، حتى وإن بلغنا من العمر مائة عام ، تبقى الحياة ممراً قصيرا جدا ...

كتب ومقالات أخرى للمؤلف

La Pyreamide a dagres, L'architecture (Fouilles a Saqqarah, SAE), t. I et II, in 4o, Le Caire, 1936.

La pyramide a degres, Complements, T. III, Le Caire, 1939.

La Pyramide a degres, Inscriptions gravees sur Les vases, en collaboration avec P. Lacau, t. IV, ler fasc. 1959; 2e fasc. 1961.

La Pyramide a degrees, Inscriptions a l'encre sur Les uases, en collaboration avec P . Lacau, T. V, 1965.

Etudes Complementaires sur les monuments du roi Zoser a Saqqarah Reponse a Herbert Ricke, in Suppl, aux ASAE, cahier no 9, 1946.

Saqqarah. Les Monuments de Zoser (texts francais et anglais), en colla-boration avec E. Drioton, Le Caire, 1939 et 1951.

Le Probleme des Pyromides d'Egypte, coll. Bibliothequehistorique, Payot, Pais 1948 et 1952.

Idem, edition japonaise, Universite de Hosei, Tokyo, 1966. .

Oberuations sur les pyramides. Bibliotheque d'Etude de IFAO (Bde), t. xxx, 1960.

Les Statues ptolemaiques du Serapieion de Memphis, en collaboration Avec Ch. Picard, in 40, Publications de l[Inst. D'Archeologie de l'Uniuersite de Paris, t. III, PUF, 1955.

Histoire monumentale des pyramides d'Egypte, t I : Les pyramides a degrees, dans BdE, t. xxxix, 1960.

Les pyramides de sokkara (texts francais et anglais), IFAO, 1961, 1972, 1977; nouvelle edition augmentee en 1991.

Architektur des Alten Reiches, en collaboration avec H.Altenmuller, in Propylaen Kunstgeschichte, Bd. 15 : Das alte Agyptens, par Claude Vandersleyen, Berlin, 1975.

Le Mystere des pyramides, Presse de la Cite, Paris, 1974, 1976, 1978.

Idem, nouvelle edition revue et augmentee en 1988.

Das Geheimnis der Pyramiden, Arthur Moevig, Rastatt, 1988.

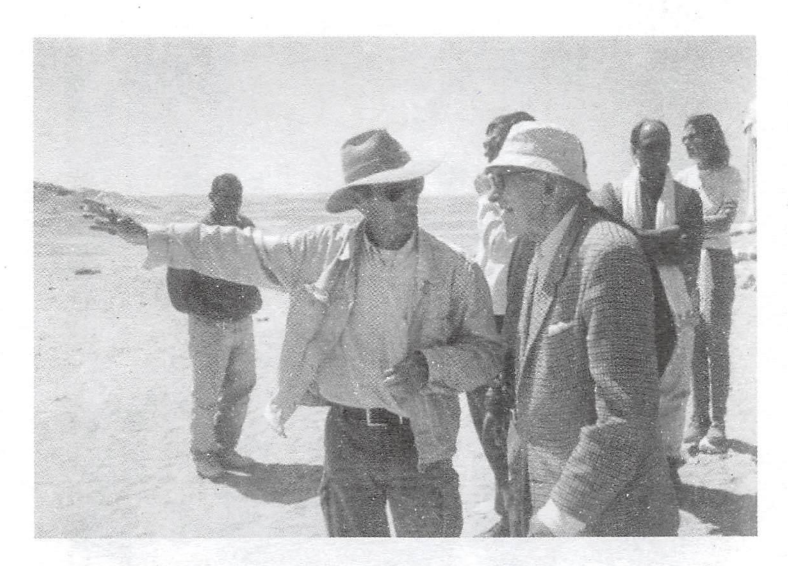
Saqqara, The Royal Cemetery of Memphis. Excauations and Discoueries Since 1850, Thames and Hudson, Londres, 1976, Edition Francaise : Tal-landier, Paris, 1977. Edition allemande, G. Lubbe, Berlin, 1977.

Le Temple haut du complexe funeraire du roi Teti, Mission archeologique Francaise de saqqarah, I, en collaboration avec J. Leclant, Bde, t. Li, Le Caie, 1972.

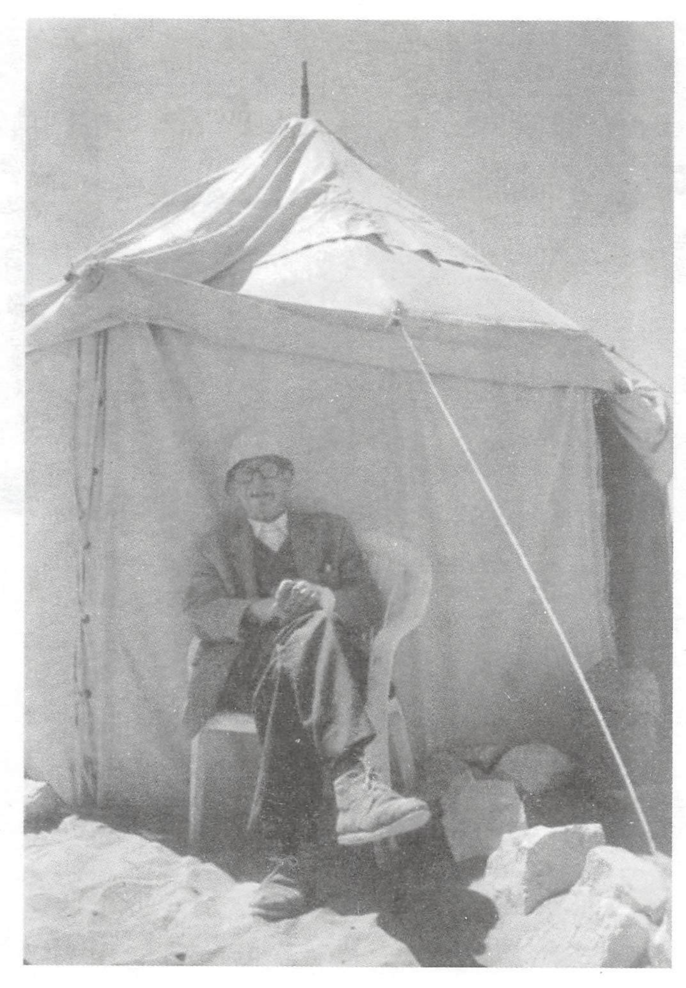
Le Temple haut du complexe funeraire du roi ounas, Mission archeologique Francaise de Soqqrah, II, en Collaboration avec J. Leclant et Francaise de Saqqarah, II, en Collaboration Avec J. Leclant et A. Labrousse, BdE, t. Lxxiii, Le Caire, 1977.

Dans Le Temps des pyramides (collection L'Univers des Fromes, Galli-mad, 1978, chapitres (avec plans et commentaries) sur l'archi-tecture de l'epoque thinite, de l'Ancien et du Moyen Empire.

ملحق بالصور



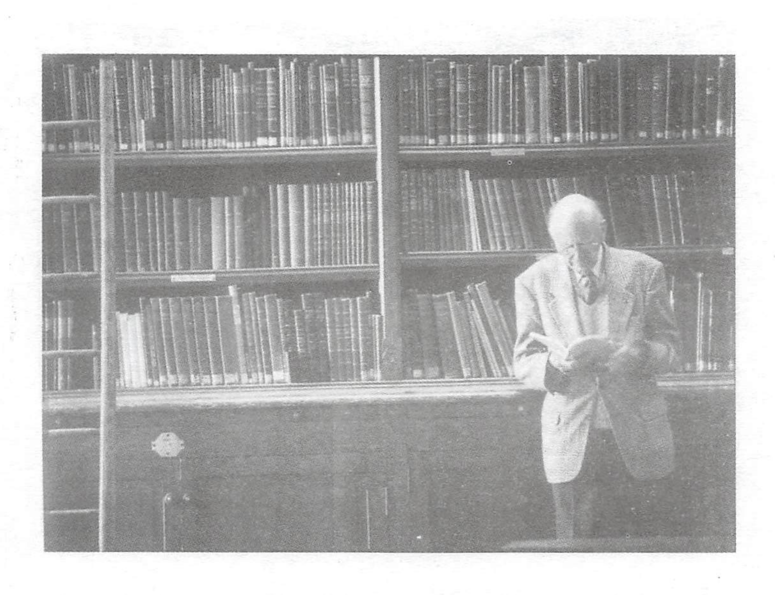
لـوير ولابـروس فى موقع هرم الملك بيى عام ٢٠٠٠



لـوير بموقع ببى فى مارس عام ٢٠٠٠ يستريح أثناء زيارته



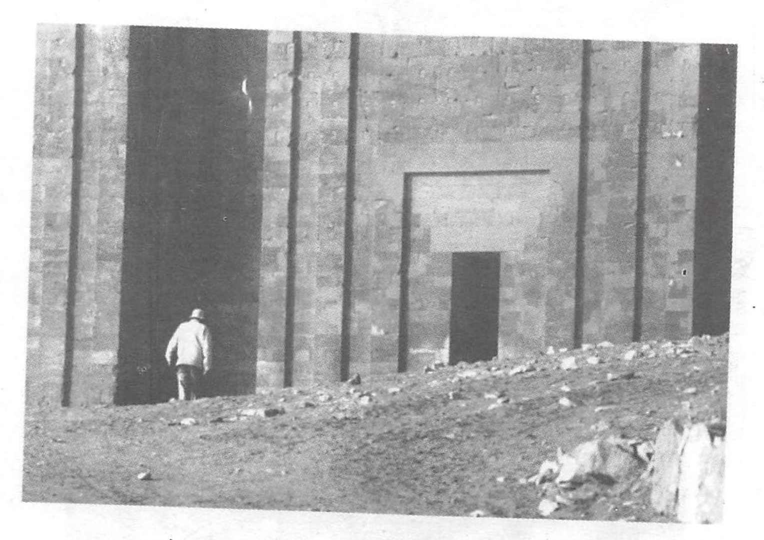
لوير خارجًا من قصر المنيرة الذى أصبح "المعهد الفرنسى للآثار الشرقية"



لـويـر فى مكتبـة المعـهـد الفـرنسى للآثـار الشـرقية



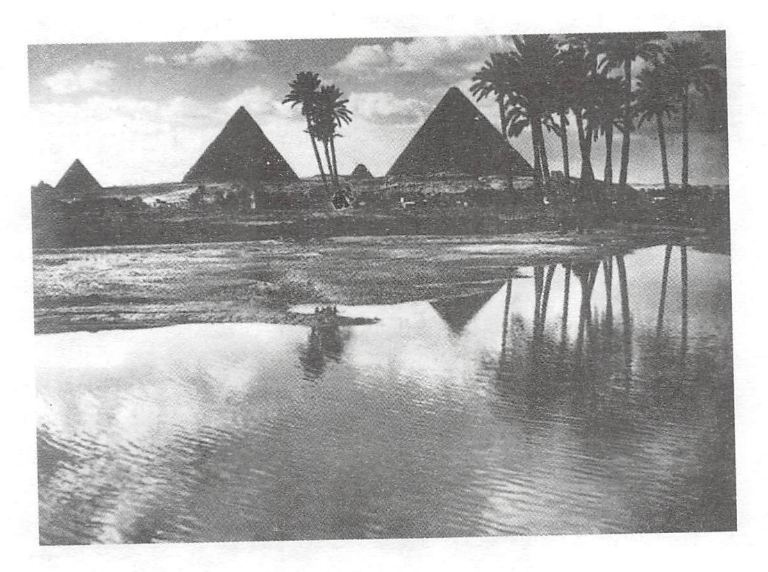
لوير أمام أحد التماثيل اليونانية التى اكتشفها مارييت عام ١٨٥١



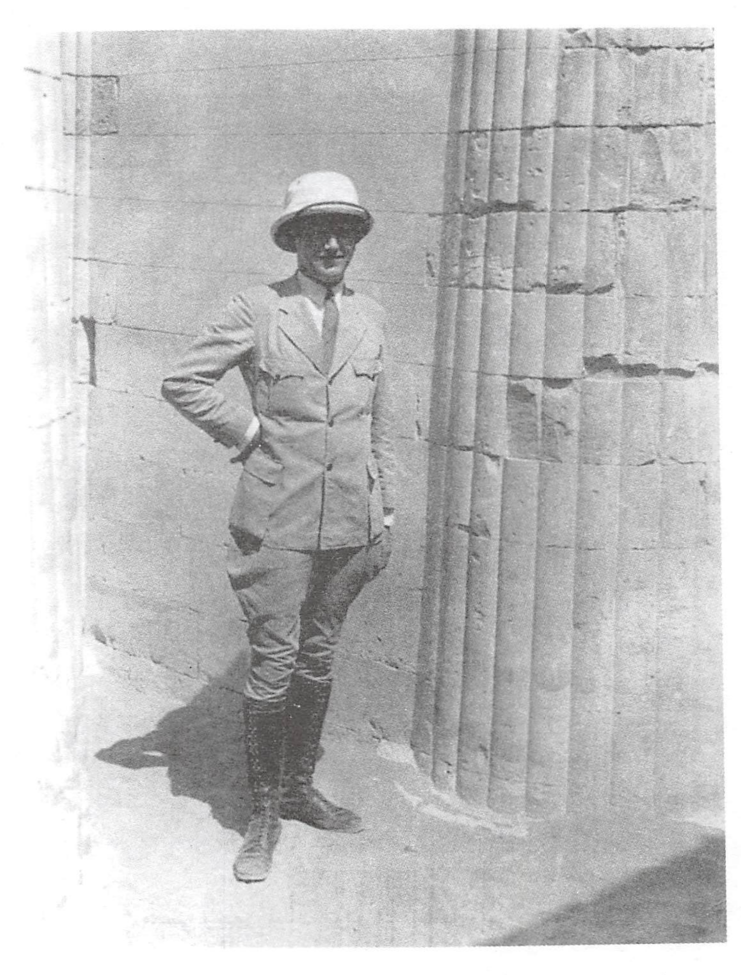
لوير أمام مدخل سور زوسر الذى رممه بنفسه



الهرم المدرج عام ١٩٢٤ قبل حفائر فيرث



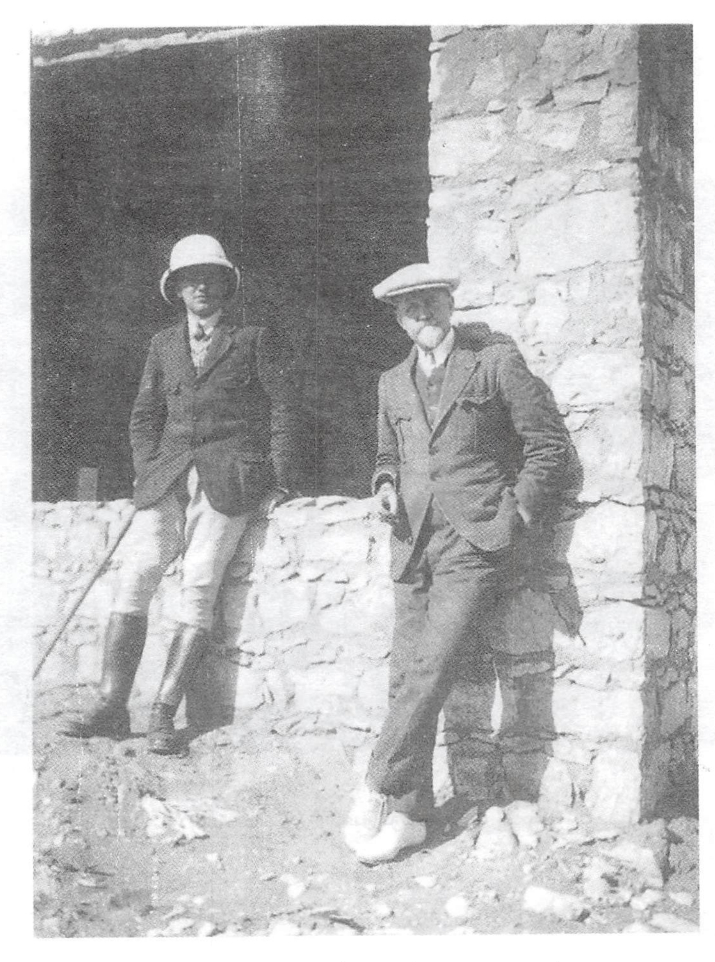
انحسار الفيضان أمام الأهرام الثلاثة بالجيزة عام ١٩٢٦



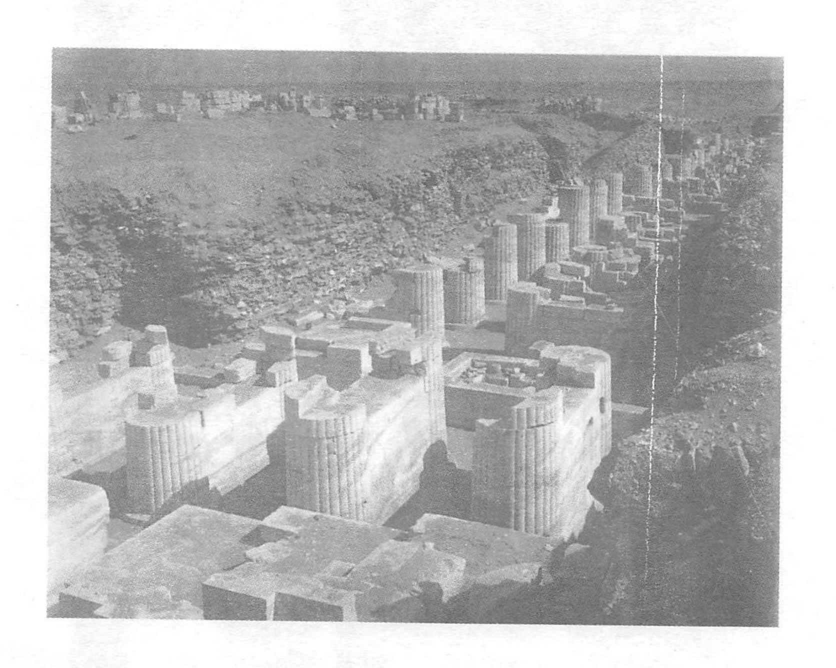
لوير عام ١٩٣١ أمام صالة الأعمدة التى كان يجرى ترميمها



ميمى وجون فيليب لوير فى سقارة عام ١٩٢٩



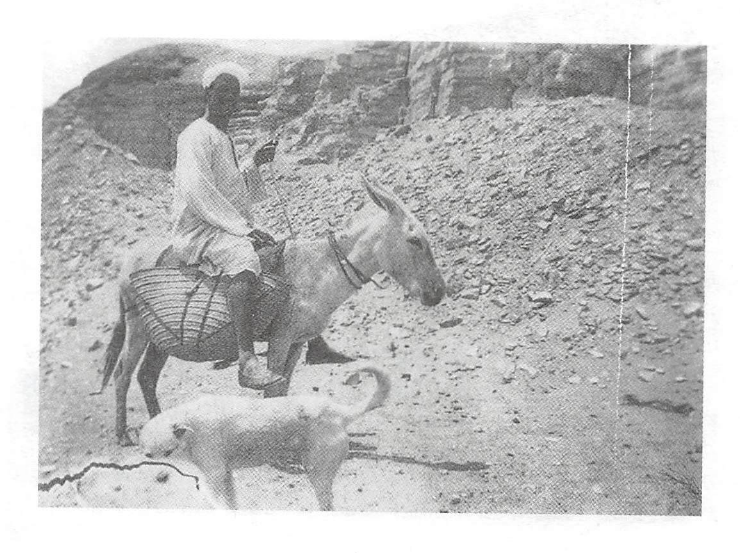
لـوير وجـوسـتـاف جـيكـيـيـه عـام ١٩٢٦



دهليز الأعمدة عام ١٩٢٦ قبل ترميمها على يد مارييت



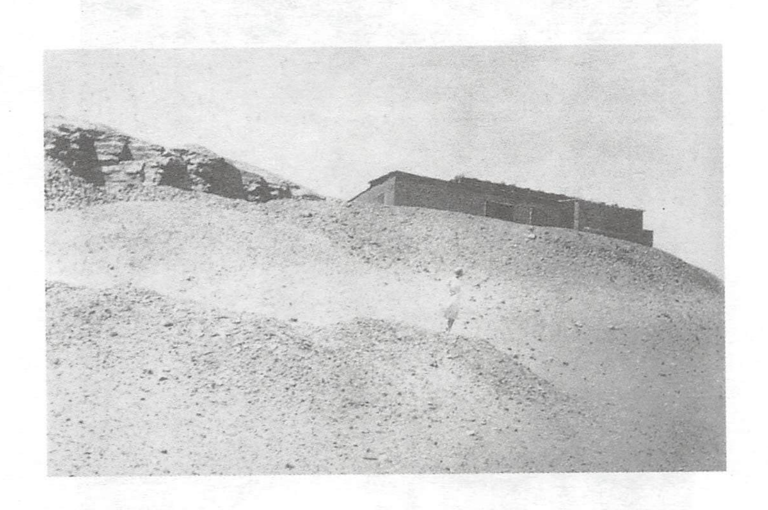
إجازة يوم الأحد فى سقارة :
ميمى لوير (واقفة) بجانب والدها بيير جوجيه (حيث تضع يدها على كتفه)



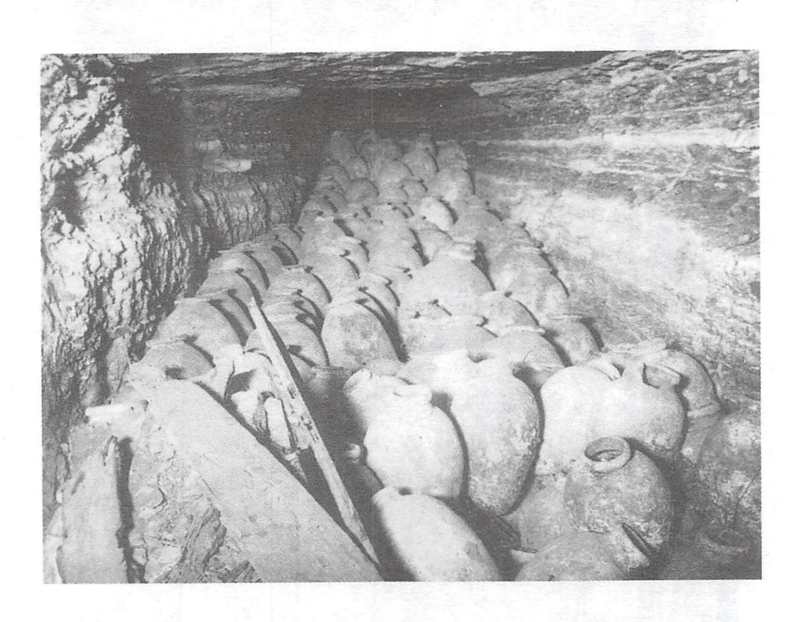
محمد على حماره عائداً من سوق البدرشين



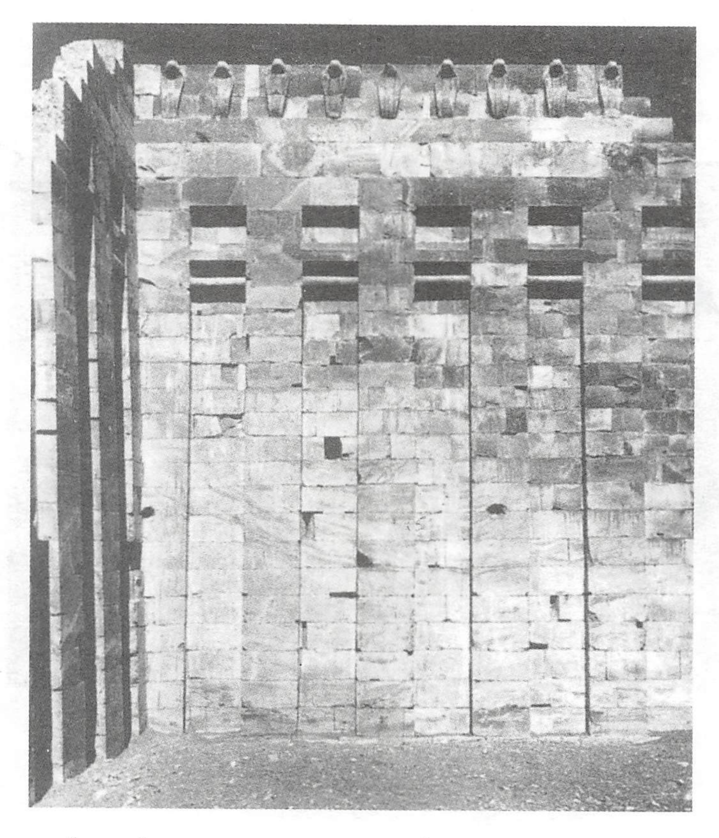
زواج لـوير فى كنيسة سان سولبيس فى بارس ، الأول من أكتوبر ١٩٢٩



ميمى أمام منزل لـوير بسقارة عام ١٩٢٩



١٩٣٢ : أوانى الفخار التى عثر عليها فى أسفل الهرم المدرج



جدار مقصورة مزدانة بحيَّات الكوبرا ، رممها لـوير حجراً بحجراً



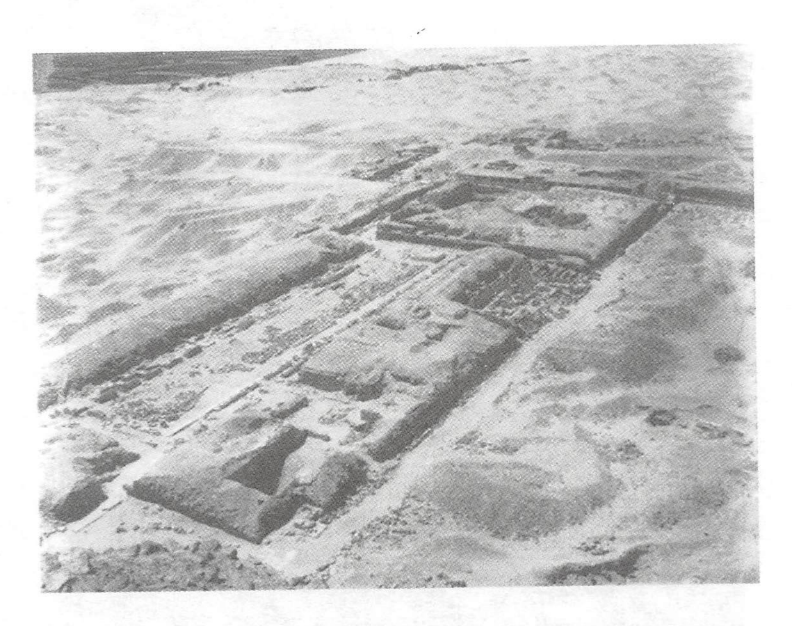
١٩٣٦ : لوير وإمرى (بالنظارة) وبيير كو بلحيته البيضاء ، وكان مدير مصلحة الآثار



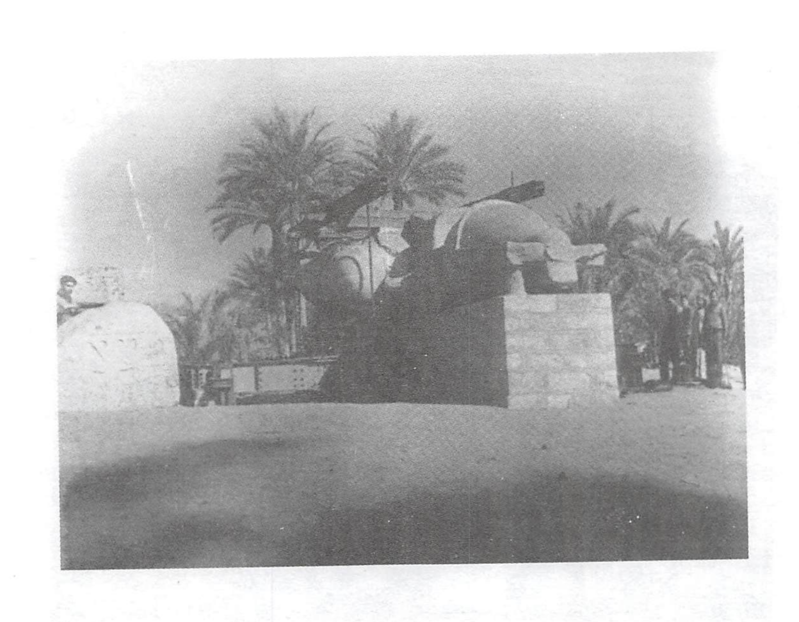
١٩٣٧ : مدام لوير مع ابنتها فلورنس فى سقارة



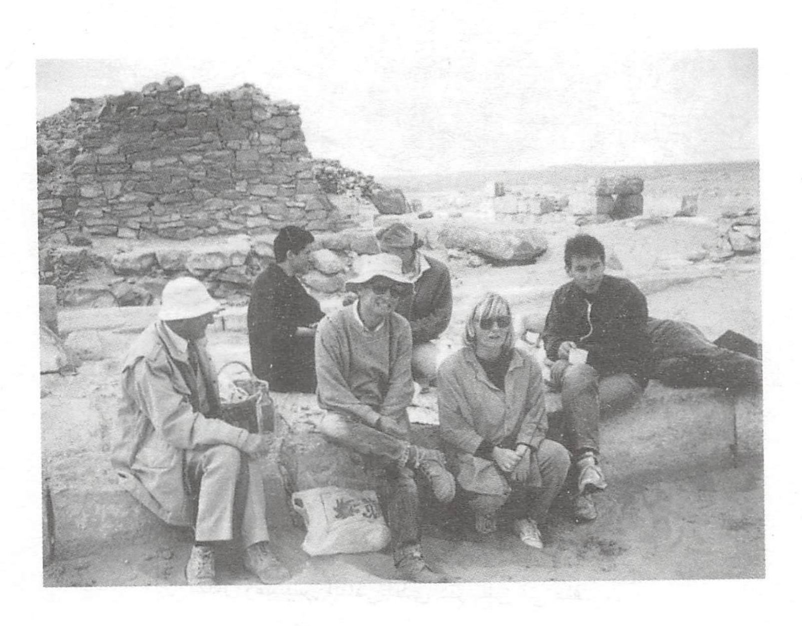
١٩٣٧ : الأب دريوتون (جالساً)



جزء من مجموعة زوسر الجنائزية



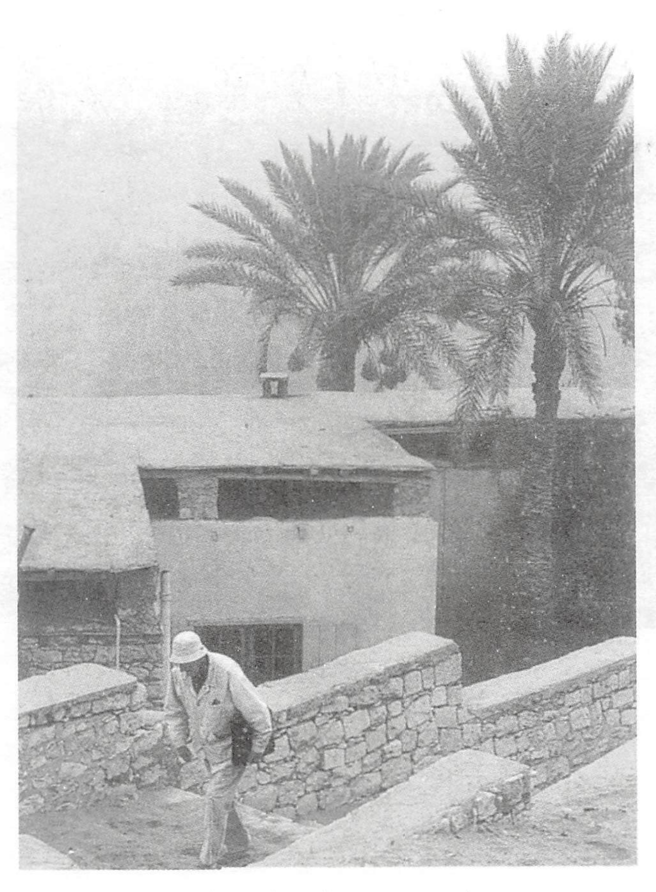
تمثال رمسيس الثانى الذى عثر عليه فى منف ،
والذى [كان] يقف فى ميدان رمسيس ،
[نُقل إلى موقع المتحف الكبير قرب الأهرام حالياً] المتحف الكبير حالياً



بجوار هرم ببى الثانى بسقارة مع أودران لابروس
وكاترين برجير وفازيل دوبروف عام ١٩٨٩



لوير مع لوكلان فى سقارة



لوير يصعد سلالم منزله بسقارة



لوير مع أحد رؤساء عماله



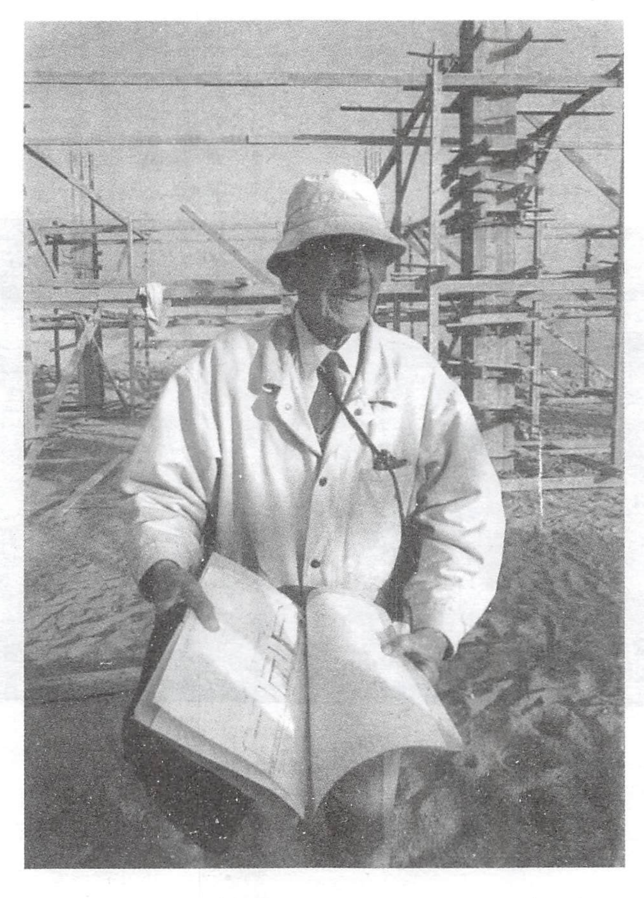
لـوير مرشــداً ســياحيا



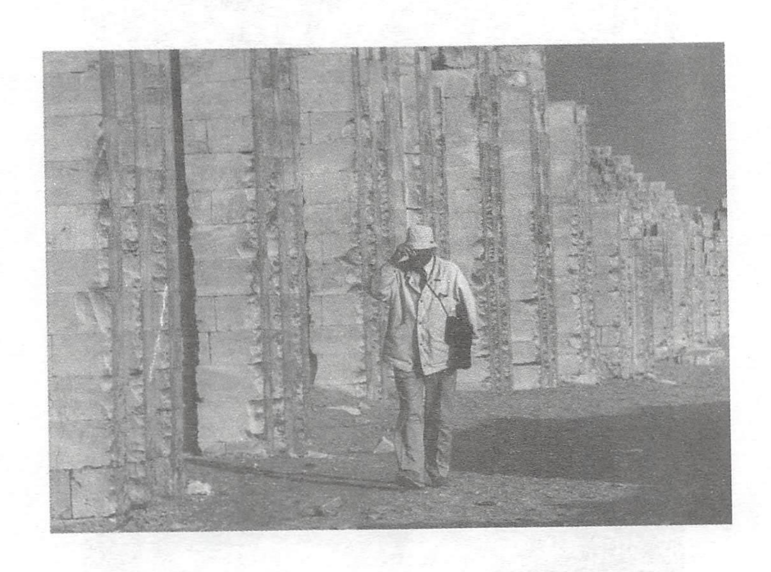
لوير يشرح آثار سقارة للرئيس جاك شيراك



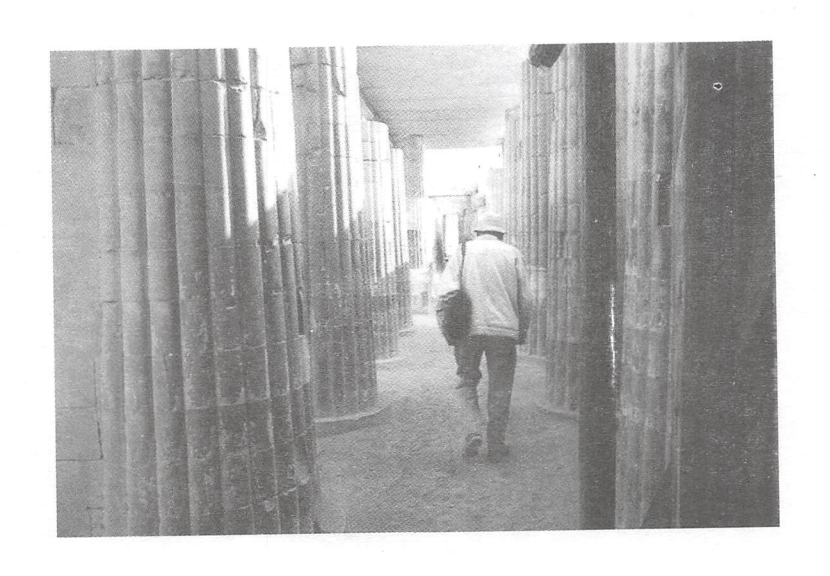
لوير داخل المقبرة الجنوبية



لوير أمام أساسات متحفه عام ١٩٩٥ والذى أمر بهدمه وزير الثقافة



لوير يسير أمام السور من ناحية الجنوب



لـوير داخـل دهـليز المدخـل الذى رمـمـه

المؤلف فى سطور

جون فيليب لوير

جون فيليب لوير، ولد فى باريس فى مايو عام ١٩٠٢، حصل على شهادته فى الهندسة المعمارية، وسافر إلى مصر للعمل لدى مصلحة الآثار المصرية لمدة ستة أشهر، تجددت سنويا؛ ليبقى طيلة عمره. استبعده رجال الثورة بعد عام ١٩٥٢ ، ليعود من جديد إلى مصر فى الستينيات. رمَّم مجموعة زوسر، ومكث فى سقارة فى بيته الصغير مع زوجته وأولاده حوالى ثلاثة أرباع القرن، ساهم فى العديد من المكتشفات الأثرية بسقارة، وكان آخر موظف أجنبى يتقاضى راتبًا من مصلحة الآثار. كرمته مصر وكذلك فرنسا التى عينته مديراً شرفيًا بمركز الأبحاث القومى العلمى (CNRS) .

المترجم فى سطور

حسن نصر الدين حسن

حصل على الليسانس ثم الماجستير فى الآثار المصرية من كلية الآثار بجامعة القاهرة ، ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة ليل - شارل ديجول بفرنسا.

ومن أهم أنشطته العلمية : التدريس بكلية الآثار جامعة القاهرة، وأقسام الآثار والإرشاد السياحى بالجامعات والمعاهد المصرية، والمشاركة فى المؤتمرات العلمية فى الداخل والخارج. وكذلك المشاركة فى الحفائر الأثرية فى مصر فى سيناء وسقارة ، وكذلك فى فرنسا مع الجانب الفرنسى فى شمال فرنسا.

ومن أعماله المترجمة : آلهة مصر القديمة (عن الفرنسية) - ضمن المشروع القومى للترجمة .

ومن أهم مؤلفاته : الآثار المصرية فى العصر المتأخر - من منشورات المجلس الأعلى للثقافة .

التصحيح اللغوى : شوكت المصرى
الإشراف الفنى : حسن كامل